

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة التاسعة. العدد الرابع والأربعون: ربيع الأول/ربيع الآخر 1436هـ الموافق لـ جانفي/فيفري 2015م

النسب العلمي

توفيق عمروني

جديد الفتوى...

في فساد دعوى تقييد الطلاق بالقاضي

أ.د.محمد علي فركوس

السحر وعلامات الساحر

عثمان عيسي

ما يعصم من فتنة الدجال

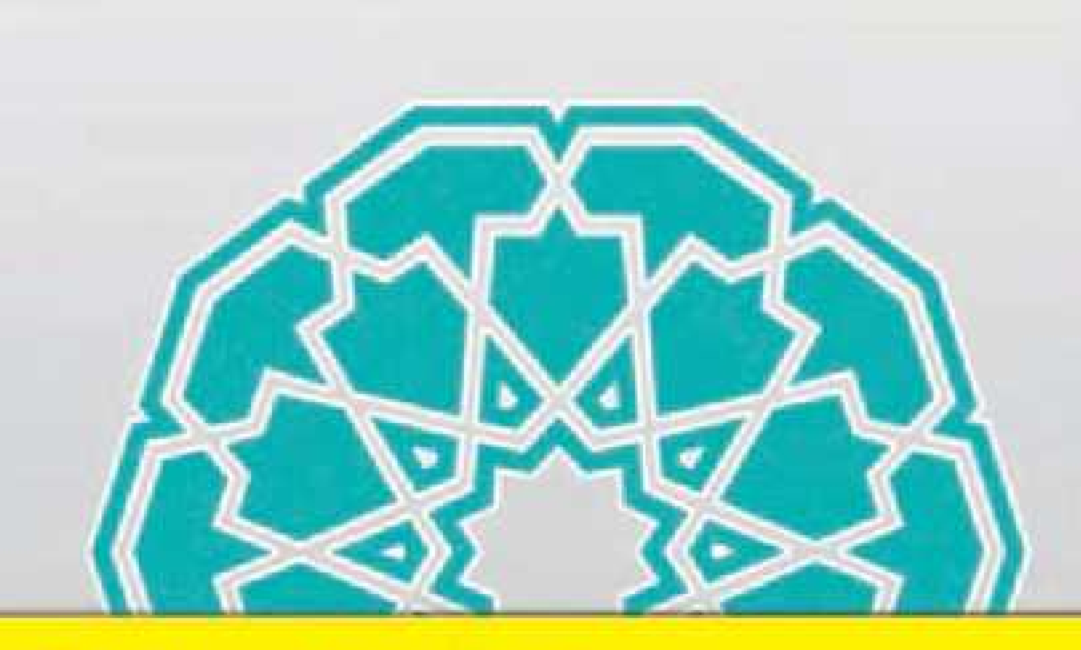
عباس ولد عمر

الكلمة النابية وأثرها على تربية الطفل

عز الدين رمضاني

نصـرة أم إسـاءة ؟!

السعر: 200دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112.6825



ترقبوا المسابقة الثانية لمجلة الإصلاح في العدد (45)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ مِنْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.



يرجى إرسال طلب يتضمن الأمور التالية:

- الاسم واللقب.
- العنوان.
- الهاتف.
- الوظيفة.
- وصل الحوالة البريدية.

ترسل الحوالة البريدية باسم توفيق عمروني على الحساب البريدي الجاري:

ccp 4142776 clé 96

قيمة الاشتراك:

الأفراد: 1200 دج - المؤسسات 1500 دج

عنوان المراسلة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع

التعاونية العقارية (الاصلاحات) ـ قطعة (44)

عين النعجة - الجزائر



نصرةٌ أم إساءةٌ؟!

إنَّ من تداعيات الحَملة المسيئة لجنَاب نبيِّنا ﷺ بنشر رسُومات ساخرة على صفحات مجلة فرنسيَّة سافلة، أن أبانت عن غوغائيَّة بعض الأقلام الصُّحفيَّة الَّتي أبَت إلاَّ أن تُعلنها حربًا كلاميَّةً فيها كثيرٌ من الإساءة والافتراء في حقِّ السَّلفيِّين لكونهم لم ينساقوا وراء دعواتهم للتَّظاهر والمسيرات، وذكَّروا النَّاسَ بحكم هذه المظاهرات، وأعادوا نقلَ ما تقرَّر عند العُلماء الرَّبَّانيِّين من أنَّها ليست من الوسائل المشروعات؛ فكيف تكون وسيلةً لنصرة سيِّد البريَّات ﷺ؟!

إنَّ نصرتَه ﷺ حتمٌ واجبٌ من مقتَضيات الإيمان؛ وأعظمُ ما يُنصَرُ به ﷺ هو اتِّباعُ هديه ونشرُ سنَّته، ليس ليوم واحد، أو لمدَّة أسبوع أو شهر ولكن مدى الحياة، والسَّلفيُّون هم أسعد النَّاس بهذه النُّصرة كما هو ظاهرٌ لكلِّ ذي عينَيْن؛ إلاَّ مَن نظر إليهم بعَين السَّخط من بعضِ مُسوِّدة الجرائد فإنَّه رماهم بالتَّخاذل عن نُصرته ﷺ والتَّقاعُس عنها!!

والمسلمُ يستبشر لهبَّة المسلمين لنُصرة نبيِّهم ﷺ، لكن يكدِّر صفوَ هذه البشارة إذا أدركَ أنَّها مجرَّد عواطف وحماسات، يعوزُها العلمُ الصَّحيح لتَرشيدها؛ لأنَّ من القَواعد الشَّرعيَّة أنَّ عملَ المسلم لا يُقبَل حتَّى يتوفَّر فيه شرطان: أحدهما النِّية الحسَنة وهي الإخلاص؛ والثَّاني موافقة السُّنَّة وهو المتابعة، وإلاَّ كان العَمل مردودًا؛ ولمَّا كان نُصرةُ نبيِّنا ﷺ منَ العمل المتقرَّب به إلى الله تعالى؛ كان لزامًا على المرء أن يتعرَّف على كيفيَّة الانتصَار للنَّبيِّ المختَار ﷺ، قبل الإقدام على أيِّ تصرُّف، فإنَّ العلمَ قبلَ القَول والعَمل؛ ومَن عَملَ بغَير علم كانَ ما يُفسد أكثرَ ممَّا يُصلح، والقصدُ الحسَنُ لوحده غير كاف، إذ ما من مبتَدع إلاَّ ويحسَبُ أنَّه يقصدُ خيرًا، لكن لمَّا خالف الهديَ النَّبوي خابَ سعيُه، ولم تنفَعْه نيَّتُه ولا قصدُه.

وأعجبُ من صحيفَة تكتب بالبند العَريض: «**شكرًا لكُم أيُّها الجزائريُّون! فقَد نصرتُم نبيَّكم، وبرئت ذمَّتكم**»، لمجرَّد خروج في مسيرة احتجاجيَّة أو رَفْع لافتة مندِّدة، إنَّ هذه المغالطة تُنبئُ عن قلَّة العلم الشَّرعي الصَّحيح في الوسط الإعلامي، وإلاَّ لما كان يصدُر منهم مثل هذه العبارة المضحكة المبكية.

فمنَ الظُّلم بمكان أن يعابَ على السَّلفيِّين تمسُّكُهم بالعلم والسُّنَّة؛ وهو ما جعلهم لا يُجارون الحُشود ولا يستَنفرهُم الإعلام المثير، ولا يُسايرون مَن لا علمَ عندَه، ولا يسوقُهم مَن لا فقهَ معَه؛ لأنَّهم يرونَ أنَّ الرَّشاد في تسليم زمام قيادة الأمَّة لعُلمائها الأبرار، فعَن رأيهم يصدر النَّاس ويسترشدون، وبأقوالهم يستنيرون طريقَ النَّجاة؛ لا بكتابات الإعلاميِّين وأقلام الصّحافيِّين؛ ففرقٌ كبيرٌ بين العالم والإعلامي، والغاية المرجوَّةُ أن نكونَ أمَّةً يقودُها العلمُ لا الإعلامُ.



مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع



عنوان المجلة:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44) عين النعجة ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: 38 56 57 (023)
(النقال): 92 99 06 (0559)
التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:
www.rayatalislah.com

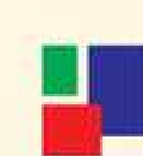


العدد الرابع والأربعون ـ السنة التاسعة:

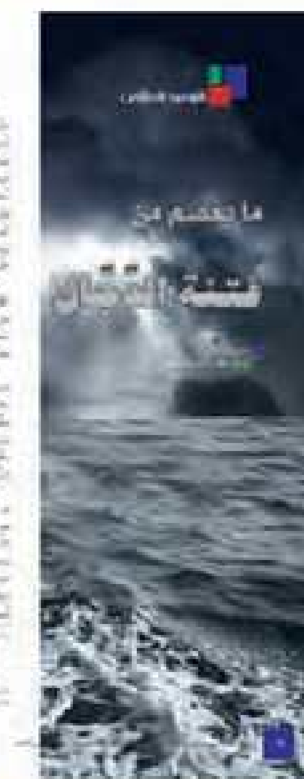
ربيع الأول ـ ربيع الآخر 1436 / جانفي ـ فيفري 2015

السِّحر... وعلامات السَّاحر

12



ما يعصم من فتنة الدجال



18



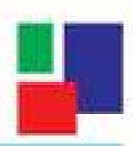
غلاف العدد السابق





النسب العلمي

30





الكلمة النابية
وأثرها على تربية الطفل

61

قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

المراسلات على عنوان المجلة باسم رئيس التحرير:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44)
عين النعجة ـ الجزائر
الفاكس: 38 56 57 (023)
البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

سعر النسخة: (200 دج)
الاشتراك السنوي للأفراد: (1200 دج)
الاشتراك السنوي للمؤسسات: (1500 دج)



الغيرةُ الدِّينيَّة





في خضَمِّ الأحداث وتسارُع الأخبار تتوَلَّدُ العجائبُ والغرائبُ، وتتبدَّلُ معها الحقائقُ وتكثُرُ فيها المهازلُ، ومن رحِمِها المُتَعفِّن يتنسَّرُ أقوامٌ من الجهلاء، وينطق رويبضاتُ الزَّمان، الَّذين لا يفكِّرون إلاَّ بعقول الأعداء، ولا يُبصرُون إلاَّ بأَعيُنِهم، راسخٌ في نفوسهم أنَّ الخيرَ ما جاء من عندهم وأنَّ الشَّرَّ ليس إليهم، وهذا حالُ الضَّعف والضُّعفاء ولو سَتَروا أنفُسَهم بقشورٍ رقيقة من علم أو ثقافة نالوها على مَوائدهم بعد استعْبَاد فكريٍّ وخُنوعٍ مَعنَويٍّ وتبَعيَّة مَهينَة، وهذه شنشنَةٌ معروفةٌ، سنَّها مَنْ رفعوا عقيرَتَه بالتَّقوُّل على القرآن، وسلَّموا له رايةَ الاعتلاء على عرش الأدب العربي، فتجرَّأ على دينِ قومِه، وجَهِلَ بإصداره للجهالات في «شعره الجاهلي»، ومنه وَرِثَ أتباعُه في الدَّجَلِ والتَّنكُّر للقيم ومحارَبَة الدِّين هذا التَّقزيم الظَّاهر في صورة التَّكريم، وتوالى الوعدُ المشؤومُ على أهلِه، وتَمخَّضَ الجبلُ لِيَلِدَ فأرًا، وتَعصَّرَ القلمُ لينطقَ كُفْرًا، وتَمَّ صدورُ رواية هزيلة، أخرجها من هزالها الإعلامُ الغربيُّ، لا تمُتُّ بصلة إلى أدب أو لغة، ولا تزينها بلاغةٌ ولا بيانٌ، ولا تَلمَسُ فيها جنوحًا لحلِّ مشكلة أو طُموحًا لتفادي مُعضلة، ولا تَحملُ فَلْسًا من القيَم والأخلاق، إلاَّ المُنكَرَ من القول وزورًا، نَطقًا بالكفر واستعداءً على الذَّات الإلهيَّة، واستخفافًا باللُّغة والدِّين والقرآن، يسوقُ كلَّ هذا الهُراء على لسانِ شخصيَّة موهومة، هو ـ في الأصل ـ تعبيرٌ عمَّا يحمله دعيٌّ القوم في قلبه من رواسبِ الغلِّ والعداء لأمَّته ولدينها ولُغَتها، يفعلُ ذلك ليَغيظَ به الَّذين آمنوا، ويَستدرَّ المَدحَ والعطفَ من الَّذين كفروا، ودافعُه إلى ذلك ـ والله حسيبُه ـ مُسَوِّغاتٌ واهيةٌ، واحتفاءٌ بمذاهب القوم ومشاربهم المُمَجِّدة لحُرِّيَّات التَّعبير والتَّفكير، الكاسرة لحاجز التَّقديس والتَّعظيم ولو كان في حقِّ ربِّ العرش العظيم، يَحدُثُ هذا في بلدِ الإسلام وعلى مرأى الإعلام ومَسْمَعِ الأنام.

وهنا تأتي المُفارقاتُ العجيبةُ، وتغيبُ الرَّقابةُ، ويُفرَّطُ في الاحتسابِ ويُغْمَطُ الحقُّ، وتنمحي الغيرةُ من نفوس الكُبراءِ والأعيانِ؛ من ذوي الفكر والأقلام وحُرَّاسِ الفضيلة وأعلام الدِّين، فيُتأَوَّلُ للأقاويلِ ويُعتَذَرُ لأصحَابها، ويُدافَعُ عنهم بحمِّيَّة واستماتة، نكايةً في الغيرة وإظهارًا للشَّماتة، وآخرون منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بهم ولكنَّهم فَضَّلُوا الصَّمتَ على النُّطقِ بدعوى أنَّ الأمرَ ليس ذي بال، ولا يعدُو أن يكونَ وِجهَةَ نظرٍ، زلَّ بها قلمُ بَشَرٍ، لا يستدعي كلَّ هذا الاستنفارِ، ولا

يصلُ إلى حدِّ الاستنكارِ، ولو أنَّ رَجُلاً في غاية شكِّك في معلوم من «الثَّوابت» ذات الخطوط الحمراء، أو تَنكَّرَ لأصلٍ من معالم الهويَّة ذات الصِّلة بالوطنِ والانتماء ـ ولو بتأويل مُستسَاغ ـ لأُعلنَتْ حالةُ الطَّوارئ في البلاد، واسْتُنْفِرَ من فيها من العباد، وتعالَتْ أصواتُ المُندِّدين، ولسَالَتْ أوديةٌ بقَدَرِها من مِدَاد الأقلام على صَفَحات الجرائد، وقليلٌ أولئكَ العُقلاءُ، أهلُ الشَّهامة الفُضلاءُ، الَّذين تَأخُذُ منهم الغيرةُ مَبْلَغًا، وتُحرِّكُ في أشجانهم رُوحَ الدِّفاع عن القيَم والانتصارِ للدِّين، ليبقى الدِّينُ حَرَمًا مَصونًا، لا يرتَعُ فيه اللَّامِزون، ولا يجوسُ حِمَاهُ العابثون، وحينَ يَصدَعُ ناطقٌ بالحقِّ ويسْتَنجِدُ بمَنْ يملِكُ حقَّ الرَّقابة والاحتسابِ إلى استخدام حقِّ الرَّدع والزَّجر حمايةً لجَنَاب التَّوحيدِ وغيرةً على دين ربِّ العالمين أن تتطاول عليه ألسنةُ السُّوء أو تنالَهُ أفواهُ المَهزُومين ببَذيءِ الألفاظ، تَختَلُّ الموازينُ وتَضطَرِبُ الفُهومُ، ويضعُفُ واجبُ النُّصرَة، ويُغلَّبُ تيَّارُ الحداثة والتَّنكُّر للأصالة، وكأنَّ القومَ يُعجبُهم أن يَرَوْا عزيزًا يُذَلُّ، وكرامةً تُمتَهَنُ، ومروءةً تذوبُ، ودينًا يضيعُ بين جُهَّال.

والواجبُ الَّذي يُمليه الدِّينُ وتقتضيه المروءةُ هو أن يَهُبَّ جميعُ الغَيُورين ويَقفُوا وَقْفةَ رجل واحد للذَّوْد عن حمَى الدِّين أن تُنتَهَكَ حُرُماتُه أو تُدَكَّ مَعاقلُه أو يُساءَ إليه بشَفَة أو ببنْتِ شَفَة.

فالغيرةُ الدِّينيَّةُ هي الغيرةُ المطلوبةُ، بل المفروضةُ على كلِّ أحد له انتماءٌ وولاءٌ لأمَّة الإسلام مَهْمَا رفعَةُ مقامُه أو علاَّه مَنصِبُه، فلا يُسمَحُ لأيٍّ كان أَنْ يسكتَ على ناطق بالباطل والسُّوء، أو يَضربَ صَفْحًا عمَّنْ سَوَّلَتْ له نفسُه أو حَرَّكَه لسانُه أو عَبَثَ به قلَمُه أن يَمْتَدَّ ـ بقصد خفيٍّ أو صوت جليٍّ ـ إلى شيءٍ من أوامرِ هذا الدِّين وأحكامه ومسائله ودلائله تحتَ أيِّ ذريعَة وبأيِّ حُجَّة كانت، هذا هو الدِّينُ مُذْ ظَهَرَ إلى الوجود، وتلك هي قُوَّةُ الصَّادقين من أهله، يَغارُون عليه، ويَعتَزُّون به، ويُدافعون عنه، ويَنتَصرون له، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ أصلَ الدِّين الغيرةُ، ومن لا غَيْرَةَ له لا دينَ له»[1]، وإذا فُقدَ من الأمَّة هذا النَّوعُ من الغيرة صارت هَدَفًا لكُلِّ طامع، وقَنَاةً لكلِّ ضارب، ولُقمَةً سائغَةً في فم كلِّ جائع، تُمضَغُ كمضغ البهائم للعَلف، ثمَّ تصيرُ إلى الجَوف المُنتِن أو يُرمَى بها إلى حيثُ الضَّياعُ والتَّلَفُ.

لا زال علماءُ الإسلام وأهلُه المُتمسِّكون به يَذكُرُون أنَّ من علامات الغيرة للمحبوبِ وعلى المحبوب ـ واللهُ أَجَلُّ محبوب ـ أن يُحبَّ العبدُ ما أحبَّه اللهُ ويكرَهَ ما كَرِهَه اللهُ وسَخطَ عليه، وأن يغارَ إذا عُصيَ محبوبُه وانتُهكَ حقُّه وضُيِّعَ أمرُه.

وبدون هذه الغيرة لا يبقى في الأمَّة عزَّةٌ ولا كرامةٌ، ولا عند أفرادها نَخْوَةٌ ولا شهامةٌ، يقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وإذا ترحَّلَتْ هذه الغيرةُ من القلب ترحَّلَتْ منه المحبَّةُ، بل تَرَحَّلَ منه الدِّينُ وإن بقيَتْ فيه آثارُه، وهذه الغيرةُ هي أصلُ الجهادِ والأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر»[2].

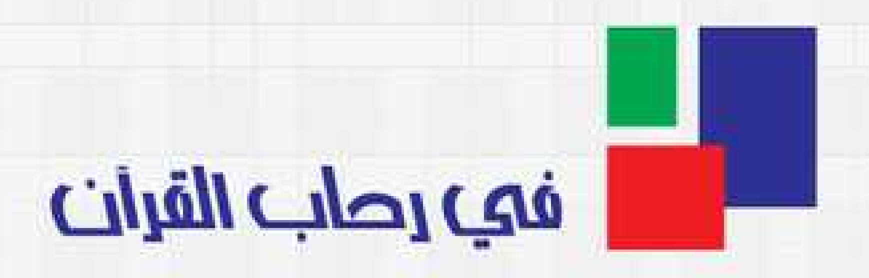
إنَّ في كثير من بلاد المسلمين ـ للأسف الشَّديد ـ تلمَحُ أنَّ هناك وَهْنًا في نُصرَة العقيدة، وجفاءً في ميرَاث الأخلاق، وجفافًا في ينابيع المَعرفَة والعلوم الَّتي زَخرَ بها دينُهم، لا تُحييه إلاَّ غُيوثُ المدَاد من الأقلام الرَّاشدَة، ولا تُقيمُه إلاَّ لُيُوثُ الرِّجال من ذَوي الأنفاس الصَّادقة، الَّذين لا يُؤمنُون باستعارَة المبادئ الضَّارَّة من الأجنبيِّ، والاقْتيَات على فتات فكره العدائيِّ؛ لأنَّ فيهم القرآنَ يَهدي والعربيَّةَ تجدي والتَّاريخَ الإسلاميَّ يُعيدُ ويُبدي.

فعلى أهل الإسلام أن يَعلَمُوا أنَّ الشَّرفَ لا يُنالُ إلاَّ بهذا الدِّين، ولن يُرتَقَى إلى العزِّ بغيره سُلَّمًا، ولن يَقُومَ لهم كيانٌ أو يُشادَ لهم بنيانٌ إذا تنكَّروا له ولم يَغارُوا عليه أو فرَّطوا في حمايَته، وعليهم أن يُصغُوا بقلوب واعية تَحدُوها هِمَمٌ ساعيَةٌ لكلمة الشَّيخ البشير الإبراهيمي ـ مُظهرًا عَجَبَه ومُبديًا تَحسُّرَه ممَّنْ يَتنَكَّرُ لدينه من أبناء الإسلام ـ: «وَاعجبًا لأبنائنا يتنكَّرون لدينهم، ـ وهو حقٌّ ـ وهم يعلمون أنَّ اليهودَ حقَّقوا حُلُمًا دينيًّا صبرُوا له عشرات القرون، وأنَّ الهنودَ يغارون للبقرَة تُهان فتطيح الرِّقاب، وقد بَنَوْا على ذلك دولةً، فكيف لا يغارُ المُسلمُ على حقائقه وحقوقه الدِّينيَّة؟ وكيف لا يَبني عليها دولةَ تُطاولُ الدُّولَ؟»[3].



(1) «الدَّاء والدَّواء» (ص68).

(2) «روضَةُ المُحبِّين» (1/273).
(3) «الآثار» (4/208).



شرط معرفة المفسر للغة العربية



د.عادل مقراني
أستاذ بجامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

يعدُّ الجانب اللُّغوي في التَّفسير من أهمِّ الجوانب الَّتي يُعْنَى بها، ومن أنفس المضامين التَّفسيريَّة الَّتي ينبغي الاهتمامُ بها؛ إذ كانت معرفةُ اللُّغةِ العربيَّة من أهمِّ شروط التَّفسير، وهي: «معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، سواء حصلت تلك المعرفة بالسَّجيَّة والسَّليقة؛ كالمعرفة الحاصلة للعرب الَّذين نزل القرآنُ بين ظهرانيهم أم حصلت بالتَّلقِّي والتَّعلُّم؛ كالمعرفة الحاصلة للمولَّدين الَّذين شافهوا بقيَّةَ العرب ومارسوهم، والمُوَلَّدين الَّذين درسوا علومَ اللِّسان ودوَّنوها...

ولما كان القرآن كلامًا عربيًّا كانت قواعدُ العربيَّة طريقًا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط، وسوء الفهم لمن ليس بعربيٍّ بالسَّليقة، ونعني بقواعد اللغة العربية: مجموع علوم اللِّسان العربي، وهي: متن اللُّغة، والتَّصريف، والنَّحو، والمعاني، والبيان؛ ومن وراء ذلك استعمال العرب المُتَّبَع من أساليبهم في خُطَبِهم وأشعارِهم وتراكيبِ بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التَّمثيل والاستئناس للتَّفسير من أفهام أهل اللِّسان أنفسهم لمعاني آياتٍ غيرِ واضحةِ الدَّلالة عند المُوَلَّدين»[1].

وإنَّ معرفةَ المُفسِّر للُّغةِ العربيَّة يكتسي أهمِّيَّةً بالغةً في فهمه لكتاب الله تعالى؛ لأنَّ السَّلامةَ من الزَّلل والخطأ والقولِ على الله بغير علم من أعظم أسبابها التَّفقُّه في اللُّغةِ، ومعرفةُ أصولِها وفروعِها.

(1) «التَّحرير والتَّنوير» للطَّاهر بن عاشور (18/1).

وتتجلَّى أهمِّيَّةُ هذا الشَّرط من خلال معرفة:

أوَّلاً:

مكانة اللُّغة العربيَّة من التَّفسير

لا يخفى على عارف بكتاب الله تعالى منزلةُ اللُّغة العربيَّة ومكانتها في تفسيره، ولا أدلَّ على هذا من نزول القرآن الكريم بهذه اللغة العربية، كما قال الشَّاطبي رحمه الله: «لابدَّ في فهم الشَّريعة من اتِّباع معهود الأُمِّيِّين، وهم العرب الَّذين نزلَ القرآنُ بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عُرْفٌ مُستمرٌّ فلا يصحُّ العدولُ عنه في فهم الشَّريعة، وإن لم يكن ثَمَّ عُرْفٌ فلا يصحُّ أن يُجْرَى في فهمها على ما لا تَعرفُه، وهذا جارٍ في المعاني والألفاظ والأساليب»[2]، ومن النُّصوص القرآنيَّة:

☐ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [سورة يوسف]، قال الإمام الطَّبري رحمه الله: «إنَّا أنزلنا هذا الكتابَ المبين قُرآنًا عربيًّا على العرب؛ لأنَّ لسانَهم وكلامَهم عربيٌّ فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه، ويفقهوا منه وذلك قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾»[3].

☐ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾ [سورة طه].

☐ وقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ [سورة الزمر]، وغير ذلك من الآيات.

فهذه الآياتُ قد نصَّتْ على أنَّ القرآنَ الكريمَ عَربيٌّ مُبينٌ، ولا طريقَ لبيانه إلاَّ بلُغته الَّتي نـزَلَ بها، فالله تعالى: «كلَّف عبادَه بما ضمَّنَ كتابَه من الأحكام، وشرع لهم فيه من بيان الحلال والحرام، وأمَرَ رسولَه ﷺ ببيانه فبيَّنه بالسُّنَّة وهما ـ أعني الكتاب والسُّنَّة ـ عربيَّان، وهما أصلُ الشَّريعة ومُعتَمَدُها، ومَصدَرُها ومَوردُها وعمادُها ومُستنَدُها... ولا يمكن امتثال مأمور الله تعالى في كتابه ورسوله ﷺ في سنَّته إلاَّ بعد معرفة مقتضاهما، ولا يمكن فهم مقتضاهما إلاَّ بمعرفة اللغة التي وردا بها وهي العربية»[4].

وقال الإمام الشَّافعي رحمه الله: «ومن جماع علم كتاب الله: العلم بأنَّ جميعَ كتابِ الله إنَّما نزل بلسان العرب»[5]،وقال أيضًا: «وبلسانها نَزَلَ الكتابُ وجاءت السُّنَّة»[6].

فتفسير كتاب الله تعالى مُتوقِّفٌ على معرفة اللُّغة العربيَّة؛ لأنَّ جهلَ اللِّسان العربي يعني سوء البيان للكتاب، قال الإمام الشَّافعي رحمه الله: «لأنَّه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرُّقها، ومن علمه انتفت عنه الشُّبَه الَّتي دخلت على من جَهِلَ لسانَها»[7].

ثانيا:

فهم القرآن متوقِّفٌ على معرفة اللغة العربيَّة

فَفَهْمُ مُرادِ الله تعالى مُتوقِّفٌ على فهم لغة العرب ومعرفة علومها فبها نزل الكتاب، وخوطب العباد،قال الإمام الشَّاطبي رحمه الله: «الاجتهاد إن تعلَّقَ بالاستنباط من النُّصوص فلابدَّ من اشتراط العلم بالعربيَّة»[8]، وقال القاسمي: «بل الواجب أن يعرف اللُّغَةَ والعادةَ والعُرفَ الَّذي نَزَلَ به القرآنُ والسُّنَّةُ، وما كان الصَّحابة يفهمون من الرَّسول عند سماع تلك الألفاظ، فبتلك اللُّغة والعادة خاطبهم الله ورسولُه، لا بما حدث بعد ذلك»[9]، وهذه قاعدة كبيرة من قواعد التَّفسير.

فحَظُّ المُفسِّر من فهمه لكتاب الله تعالى بقدر حظِّه من هذه اللُّغة؛ ذلك أنَّ: «الشَّريعةَ عربيَّةٌ، وإذا كانت عربيَّةً فلا يَفهَمُها حقَّ الفهم إلاَّ مَنْ فهم اللُّغةَ العربيَّةَ حقَّ الفهم؛ لأنَّهما سِيَّان في النَّمط ما عدا وجوهَ الإعجاز، ...فإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربيَّة فهو مبتدئ في فهم الشَّريعة أو متوسِّطًا فهو مُتوسِّطٌ في فهم الشَّريعة...؛ فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربيَّة كان كذلك في الشَّريعة»[10].

وقال ابنُ تيميَّة رحمه الله: «ولابُدَّ في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدلُّ على مُرَادِ الله ورسولِه من الألفاظ، وكيف يَفهَمُ كلامَه، فمعرفة العربيَّة الَّتي خُوطِبْنا بها ممَّا يُعِينُ على أن نَفقَهَ مرادَ الله ورسولِه بكلامه، وكذلك معرفة دلالات الألفاظ على المعاني»[11].

كما أنَّ الوقوفَ على دقائق معاني القرآن لا تنكشف إلاَّ لمن له معرفةٌ باللُّغة، كما قال ابن قتيبة رحمه الله: «وإنَّما يعرف فضلَ القرآن من كَثُرَ نظرُه واتَّسع

(2) «الموافقات» (164/2).
(3) «جامع البيان» (551/15).
(4) «الصَّعقة الغضبيَّة في الرَّدِّ على مُنكري العربيَّة» سليمان الطرفي (ص266).
(5) «الرِّسالة» (ص40).
(6) المصدر نفسه (ص53).
(7) المصدر نفسه (ص50).
(8) «الموافقات» (117/4).
(9) «محاسن التَّأويل» جمال الدِّين القاسمي (147/1).
(10) «الموافقات» (115/4).
(11) «مجموع الفتاوى» (116/7).

علمُه، وَفَهِمَ مذاهبَ العرَبِ وافتنانَها في الأساليب، وما خصَّ الله به لغتَها دون جميع اللُّغات»[12].

ثالثًا:

إنكار السَّلف والخلف على من تجرَّأ على التفسيرمن غيرمعرفته باللغة العربيَّة

فممَّا يدلُّ على مكانة اللُّغة العربيَّة وحاجة المُفسِّر لها تواتر إنكار السَّلف والخلف على كلِّ من تجرَّأ على التَّفسير دون أن يكون عارفًا باللُّغة العربيَّة، من ذلك:

□ ما رُوِيَ عن مجاهد رحمه الله أنَّه قال: «لا يَحِلُّ لأَحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلَّم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب»[13].

□ وقال الإمام مالك رحمه الله: «ألاَ أُوتَى برَجلٍ غير عَالم بلغات العربِ يُفَسِّرُ ذلِك إلاَّ جَعَلْتُهُ نَكالاً»[14].

□ وقال الإمام الشَّافعي رحمه الله: «... لأنَّه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعةَ لسان العرب وكثرةَ وجوهه وجماع معانيه وتفرُّقَها، ومن علمه انتفت عنه الشُّبه الَّتي دخلت على من جهل لسانها»[15].

□ وقال الشاطبي رحمه الله: «فإذًا كلُّ معنى مُسْتَنْبَطٍ من القرآن غير جارٍ على اللِّسان العربيِّ فليس من علوم القرآن في شيء، لا ممَّا يُستفَادُ منه، ولا ممَّا يُستَفَادُ به، ومن ادَّعى فيه ذلك فهو في دعواه مُبطلٌ»[16].

(12) «تأويل مشكل القرآن» (ص12).
(13) «البرهان في علوم القرآن» بدر الدين الزَّركشي (292/1).
(14) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (2090).
(15) «الرِّسالة» (ص50).
(16) «الموافقات» (293/3).

رابعا:

اشتراطهم العلم باللُّغة العربيَّة لتفسير كلام الله تعالى

مما اتفقت عليه كلمة العلماء اشتراطهم العلم باللغة العربية لمن أراد تفسير القرآن الكريم، وليس شرط معرفة اللغة هو الإلمام بجميع علومها على اختلافها، فإن ذلك تنقطع دونه أعناق المطي؛ لأن: «لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلا جمع السنن لم يذهبْ منها عليه شيء»[17]، وإنما الإحاطة بأكثرها وأهمها، وما له صلة بتفسير كلام الله تعالى.

□ قال أبو حيَّان الأندلسي في مَعرِض ذكره لما ينبغي أن يحيط به المفسر: «ومع ذلك فاعلم أنه لا يرتقي من علم التفسير ذروته، ولا يمتطي منه صهوته، إلا من كان متبحراً في علم اللسان، مترقياً منه إلى رتبة الإحسان»[18].

□ قال ابن فارس رحمه الله: «إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غناء بأحد منهم عنه، وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب ورسوله ﷺ عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عز وجل، وما في سنة رسول الله ﷺ من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدًّا»[19].

(17) «الرِّسالة» (ص42).
(18) «البحر المحيط» (7/1).
(19) «الصَّاحبي في فقه اللُّغة» (ص50).



المطلب الثَّاني: ضوابط استعانة المفسِّر باللُّغة العربيَّة في التَّفسير

وضع العلماء جملة من الضوابط لتفسير القرآن الكريم باللغة العربية؛ حتى لا ينفرط العقد فتتسرب الأهواء والآراء الفاسدة الكاسدة باسم اللغة، ومن أهمها:

الضَّابط الأوَّل: أن لا يستعان بها مجردة:

لأن توظيف اللغة العربية في التفسير له قدره وحدّه فالاعتماد الكلي على اللغة باب من أبواب الزيغ والانحراف والشذوذ، قال ابن تيمية رحمه الله: «وأمّا تفسير القرآن بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين، لاسيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطا من المفسرين المشهورين، فإنهم لا يقصدون معرفة معناه كما يقصد ذلك المفسرون»[20]، وقال الإمام النووي رحمه الله في معرض كلامه عن أدوات التفسير ومؤهلات المفسر: «ولا يكفي مع ذلك معرفة اللغة العربية وحدها، بل لابدّ من معرفة ما قاله أهل التفسير فيها، فقد يكونون مجمعين على ترك الظاهر، أو على إرادة الخصوص أو الإضمار أو غير ذلك ممّا هو خلاف الظاهر، وكما إذا كان اللفظ مشتركا بين معان، فعلم في موضع أن المراد أحد المعاني ثمّ فسر كل ما جاء به، فهذا كله تفسير بالرأي وهو حرام والله أعلم»[21].

وقال القرطبي رحمه الله مبيِّنًا عدمَ الاعتماد على اللُّغة العربيَّة مجُرَّدةً: «أن يتسارَعَ إلى تفسير القرآن بظاهر العربيَّة، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يُحْكِم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كَثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي، والنقل والسماع لابدَّ له منه في ظاهر التفسير أوَّلاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط»[22].

الضَّابط الثَّاني: ليس كلُّ ما ثبت في اللُّغة صحَّ حمل آيات التَّنزيل عليه:

فلا ينبغي الاقتصار في التفسير اللغوي على ثبوت اللفظ في اللغة بل لا بد من مراعاة السياق وأسباب النزول والقرائن المحتفة بالخطاب؛ لأن القرآن الكريم له عرف خاص، قال ابن القيم رحمه الله: «للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه، والمعهود من معانيه، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ؛ بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي، فتدبر هذه القاعدة»[23]، وقال ابن تيمية رحمه الله: «قوم فسروا القرآن بمجرد ما يُسوِّغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به،... راعوا مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ولسياق الكلام»[24].

الضَّابط الثَّالث: يُراعَى المعنى الأغلب المعروف من لغة العرب دون الشاذ والقليل:

لأن القرآن الكريم نزل بأفصح لغات العرب، وقد راعى هذا الضابط الإمام الطبري رحمه الله في غير ما موضع، فقال: «وتأويل كتاب الله على الأغلب من معروف كلام العرب، دون غيره»[25]، وقال: «توجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من اللغات، أولى من توجيهه إلى الأنكر، ما وُجِد إلى ذلك سبيل»[26]، وقال: «وتوجيه معاني كتاب الله عز وجل إلى الظاهر المستعمل في الناس، أولى من توجيهها إلى الخفي القليل في الاستعمال»[27]، وقال أبو جعفر النحاس رحمه الله: «والواجب أن يحمل تفسير كتاب الله جل وعز على الظاهر والمعروف من المعاني إلا أن يقع دليل على غير ذلك»[28].

---

(20) «مجموع الفتاوى» (94/15) بتصرُّف.

(21) «التِّبيان في آداب حملة القرآن» (ص148).

(22) «الجامع لأحكام القرآن» (97/1).

(23) «بدائع الفوائد» (27/3).

(24) «مجموع الفتاوى» (355/13).

(25) «جامع البيان» (164/24).

(26) المصدر نفسه (337/5).

(27) المصدر نفسه (309/6)، وانظر كذلك (317/6)، (468/2) و(221/7).

(28) «إعراب القرآن» (132/5).

الضَّابط الرَّابع:

حمل آيات القرآن على الأوجه الإعرابية اللائقة بالسياق والموافقة لأدلة الشرع:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ينبغي أن يتفطن ههنا لأمر لابدّ منه، وهو أنه لا يجوز أن يُحمَل كلامُ الله عَزَّ وَجَلَّ على المعاني القاصرة، ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين»[29].

وقال جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقد يقدر بعض النحاة ما يقتضيه علم النحو، لكن يمنع منه أدلة شرعية، فيترك ذلك التقدير ويقدر آخر يليق بالشرع»[30].

وقد عقد ابن جني بابا في تجاذب المعنى والإعراب قال فيه:

«فإذا مرّ بك شيء من هذا عن أصحابنا فاحفظ نفسك منه، ولا تسترسل إليه، فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سَمْت تفسير المعنى فهو ما لا غاية وراءه، وإن كان تقدير الإعراب مخالفًا لتفسير المعنى تقبَّلْتَ تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت طريق تقدير الإعراب حتى لا يشذ شيء منها عليك، وإياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر إصلاحه»[31].

□□□

(29) «بدائع الفوائد» (27/3).
(30) «محاسن التَّأويل» (262/1).
(31) «الخصائص» (284/1).

المطلب الثَّالث: مجالات استعانة المفسِّر باللُّغة العربيَّة

أوَّلاً ـ الجانب البلاغي:

من أعظم الجوانب الإعجازية في القرآن الكريم؛ الجانب البلاغي، الذي أعطى للقرآن الكريم رونقا جماليا سالبا للقلوب، ومنشطا للعقول، وباعثا للهمم لتفحص الأساليب القرآنية في بيانها ومعانيها؛ لذا قال أبو هلال الحسن ابن عبد الله بن سهل رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم... أنّ أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحفّظ ـ بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه ـ علمُ البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرَف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحقّ، الهادي إلى سبيل الرّشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحّة النبوة، التي رفعت أعلام الحقّ، وأقامت منار الدّين، وأزالت شُبَه الكفر ببراهينها، وهتكت حُجُبَ الشَّكِّ بيقينها.

وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصَّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف؛ وضمَّنه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كَلِمِه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيَّرَت عقولُهم فيها.

وإنما يُعرَف إعجازُه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه.

وقبيحٌ ـ لَعَمْري ـ بالفقيه المؤتمِّ به، والقارئ المُهتَدَى بهديه، والمتكلّم المشارِ إليه في حسن مناظرته، وتمام آلته في مجادلته، وشدّة شكيمته فى حجاجه؛ وبالعربي الصَّليب والقرشي الصَّريح، ألاَّ يَعرِفَ إعجازَ كتاب الله تعالى إلاَّ من الجهة الَّتي يَعرِفُه منها الزِّنجي والنَّبَطي، أو أن يَستَدِلَّ عليه بما استدلَّ به الجاهلُ الغبي»[32].

وقال ابن جُزَي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما علم البيان: فهو علم شريف تظهر به فصاحة القرآن»[33].

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز»[34].

فليس لأحد أن يقف على مراد الله تعالى، وعلى هدايات القرآن الكريم، وهو مفتقر إلى هذا الجانب البلاغي، قال السَّكاكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى، وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين ـ المعاني والبيان ـ كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل»[35].

فمقاصد القرآن الكريم مدارها مع أساليب اللغة العربية؛ وجهلها جهل بمقاصده وغاياته.

(32) «كتاب الصِّناعتيْن: الكتابة والشِّعر» (ص1).
(33) «التَّسهيل لعلوم التَّنزيل» (12/1).
(34) «التَّحرير والتَّنوير» (19/1).
(35) «مفتاح العلوم» (ص162).

ثانيًا ـ الجانب الإعرابي:

ومن أخصِّ علوم اللُّغة علمُ الإعراب الَّذي هو من ألزَم الفنون للمفسِّر لأهمِّيَّته الكبيرة، قد اتفقوا على أهمية الإعراب وحاجة المفسر له عند بيانه لدلالات ألفاظه وبيان معانيه، إذ الجهل بالإعراب جهل بمعاني القرآن، كما أن الزلل فيه زلل في معاني القرآن ومضامينه ومقاصده لأنه: «أقوم طريق يسلك في الوقوف على معناه، ويتوصل به إلى تبيين أغراضه ومغزاه، معرفة إعرابه واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه، والنظر في وجوه القرآن المنقولة عن الأئمة الأثبات»[36].

فمن أهم فوائد الإعراب معرفة معاني القرآن، كما قال الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالوا: والإعراب يُبيِّن المعنى وهو الذي يميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين»[37].

وقال مكي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ورأيت من أعظم ما يجب على الطَّالب لعلوم القرآن، الرَّاغب في تجويد ألفاظه وفهم معانيه، ومعرفة قراءاته ولغاته، وأفضل ما القارئ إليه محتاج؛معرفة إعرابه والوقوف على تصرف حركاته وسواكنه؛ ليكون بذلك سالما من اللحن فيه، مستعينا على إحكام اللفظ به، مطلعا على المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات، متفهما لما أراد الله تبارك وتعالى به من عباده؛ إذ بمعرفة حقائق الإعراب تُعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد، ويُفْهَم الخطاب، وتصحُّ معرفة حقيقة المراد»[38]، وقال ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إعراب القرآن أصل في الشريعة، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع»[39].

ولا يعني هذا أن المعنى تابع للإعراب مطلقا، بل إن الإعراب أحد أهم الوسائل التي تعرف بها معاني القرآن،لأنه إذا تعارض المعنى مع الإعراب فالصحيح التمسك بالمعنى.

قال ابن جزي الكلبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما النحو فلا بد للمفسر من معرفته. فإنّ القرآن نزل بلسان العرب فيحتاج إلى معرفة اللسان. والنحو ينقسم إلى قسمين: أحدهما: عوامل الإعراب. وهي أحكام الكلام المركب والآخر: التصريف وهي أحكام الكلمات من قبل تركيبها»[40].

ثالثًا ـ الجانب الصَّرفي:

فعلم التصريف ودلالاته من أهم العلوم للمفسر لأنه لسان العرب الذي يفهم به كتاب الله تعالى، كما قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة »[41].

ولا شك أن التصريف هو ميزان العربية، كما قال ابن جني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا القبيل من العلم ـ أعني التصريف ـ يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم الحاجة، وبهم إليه أشد فاقة لأنه ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يتوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به، وقد يؤخذ جزء كبير من اللغة بالقياس ولا يتوصل إلى ذلك إلا عن طريق التصريف.... فلهذه المعاني ونحوها كانت الحاجة بأهل العربية إلى التصريف ماسة، وقليلا ما يعرفه أكثر أهل اللغة لاشتغالهم بالسماع عن القياس»[42].

وقال ابن عصفور رَحِمَهُ اللَّهُ:«التصريف أشرف شطري العربية وأغمضها، فالذي يبين شرفه احتياج جميع المشتغلين باللغة العربية من نحوي ولغوي إليه أيما حاجة لأنه ميزان العربية.»[43]

وقال الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفائدة التصريف حصول المعاني المختلفة المتشعِّبة عن معنى واحد فالعلم به أهم من معرفة النحو في تعرف اللغة لأن التصريف نظر في ذات الكلمة والنحو نظر في عوارضها وهو من العلوم التي يحتاج إليها المفسر ».[44]

بل هناك من العلماء من يرى تقديم معرفته على معرفة النحو،والوقوف على الدلالات التصريفية لألفاظ القرآن الكريم يكشف عن درر ومعانٍ جليلة، ويميط اللثام عن كثيرٍ من الحكم والأحكام القرآنية التي خص الله تعالى بها العارفين بهذا العلم الشَّريف.

فعلى المفسر أن يكون عارفا بعلم التصريف لأن: «التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ»[45].

والله تعالى أعلم، وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

(36) «إملاء ما منَّ به الرَّحمن من وجوه الإعراب والقراءات» العكبري (3/1)
(37) «البرهان في علوم القرآن» (301/1).
(38) «مشكل إعراب القرآن» (101/1) .
(39) «المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (14/1).
(40) «التَّسهيل لعلوم التَّنزيل» ابن جُزَي الكلبي (12/1).
(41) «الموافقات» (64/2).
(42) «المنصف» لابن جنِّي (ص5).
(43) «المُمتع في التَّصريف» (27/1).
(44) «البرهان في علوم القرآن» (297/1).
(45) «البرهان في علوم القرآن» (13/1).

السحر... وعلامات الساحر

عثمان عيسي

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم».

تخريج الحديث:

صحيح موقوف:

أخرجه ابن أبي شيبة (23528)، والبزَّار (1873) من طريقَيْن، قال الحافظ ابنُ كثير في «تفسيره» (251/1): «وهذا إسناد صحيح[1]، وله شواهد أخر».

وزاد الهيثمي في «المجمع» (8557. ط. المنهاج) نسبته للطَّبراني في «الكبير»[2] و«الأوسط»[3]، وقال: «ورجال «الكبير» والبزَّار ثقات».

وقال في الطَّريق الآخر (8558): «رواه البزَّار[4]، ورجاله رجالُ الصَّحيح، خلا هبيرة بن يَريم وهو ثقة».

والأثرُ قوَّاه الحافظ المنذري في «التَّرغيب» (4394 و4395)، وصحَّحه الألباني موقوفًا في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (98/3).

وقد أخرج الحديثَ أبو القاسم البغوي في «الجعديَّات» (772/2) وابنُ عدي في «الكامل» (1130/3) و(2694/7) وأبو نعيم في «الحلية» (104/5) عن الحِمَّاني عن أبي خالد الأحمر عن عمرو بن قيس عن أبي إسحاق عن هبيرة عن ابن مسعود مرفوعًا.

قال الدَّارقطني[5]: «ووَهِمَ الحِمَّاني في رفعه، وخالفه عثمانُ بنُ أبي شيبة وهارون بن إسحاق فروياه عن أبي خالد موقوفًا وهو الصَّحيح» اهـ.

والحديث وإن كان موقوفًا؛ فإنَّ له حكمَ الرَّفع، قال الحافظُ ابنُ حجر في «الفتح» (217/10): «وأخرجه أبو يعلى[6] من حديث ابنِ مسعود بسند جيِّد لكن لم يصرِّحْ برفعِه ومثلُه لا يقالُ بالرَّأي».

ألفاظ الحديث:

□ قوله: «مَنْ أَتَى»:

«مَنْ»: شرطيَّةٌ، وهي للعموم، فتعمُّ كلَّ منْ جاء بالفعل بعدها، وفعلُ الشَّرطِ «أتى» وجوابُه «فقد كفر».

و«أَتَى»: أي جاء الكاهنَ أو السَّاحِرَ وذهب إليه ليسأله.

ويدخل فيه من سألَه عن طريق الكتابة إليه أو الاتِّصال به بالهاتف ونحوه، فالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لمَّا سألَه معاوية ابنُ الحَكَم السُّلَمي رضي الله عنه فقال: «يا رسولَ اللهِ، إنِّي حديثُ عهد بجاهليَّة، وقد جاء اللهُ بالإسلام، وإنَّ منَّا رجالًا يأتون الكهَّانَ، قال: «فَلاَ تَأْتِهِمْ...» الحديث[7].

وهذا نهيٌ عن إتيان الكهَّان، وهو مُحرَّمٌ بالإجماع، على أيِّ صورةٍ كان إتيانُهم.

□ قوله: «كَاهِنًا»:

والكاهن: هو الَّذي يأخذ ـ عادةً ـ عن مُسترِق السَّمع من الجنِّ فيخبِرُ عن المُغيَّبَات في المُستقبَل، كما كان الكهنةُ قديمًا في أحياء العرب يتحاكمُ النَّاسُ إليهم، وتتَّصلُ بهم الشَّياطينُ، وتُخبرُهم عمَّا استرقَتْه من السَّماء، فيخلط الكاهنُ مع ما سمع منهم الأخبارَ الكاذبةَ، فيخبرُ بها النَّاسَ، فإذا وقع شيءٌ ممَّا أخبر به ظنُّوا أنَّه يعلم الغيب![8]

(1) وفي بعض النُّسخ: «إسناد جيد».
(2) (10/9) برقم (1005) وإسناده صحيح.
(3) برقم (1476).
(4) (1931).

(5) «العلل» (329/5)، وانظر تخريجه مُوسَّعًا في «أنيس السَّاري» (4868/4)، و«تحقيق المطالب العالية» (11/206.212).
(6) (280/9) برقم (5408).

(7) رواه مسلم (537).
(8) لكاتب هذه السُّطور مقال بعنوان: «الكهانة والعرافة بين الماضي والحاضر» نُشر في العدد (03) من «مجلَّة الإصلاح» عام (2007م).

قال جلَّ وعلا: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: 65]، وقال جلَّ وعلا: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن].

□ قوله: «سَاحِرًا»: سيأتي الكلام عنه.

□ قوله: «فَصَدَّقَهُ»: أي: نسَبَه إلى الصِّدق، وتصديقُ الخبر: تَثبيتُه وتَحقيقُه، بحيث يعتقدُ أنَّه حقٌّ وصحيحٌ وثابتٌ في نفسه.

وهذا بخلاف مَنْ يأتي الكاهنَ والسَّاحرَ فيسألُه اختبارًا وامتحانًا، أو ليُظهِرَ عجزَه وكذبَه، فهذا ليس من التَّصديق في شيء، بشرط أن يكونَ عنده ما يُميِّزُ به صدقَه من كذبه، فهذا جائز.

وفي مثل هذا يتنزَّل قولُ النَّبيِّ ﷺ لابن صيَّاد: «إنِّي قد خبأتُ لك خَبِيئًا» فقال ابنُ صيَّاد: هو الدُّخُّ، فقال: «اخْسَأْ، فلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ...» الحديث[9].

فالنَّبيُّ ﷺ أضْمَرَ في نفسه «الدُّخان» ولكنَّ ابنَ صيَّاد عجز أن يدركَها فقال «الدُّخ».

□ «بِمَا يَقُولُ»: يعني: له ويخبر أو يأمر به.

و«ما»: عامَّةٌ في كلِّ ما يقولُ ويُخبر، مع أنَّ الأصلَ فيما يقولُه الكاهنُ والسَّاحرُ الكذبُ ـ هذا هو الأصل ـ وإن احتمل كونُ بعضه صدقًا.

□ «فقد كفر»: سيأتي تفصيل ذلك.

□ «بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»:

أي: بالَّذي أُنزلَ علَى مُحَمَّد ﷺ وهو الكتاب والسُّنَّة، وكلاهما وحيٌ منزَّلٌ، قال الله جلَّ وعلا عن القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣)﴾ [سورة الشعراء]، وقال جلَّ وعلا عن السُّنَّة النَّبويَّة ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [سورة النجم].

(9) البخاري (1354)، ومسلم (2930).

شرح الحديث:

إنَّ من المظاهر الخطيرة المُنتشرة بين النَّاس ظاهرةَ تعاطي السِّحر، واللُّجوءِ إلى السَّحَرة لتحصيل مَنافعَ موهومة، ومصالحَ مزعومة، جهلاً بحكمه وخطورته تارةً، وعن تقصُّد وعمد تارةً أخرى، وهذا كلُّه بسبب ترويج شياطين الإنس والجنِّ له، إفسادًا لعقائد المسلمين، ونشرًا للباطل، وتلبيسًا وتمويهًا للحقائق.

تاريخ السحر:

السِّحرُ داءٌ أصاب الأممَ منذُ القِدَم، فلا تكاد تجد أُمَّةً سَلمت منه، قال جلَّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)﴾ [سورة الذاريات].

فعُرفَ السِّحرُ عند قدماء المصريِّين وبلاد فارس، وبأرض بابل كما في القرآن الكريم على ما استظهره الحافظُ ابنُ كثير وغيرُه، وأهلُ بابل هم الكلدانيُّون من النَّبط والسِّريانيِّين[10]، فراج بينهم السِّحرُ مُرتبطًا بطُقوس وثنيَّة، وتعويذات كفريَّة، ورُقى شركيَّة، وكذلك الشَّأنُ عند الهندوس، فمِنْ أسفار كتابهم المقدَّس «الفيدا» سفر «آتور فيدا» (ومعناه: رقى السِّحر) وفيه مقالاتٌ في السِّحر[11]، والأمرُ نفسُه عند الإغريق اليونانيِّين، والرُّومان، وغيرهم.

وقد ذَكَرَ القرآنُ الكريمُ ـ وهو مَصدرٌ يُقطعُ بلا شكٍّ في صحَّة وصدق أخباره ـ السِّحرَ في قوم فرعون، وأخبر أنَّه كان مُنتشرًا بينهم بكثرة، وكان أقباطُ مصر يعدُّون كلَّ ما هو خارقٌ للعادة سحرًا ولو جاء بذلك نَبيٌّ مُصدَّقٌ مُؤيَّدٌ، فزعم فرعونُ ومَلَؤُه أنَّ الَّذي جاء به موسى ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلام ـ من جنس السِّحر الموجود في زمانهم، وأنَّه ساحرٌ كسائر السَّحَرة، قال الله جلَّ وعلا: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩)﴾ [سورة الأعراف] يعنُون بذلك رسولَ الله موسى ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ.

ومع علم اليهود بأنَّ تَعلُّمَ السِّحر كُفْرٌ موجبٌ للحرمان من الجنَّة، فإنَّهم أقدموا عليه كفرًا وعنادًا كما هو دأبُهم، وعلمُهم بتحريم السِّحر مُصرَّحٌ به في توراتهم المحرَّفة ـ الَّتي بين أيديهم ـ، وصدق الله جلَّ وعلا إذ يقول في القرآن العظيم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: 102].

روى الطَّبري بسند حسن عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد عَلمَ ذلك أهلُ الكتاب في عهد الله إليهم: أنَّ السَّاحرَ لا خَلاقَ له عند الله يوم القيامة».

فآل باليهود الأمرُ إلى أن تركوا الكتابَ المُنزَّلَ وراء ظُهورهم، وارتبطوا بالسِّحر وتعلَّقوا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾[12] [سورة البقرة].

فاستبدلوا وحيَ الرَّحمن بوحي الشَّيطان، وكذبوا على أنبياء الله وأصفيائه، فرمَوْا نبيَّهم سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسِّحر، حتَّى برَّأه القرآنُ الكريمُ إحقاقًا وإظهارًا للحقِّ، ودفاعًا

(10) انظر «المقدمة» لابن خلدون (ص927)، و«عالم السِّحر والشَّعوذة» لعمر الأشقر (ص15).

(11) انظر: «دراسات في اليهوديَّة والمسيحيَّة وأديان الهند» (ص540) د. محمَّد ضياء الرَّحمن الأعظمي، و«الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (725/2).

(12) من السُّنن الإلهية الَّتي دلَّت عليها هذه الآيةُ الكريمةُ أنَّ من عرف الحقَّ وتركَه ولم يَعْمَلْ به، ابتُلِيَ بالباطل، عقوبةً له فالَّذي يترك العلمَ النَّافعَ يُبتَلى بالعلم الباطل، فتنبَّهْ.

عن أنبياء الله بحقٍّ، فـ«الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»، والمسلم أولى النَّاس بأنبياء الله ورُسله، قال جلَّ وعلا مُبرِّئًا نبيَّه سليمانَ ابنَ داود - عليهما السَّلامُ -: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ فلم يكنْ نبيُّ الله سليمانُ ساحرًا، ولا غيرُه من الأنبياء سحرةً كفرةً.

◉ حد السحر:

السِّحرُ في اللُّغة مصدرُ سَحَرَ، يَسْحَرُ، سِحْرًا، وحروفه الثَّلاثةُ مُتباينةٌ كما قال ابن فارس (ص507)، أحدها: عضو من الأعضاء، والآخر خَدْع وشبهة، والثَّالث: وقت من الأوقات.

ويُطلَقُ السِّحر على كلِّ ما لَطُفَ ودقَّ وخَفِيَ سببُه[13]، ولذلك تقول العربُ في الشَّيءِ الشَّديد الخفاء: أخفى من السِّحر.

وأمَّا في الاصطلاح فقد اختلَفَ الفقهاءُ وغيرُهم من العلماء في تعريفه اختلافًا واسعًا، ولعلَّ مَرَدَّ الاختلاف إلى خفاء طبيعة السِّحر وآثاره، فاختلفت تعريفاتُهم له تبعًا لاختلاف تَصوُّرِهم لحقيقته[14].

قال الإمامُ الشَّنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان»[15]:

«اعلم أنَّ السِّحرَ في الاصطلاح لا يمكنُ حدُّه بحدٍّ جَامِعٍ مَانِعٍ؛ لكثرة الأنواع المختلفة الدَّاخلة تحتَه، ولا يتحقَّقُ قَدْرٌ مشتَرَكٌ بينها يكون جامعًا لها مانعًا لغيرها، ومن هنا اختلفتْ عباراتُ العلماءِ في حدِّه اختلافًا متباينًا» اهـ.

ومن أَجْوَدِ وأحسنِ التَّعاريف الَّتي ارتضاها أهلُ التَّحقيق، تعريفُ ابن قدامة المقدسي حيثُ قال: «السِّحر: عزائم ورقى وعُقَد تُؤثِّر في الأبدان والقلوب، فيُمرِض، ويَقتُل، ويُفرِّق بين المرء وزوجه، ويأخُذُ أحدَ الزَّوجيْن عن صاحبه...»[16].

وكما اختلفَ أهلُ العلم في حدِّه اختلفوا أيضًا في كونه، هل له حقيقةٌ ووجودٌ وتأثيرٌ حقيقيٌّ أم هو مجرَّدُ تخييل لا حقيقةَ له؟

فذهب جماهيرُ أهلِ السُّنَّة والجماعة وعامَّةُ أهل العلم من أتباع المذاهب الفقهيَّة أنَّ السِّحرَ ثابتٌ وواقعٌ وله حقيقةٌ ووجودٌ وتأثيرٌ - بإذن الله -، لكنَّ تأثيرَه ذلك إنَّما هو بما قدَّره الله سبحانه وتعالى وقضاه وخَلَقَه عندما يُلقي السَّاحر وما يلقي، وهذا هو الحقُّ الَّذي لا مَحيدَ عنه.

قال المازري: «أهلُ السُّنَّة وجمهورُ العلماءِ من الأمَّة على إثباتِ السِّحر، وأنَّ له حقيقةً كحقيقة غيره من الأشياء الثَّابتة خلافًا لمن أنكره ونفى حقيقتَه، وأضاف ما يتفق منه إلى خيالات باطلة لا حقائقَ لها، وقد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز وذكرَ أنَّه ممَّا يُتعَلَّمُ، وذكرَ ما يشير إلى أنَّه ممَّا يُكفَّرُ به، وأنَّه يُفرِّقُ بين المرءِ وزوجه، وهذا كلُّه ممَّا لا يُمكنُ أن يكون فيما لا حقيقةَ له وكيف يُتعلم ما لا حقيقة له...»[17] اهـ.

وقال القرطبي في «تفسيره»[18] مُستَخرِجًا بعضَ فوائد حديث سحر لبيد بن الأعصم اليهودي للنَّبيِّ ﷺ:

«وفيه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لمَّا حُلَّ السِّحرُ: «إنَّ الله شَفَاني»[19]، والشِّفاءُ إنَّما يكونُ برفع العلَّة وزوال المرض، فدَلَّ على أنَّ له حقًّا وحقيقةً، فهو مقطوعٌ به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه؛ وعلى هذا أهلُ الحَلِّ والعقدِ الَّذين ينعَقدُ بهم الإجماعُ، ولا عبرةَ مع اتِّفاقهم بحُثالة المعتزلة ومخالفتهم أهلَ الحقِّ، ولقد شاع السِّحرُ وذاع في سابق الزَّمان وتكلَّم النَّاسُ فيه، ولم يَبْدُ من الصَّحابة ولا من التَّابعين إنكارٌ لأصله...».

فلم يخالف - إذن - إلاَّ المعتزلةُ[20] وبعضُ مَنْ قال بقولهم، وهذا مخالفٌ للشَّرع والعقل والحسِّ، قال الإمامُ ابنُ قتيبة رحمه الله: «ونحن نقولُ: إنَّ الَّذي يذهبُ إلى هذا، مُخَالفٌ للمسلمين واليهود والنَّصارى وجميعَ أهل الكُتُب، ومُخَالفٌ للأُمم كلِّها، الهندُ، وهي أشَدُّها إيمانًا بالرُّقَى، والرُّومُ والعربُ في الجاهليَّة وفي الإسلام، ومُخَالفٌ للقرآن معَانِدٌ له بغير تأويل؛...»[21].

◉ حكم السحر:

أجمعت الشَّرائعُ السَّماويةُ على تحريم السِّحر، تعلُّمًا وعملاً به وتعليمًا، والنَّهي عنه، والتَّحذير من السَّحرَة، ولا خلافَ بين أهل العلم أنَّه من أكبَرِ الكبائر[22]، وإنَّما الخلافُ بينهم في كونه كُفرًا أكبرَ مُخرجًا من الملَّة أم لا، وذلك بناءً على أنَّ من السِّحر - عند بعض أهل العلم - ما لا يكون من قِبَل الشَّياطين بل هو بأدوية وعقاقيرَ وأبخرَة تؤثِّرُ على بدن المسحور وعقله بما لا يُوجِبُ الكفرَ، فهذا عند هؤلاء يُعتَبَرُ عاصيًا مُعتَديًا

(13) «تهذيب اللُّغة» (1639/2)، «الصِّحاح» (679/2)، «لسان العرب» (348/4).

(14) «الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة» (259/24).

(15) (41/4).

(16) «الكافي في فقه الإمام أحمد» (163/4)، وأطول منه تعريفه في «المغني» (28/9).

(17) «المعلم بفوائد مسلم» (158/3).

(18) «الجامع لأحكام القرآن» (46/2).

(19) الَّذي في «الصَّحيحَيْن»: «أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِيَ اللهُ وَشَفَانِي»، البخاري (5766) ومسلم (2189) من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(20) يُنظَر له: «متشابه القرآن» للقاضي عبد الجبَّار (101/1)، و«الكشَّاف» للزَّمَخْشَري (85/1) بناءً على حصرهم السِّحرَ في التَّخييلي منه فقط، والصَّحيح أنَّ منه الحقيقي ومنه التَّخييلي.

(21) «تأويل مختلف الحديث» (ص161).

(22) حكى شيخُ الإسلام ابن تيمية الإجماعَ على تحريمه، انظر: «مجموع الفتاوى» (171/35) و«المغني» لابن قدامة (300/12).

يستوجبُ التَّعزيرَ البليغَ إلاَّ إذا استحلَّه.

أمَّا إذا كان عَمَلُ السَّاحرِ يوجبُ كفرًا أو كان من قِبل الشَّياطين فهذا كفرٌ أكبرُ عندهم جميعًا[23].

ومن أهل العلم مَن جعل الخلافَ بين العلماء في حكم السَّاحرِ خلافًا لفظيًّا لا معنويًّا، لكون سحرِ الأدوية ونحوِه ليس بسحرٍ عند التَّحقيقِ وإن سُمِّيَ سحرًا، فإنَّما هو على سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنَّميمة سحرًا[24]، فبقي النَّوعُ الأوَّلُ وهو السِّحرُ الَّذي لا يأتي إلاَّ بعبادة الشَّياطين وإرضائِهم وبالشِّرك بالله والكفر به[25].

فالسِّحرُ الَّذي فيه استخدامُ الشَّياطين والاستعانةُ بهم والتَّقرُّبُ إليهم بشيءٍ من أنواع العبادة، من ذبحٍ لهم ودعاءٍ واستغاثة واستعاذة ونحوِ ذلك، واستعمالِ الرُّقى الشِّركيَّةِ والتَّعويذاتِ الكفريَّةِ والعُقَدِ والنَّفثِ فيها، فهذا كلُّه شركٌ أكبر مُخرجٌ من ملَّة الإسلام، وهذا هو السِّحرُ بالمفهوم الشَّرعي إذا أطلقَ، وهو الَّذي وُصف في الشَّرع صاحبُه بأنَّه ساحرٌ، بخلافِ مُستَعمِلِ الأدوية فهو مُشعوذٌ لا ساحرٌ، فكلُّ ساحرٍ مشعوذ، وليس كلُّ مشعوذٍ ساحرًا[26].

والسِّحر من موبقات الذُّنوب، تجعل صاحبَه ومن يأتيه في خسار وتباب، وهلاك في الدُّنيا والآخرة، ولهذا وجب على المسلم والمسلمة الحذرُ من السِّحر

(23) انظر «القول المفيد» (1/490).

(24) في «القول البليغ»: قول النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحرًا» رواه البخاري (5146) ومسلم (869).

وفي النَّميمة: قوله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ، هِيَ النَّمِيمَةُ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رواه مسلم (2606)، والعضهُ: الكذبُ والبهتانُ والنَّميمة وكانت قريش تسمِّي السِّحرَ العَضْهَ.

انظر: «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ص 262).

(25) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (2/780).

(26) وهذا لا يمنع إطلاقَ كلٍّ منهما على الآخر كما في استعمالات العلماء.

والسَّحرَة، وعدمُ الذَّهابِ إليهم لا لطلب العلاج ولا لسؤالهم عن شيءٍ ممَّا يريد المرءُ معرفتَه؛ لأنَّ هذا كبيرةٌ على أدنى تقدير، فإن صُدِّقَ السَّاحرُ فيما يقول أو يفعل، واعتُقد أنَّه حقٌّ وأنَّه يجوز عمل السِّحر الَّذي هو كفرٌ، أو صُدِّقَ في ادِّعائه علمَه الغيبَ، كان شركًا أكبر، وكان المُصدِّقُ للسَّاحرِ ـ الَّذي هذا حالُه ـ مثلَه في الحكم[27].

وقد جاءت النُّصوصُ الشَّرعيَّةُ من الكتاب والسُّنَّة صريحةً في كفر السَّاحر (بالمفهوم الشَّرعي):

فقال الله جلَّ وعلا: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

روى الطَّبري بسند صحيح عن ابن جُرَيْج قال: «لا يجترئُ على السِّحر إلا كافرٌ».

وقد دلَّت الآيةُ الكريمةُ على كفر السَّاحر من وجوه كثيرة نبَّه عليها غيرُ واحد من أهل العلم[28].

ومن الأدلَّة ـ أيضًا ـ على تحريم

(27) وهذا بخلاف مَن صدَّق السَّاحرَ جهلاً منه أو لشبهة، لا لاعتقاده أنَّ السَّاحرَ يعلم الغيبَ، ولم يأتِ بما يوجب كُفرَه، فهذا لا يُكفَّرُ مثله. فتنبَّهْ.

وانظر فتوى للشَّيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في «حكم من مات وهو يصدق بعض أخبار الكهنة جهلا منه» في «فتاوى نور على الدرب» (3/344).

(28) انظر كلام الشَّيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في «معارج القبول» (2/549).

السِّحر، قولُه جلَّ وعلا ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [سُورَةُ طه]

فوصفُ السَّاحر بالسِّحر يَقطَعُ كلَّ مصلحة تُرجى منه، أو نفع يُنالُ عن طريقه، في العاجل والآجل؛ لنَفْي القرآن الكريم الفلاحَ عنه مطلقًا، نفيًا كليًّا عامًّا، وقد عُلمَ باستقراء القرآن أنَّ «الغالبَ فيه أنَّ لفظة ﴿وَلَا يُفۡلِحُ﴾ يرادُ بها الكافرُ، ومن تتبَّعَ آياتِ القرآنِ وجد ذلك»[29].

أمَّا في السُّنَّة النَّبويَّة فما رواه البخاري في «صحيحه» (5764) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، وذكر منها السِّحْر.

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُوم اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ»[30].

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد صرَّح رسولُ الله ﷺ بأنَّ علمَ النُّجوم من السِّحر؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ وهكذا الواقعُ؛ فإنَّ الاستقراءَ يدلُّ على أنَّ أهلَ النُّجوم لا يفلحون؛ لا في الدُّنيا ولا في الآخرة»[31] اهـ.

فلا يفلحُ السَّحرةُ ـ إذن ـ ولا الكهنةُ والعرَّافون والمنجِّمون والرَّمَّالون والمشعوذون والدَّجَّالون، أصحابُ الخيالاتِ والأوهام والخزعبلات، ولا يفلح ـ معهم ـ مَنْ أتاهم وقصَدهم، فهذه عللٌ مُنتنَةٌ، وأدواءٌ مهلكةٌ، وأمراضٌ حضاريَّةٌ أهلكت مَنْ قَبلَنَا، وهي تنخرُ

(29) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (10/225)، «أضواء البيان» (4/335)، و«كليَّات الألفاظ في التَّفسير» لبريك القرني (2/744 وما بعدها).

(30) رواه أبو داود (3905)، وابن ماجه (3726) بإسناد صحيح.

(31) «مجموع الفتاوى» (35/193).

عقيدةَ الأمَّة، وتخدشُ في توحيدها لله ربِّ العالمين، قد أقعدتها عن الرُّقيِّ والتَّطوُّر والازدهار، وألزقتها بالسُّفول والتَّدهْوُر والصَّغار.

والعجبُ أنَّ أكثرَ الأمم ادِّعاءً للسَّبق الحضاري والتَّفوُّق العلميّ هي أكثرُها تسابُقًا للسِّحر والشَّعوذة والتَّنجيم، والتَّصديق بذلك والدَّعوة إليه، ونشره بين النَّاس، إفسادًا لعقائد المسلمين، وإقفالاً لمنابع الخير في النُّفوس، وتدنيسًا لكرامة العقول، وإهانةً لها، ففي الوقت الَّذي ترى فيه مُدَّعي التَّمدُّن يطعنون في الدِّين وأهله، وفي ثوابت الإسلام ومُقدَّساته، تراهم في آنِ الوقت لا يَتوَانَوْنَ في نشر الدَّجَل والسِّحر والشَّعوذة والتَّنجيم، عن طريق الصُّحُف العلمانيَّة التَّغريبيَّة السَّيَّارة، والقنوات الفضائيَّة المفسدة لعقائد النَّاس، المُمكِّنة للدَّجَّالين، والعابثين بالدِّين والمُشكِّكين في شريعة ربِّ العالمين، ولا يرَوْنَ ذلك مُعيقًا لأيِّ تَقدُّم عندهم، بل هو علمٌ وفنٌّ وثقافةٌ! وهذا مِن التَّناقض الصَّارخ؛ إذ فيه إلغاءٌ واستخفافٌ بالعقول السَّويَّة، وتخلٍّ وتحريفٌ للفطَر النَّقيَّة.

لقد غزا السِّحرُ أرضَ المسلمين وبيوتَهم أو كاد، وإنَّ من أعظم أسباب رواجه الحرصَ على الدُّنيا، وَالتَّنافسَ عليها وعلى مَلذَّاتها، والاستهانةَ بأمره والتَّهوينَ من شأنه، وانخداعَ كثيرٍ من النَّاس بهؤلاء السَّحرة من جهة الاستشفاء بما عندهم، أو قضاء شيءٍ من حوائجهم على أيديهم، بسحرٍ يُعمَلُ لهم من عَطْف للقلوب وصَرْف لها، حُبًّا وبُغضًا، للأزواج والزَّوجات، بل حتَّى بين الشُّركاء والعُمَّال في الإدارة والمؤسَّسات، وفي مُختَلَف المُستويَات والطَّبقات، فشَغَلَ السِّحرُ حيِّزًا في تفكير كثير من الجهلة الَّذين يَسعَوْنَ لقضاء حوائجهم عن طريق قصد السَّحرَة والدَّجَّالين والمُنجِّمين والمُشعوذين، ولا شكَّ أنَّ مَنْ أعطى السَّحرةَ مالَه يُعدُّ سفيهًا مُعينًا لهم على باطلهم، ومساهمًا معهم في نشر الدَّجل والسِّحر وتشجيعه في المُجتَمَع، وإنَّ تفشيَ السِّحر في الأمَّة مُنذرٌ بهلكتها، وتَسلُّط أعدائها، وذهاب خيراتها وبركاتها.

لقد طالت أيادي السَّحرَة الفاجرة بالهدم صَرْحَ الإيمان، فأتَتْ على عقولِ النَّاس وفطَرهم بفؤوس الوهم والجهل، ومَعاول الخرافة والدَّجَل، فاستعانوا بالجنِّ والشَّياطين لقضاء حوائج النَّاس، وتلبيَة مطالبهم، وإن كان للجنِّ قدرةٌ أبعدُ مدى من قدرة البشر، إلاَّ أنَّهم ليس في مقدورهم - أبدًا - علمُ الغيب والاطِّلاعُ عليه، ولو ادَّعَوْا ذلك كذبًا وزورًا، فالغيبُ ممَّا اختصَّ اللهُ جلَّ وعلا بعلمه إلاَّ ما أعلمَه أحدًا من رُسله وأنبيائه.

● الواجب في حقِّ المسحور:

المسحورُ مُبتَلًى بقدَرٍ - لحكمة - قضاها الله جلَّ وعلا، لكنَّ الواجبَ في حقِّه الصَّبرُ على الامتحان والاختبار والابتلاء واحتسابُ الأجر مع الإخلاص في الدُّعاء، وصدق اللَّجأ إلى الله، والأخذ بالأسباب المشروعة في العلاج ومدافعة الدَّاء؛ ليكونَ في الدَّارَيْن من المُفلحين السُّعداء، فالله جلَّ في علاه هو المُؤمَّلُ وحدَه لكشف كلِّ بأساء وبلاء، لا يملكُ أحدٌ لأحد نفعًا ولا ضرًّا، فالأمرُ بيد الله وحدَه، لَه الخلقُ وله الأمرُ، وإليه يرجعُ الأمرُ كلُّه، لا ربَّ ولا معبودَ سواه.

فلا ينبغي للعبد المسلم أن يتَّبع هواه ويساير عواطفَه فيضلَّ - من حيث يشعر أو لا يشعر - عن سواء السَّبيل؛ لأنَّ السَّحرَةَ تستَغلُّ من النَّاس مَنْ غَلَبَ عليهم الجهلُ بالدِّين أو ضَعْفُ التَّديُّن واليقين، فتسرق من جيب العبد مالَه، ومن قلبه تقواه ويقينَه، يبْتَزُّون أموالَ السُّفهاء من الأنام ويُلبِّسُون على الدَّهماء والرَّعاع من العوامِّ، مع أنَّ الله جلَّ وعلا قد شَرَعَ للنَّاس في دينه الحنيف ما يتَّقُونَ به السِّحرَ قبلَ وقوعه، وما يعالجونه به بعد وقوعه، رحمةً وإحسانًا بهم، وإتمامًا لنعمته عليهم، وإقرارًا لدينه الَّذي ارتضاه لهم.

لقد حمى الشَّرعُ الحنيفُ جنابَ التَّوحيد، وسدَّ كلَّ ذرائع الشِّرك وطُرقه المفضية إليه، وشرعَ لنا معرفةَ الباطل للحذَر منه واتِّقائه، قال جلَّ وعلا: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [سُورَةُ الأَنْعَام].

فمعرفةُ علاماتِ أهل الشَّرِّ والمجرمين والمفسدين، وأهل الأهواء والبِدع، وأهل الشِّرك والكفر، من الدِّين، فلا يستقيمُ توحيدٌ إلاَّ بالكفر بالطَّاغوت بأنواعه وأصنافه، ولا تستقيمُ سُنَّةٌ إلاَّ بالبراءة من البدَع كلِّها وأهلها، ومن هذا الباب أذكُرُ بعضَ العلامات الظَّاهرة للسَّاحر الَّتي يُمكنُ التَّعرُّفُ عليه من خلالها؛ ليُتَّقى ويُجتَنَبَ ويُحْذَرَ منه.

● علامات السَّاحر[32]:

فمنها:

1 - سؤاله عن اسم المريض، واسم أمِّه.

2 - طلبُه من المريض تزويدَه بأثر من آثاره المادِّيَّة؛ كالمشط، أو الثَّوب، أو ما يبقى في المشط من أثر الشَّعر عند تسريحه، أو بعض الألبسة الَّتي تباشر بدنه... إلخ.

3 - طلبه لحيوان بألوان ومواصفات معيَّنة، كسوَاد مثلاً، ليذبحه بذكر اسم غير الله عليه، أو بغير ذكر اسم الله

(32) ذكرها غير واحد ممَّن كتب في السِّحر والسَّحرة.

عليه، وربَّما لطَّخ بدمه أماكنَ الألم من المريض، أو مَدْخَلَ بيت أو جدرانَه أو رمى به مذبوحًا في مكانٍ خَرِب، أو مقبرة ونحو ذلك.

4 ـ كتابته للطَّلاسم، وهي المحتوية على أشكال، وأسهُم، وحروف مُقطَّعة، وأعداد في أوفاق، ورُسوم لأبراج، وكتابة لأسماء كواكب سبع سيَّارة حالَ مُقابَلَتها للقمر أو غيابها عنه... وغير ذلك من الكفريَّات.

5 ـ رفعُ الصَّوت بتلاوة آيات من القرآن، ثمَّ الإسرارُ والتَّمتمةُ بكلام غير مفهوم وبعزائمَ شركيَّة، بحيث لاَ يسمعُها المريضُ فيلتبس الأَمرُ عليه، ويَتوهَّمُ أنَّ هذا راقٍ شرعيٌّ يُعالِجُ بالقرآن، في حين هو ساحر يسترضي شيطانَه بخلط آيات من القرآن الكريم بتمائمَ وطلاسِمَ وعزائمَ شركيَّة، نعوذُ بالله من الشِّرك وأهله.

6 ـ إعطاءُ المريض ما يُسمَّى «لَحْجَاب»، وهو: تميمةٌ شركيَّةٌ يُعلِّقها المريضُ، وتحوي مُربَّعات بداخلها حروفٌ وأرقامٌ وعزائمُ، وكلامٌ غيرُ مفهوم، ويأمرُ السَّاحرُ المريضَ بعدم فكِّ ذلك الحجاب، ويُخوِّفُه أشدَّ التَّخويف، مُستعينًا بالشَّياطين في كلِّ ذلك.

7 ـ استعمالُه لبعضِ الموادِّ في تعويذاته الشِّركيَّة وسحرِه كالحرمل (وهو نباتٌ صَحراوي)، والرَّصاص الذَّائب والزِّئبق ونحو ذلك...

8 ـ استعمالُه للنَّجاسات في خلطته السِّحريَّة والعياذُ بالله.

9 ـ أمرُه للمريض أن يَعتزِلَ النَّاسَ مدَّةً معيَّنَةً كسبعة أيَّام أو سبع ليالٍ أو أربعين ليلة ونحو ذلك، في غرفة مظلمة لا يدخُلها ضياءُ نورِ الشَّمس، وهو ما يُسمِّيه العامَّة (الحجْبة) استرضاءً للشَّياطين.

10 ـ أحيانًا يطلبُ من المريض ألاَّ يمَسَّ ماءً لمدَّة، تكون ـ غالبًا ـ أربعين يومًا فيبقى المريضُ نجسًا، على غير طهارة ولا صلاة ولا عبادة، فتتمكَّنُ الشَّياطينُ منه ومن مَسِّه، بل رُبَّما تلبَّسَتْ به.

11 ـ إعطاؤُه المريضَ أشياء يَدفنُها في الأرض، أو أوراقًا يحرقها ويتبَخَّرُ بها لأجل أن تُخالطَ نَفَسَه، وبَشَرَته وهي تحوي عزائمَ شركيَّةً، أو فيها شيءٌ من الاستهزاء بالدِّين.

12 ـ إخبارُه المريضَ أحيانًا باسمه، واسم بلده، ومشكلته الَّتي جاء من أجلها، وقد يستعين السَّاحر بقرين الإنسان[33].

13 ـ زعمُه الاتِّصالَ بأرواح الموتى، وبعضُهم يَدَّعي مُخاطبَتَهم أو التَّواصلَ معهم، أو تَحضيرَهم، وكلُّ هذا من السِّحر والشَّعوذة ولها مخاطرُ وخيمةٌ على عقائد المسلمين[34].

هذا وطرقُ السَّحرة في إضلال بني آدم وإفساد عقائدهم وسلب أموالهم وأكلها بالباطل كثيرةٌ، اكتفيتُ هنا ببعضها، وقد أعرضتُ عن ذكر علامات المسحور لاشتباهها على كثير من النَّاس، فمنهم من يكونُ مريضًا بمرضٍ عُضويٍّ أو نفسيٍّ يحتاجُ فيه إلى علاجٍ وعناية ورعاية ومتابعة طبِّيَّة ونفسيَّة ثمَّ يظنُّ أنَّه مسحورٌ، وهذا في النَّاسِ كثيرٌ، والَّذي ينبغي في حقِّ هؤلاء هو مراجعةُ أهل الاختصاص في الطِّبِّ بنوعَيْه العضوي والنَّفسي، والتَّداوي عندهم، قال نبيُّنا ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»[35].

● علاج السحر:

إذا ثبت وجودُ السِّحر في المسحور فالعلاج يكون بما أرشد إليه أهلُ العلم من:

1 ـ التَّحصُّن بأذكار الصَّباح والمساء الثَّابتة في السُّنَّة المطهَّرة.

2 ـ قراءة آية الكرسي وهي أعظم آية في القرآن.

3 ـ قراءة سورة الإخلاص، والمعوذتين.

4 ـ ملازمةُ الاستغفار والتَّوبةِ ودوامُ ذكر الله تعالى.

5 ـ إسباغُ الوضوء قبل النَّوم.

6 ـ قراءةُ خواتيم سورة البقرة، وهما: الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة، فمن قرأهُمَا من ليلَته كفتاه.

7 ـ النَّفثُ في اليَدَيْن ـ باطن الكفَّيْن ـ مع قراءة سورة الإخلاص والمُعوِّذَتَيْن، ومسح ما أقبل من الجسد بهما.

8 ـ الاضطجاع على الشِّقِّ الأيمَن عند النَّوم وجعلُ هذا آخرَ ما يقول: «اللهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ...»[36]؛ فإنْ ماتَ مات على الفطرة.

وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم.



(33) قال نبيُّنا ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ» قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلاَّ أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ» رواه مسلم (2814).

(34) من أوسع من تعرَّض لهذا المذهب الباطل الهدَّام «الموسوعة الشَّاملة لمذهب الرُّوحيَّة الحديثة وتحضير الأرواح» للدُّكتور علي بن سعيد العبيدي.

(35) رواه البخاري (5678)، وانظر: «محاضرات في العقيدة والدَّعوة» للشَّيخ الفوزان ـ حفظه الله ـ (236/3).

(36) البخاري (6311)، مسلم (2710).



ما يَعصِم من فتنة الدَّجَّال

عباس ولد عمر
إمام خطيب . الجزائر العاصمة

من أشراط السَّاعة الَّتي جعلَها اللهُ تعالى مُؤذِنَةً بانقضاءِ الدُّنيا وزوالها، ودنوِّ القيامة ومجيئها؛ خروجُ المسيح الدَّجَّال الَّذي جعلَه الله سبحانه فتنةً للنَّاس، بل إنَّ فتنتَه أعظمُ فتنَة على وجه الأرض مُنذُ ذَرَأَ اللهُ الخليقةَ، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ، فكان أكثرُ خُطبَته حديثًا حدَّثَنَاه عن الدَّجَّال وحَذَّرناه، فكان من قوله أنْ قال: «إنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ، [أ]عْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال، وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إلاَّ حَذَّرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ، وأَنَا آخِرُ الأَنْبِيَاءِ، وأَنْتُمْ آخِرُ الأُمَمِ، وهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لاَ مَحَالَةَ»[1].

ولعظيم شأنِ فتنة الدَّجَّال، وكبير خَطَرها؛ فقد أكثرَ نبيُّنَا ﷺ من ذكره وتحذير أُمَّته منه، حتَّى قال: «إنِّي قَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الدَّجَّالِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لاَ تَعْقِلُوا»[2]، وعن النَّوَّاس ابنِ سَمْعَان رضي الله عنه قال: «ذكرَ رسولُ الله ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غداة، فخفَّضَ فيه ورفَّع حتَّى ظَنَنَّاه في طائفة النَّخل»[3].

وقد بالغ ﷺ في وصفه حتَّى تكونَ أُمَّتُه على بيِّنَة منه، ولا تَنخدع بما يأتي به، ففي حديث أبي أمامة السَّابق قال ﷺ: «فإنِّي سَأَصِفُهُ لَكُمْ صِفَةً لَمْ يَصِفْهَا إِيَّاهُ نَبِيٌّ قَبْلِي، إنَّهُ يَبْدَأُ فيقُولُ: أَنَا نَبِيٌّ؛ ولاَ نَبِيَّ بَعْدِي، ثُمَّ يُثَنِّي فيَقُولُ: أنا رَبُّكُمْ؛ ولاَ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا، وإنَّهُ أَعْوَرُ، وإنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بأَعْوَر، وإنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْه كَافر، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمن كَاتب أو غَيْر كَاتب، وإنَّ مِنْ فِتْنَته أَنَّ مَعَهُ جَنَّةً ونَارًا، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وجَنَّتُهُ نَارٌ».

ولَمَّا كانَ ﷺ أشفقَ النَّاس على الأمَّة وأنْصَحَهم لها؛ فإنَّه قد أرشد إلى ما تحصُل به النَّجاةُ من شرِّ هذه الفتنة، كما هو دأبه في أكثر ما حذَّرَ من وقوعه من بعده، لا يذكر الدَّاءَ إلاَّ ويَقرنُه ببيان الدَّواء، كما في حديث العرباض بن سارية، وحديث العَيْنَة وغير ذلك؛ فحقيقٌ بكلِّ مُؤمن ـ يبغي السَّلامةَ لدينه، ويسعى للنَّجاة من عذاب ربِّه ـ أن يكون حَذرًا منها، وَجلاً من الوقوع في شراكها، مُجتَهدًا في الأخذ بالأسباب الَّتي تُنجيه من شرِّها.

---

(1) رواه ابن ماجه (4077) وهوجزءٌ من حديث طويل في ذكر خَبَرِ الدَّجَّال، وهذا الحديث وإن كان ضعيفًا من جهة إسناده، إلاَّ أنَّ كثيرًا من جُمَله صحيحٌ ثابتٌ في «الصَّحيحين» وغيرهما من كتُبِ السُّنَّة كما قال الألباني في مُقدِّمته لكتاب «قصَّة المسيح الدَّجَّال»، ولذلك صَحَّحه لغيره إلاَّ كلماتٍ يسيرةً منه، وأمَّا الزِّيادةُ فهي لأحمد (14112) من حديث جابر رضي الله عنه.

(2) رواه أحمد (22764) وأبو داود (4320) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(3) رواه مسلم (2937).

ومِمَّا أرشد النَّبيُّ ﷺ إلى الاعتصام به أمورٌ:

أوَّلها: الالتجاءُ إلى الله سبحانه، والاستغاثةُ به، والاستعاذةُ به من شرِّ الدَّجَّال.

فلا مَلجأَ للمؤمنين من هذه الفتنة العظيمة إلاَّ إلى ربِّهم؛ إذ لا يملكُ العبدُ الضَّعيف لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا يستطيع حولاً ولا قُوَّةً؛ إلاَّ بمعونة الرَّبِّ وتوفيقه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: 107]، وكما قال نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: 43]، هذا في ما يصيبُ العبدَ في شأنه كُلِّه، دقِّه وجلِّه، فكيف بفتنة لم يكن مثلُها ولا يكون.

ولهذا أمر ﷺ من ابْتُلِيَ بفتنة الدَّجَّال أن يَلْجَأَ إلى رَبِّه ويستغيثَ بخالقه، فقال: «وإنَّ منْ فتْنَته أنَّ مَعَهُ جَنَّةً ونَارًا، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وجَنَّتُهُ نَارٌ، فَمَنِ ابْتُلِيَ بنَارِه فَلْيَسْتَغِثْ بالله»[4].

ومِمَّا أَمَرَ به ﷺ كذلك الاستعاذةُ بالله من شرِّ فتنته، ورد ذلك مُطلَقًا ومُقيَّدًا، أمَّا المُطلَقُ ففيما رواه زيدُ ابنُ ثابت رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لهم: «تَعَوَّذُوا بالله مِنْ عَذَابِ النَّارِ»، قالوا: نعوذ بالله من عذابِ النَّار، فقال: «تَعَوَّذُوا بالله مِنْ عَذَابِ القَبْرِ»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «تَعَوَّذُوا بالله مِنَ الفتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ». قالوا: نعوذُ بالله من الفتن ما ظهرَ منها وما بَطَنَ، قال: «تَعَوَّذُوا بالله مِنْ فتْنَة الدَّجَّال»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدَّجَّال»[5].

(4) ابن ماجه (4077).
(5) رواه مسلم (2867).

وأمَّا الأمرُ المُقيَّد؛ فالمقصود به تخصيصُ ذلك بدُبُر الصَّلاة، ودليلُه حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّد الآخر؛ فَلْيَتَعَوَّذْ بالله مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، ومِنْ عَذَابِ القَبْرِ، ومِنْ فتْنَة المَحْيَا والمَمَات، ومِنْ شَرِّ [فتْنَة] المَسِيحِ الدَّجَّال»[6].

ولقد كان النَّبيُّ ﷺ حريصًا على هذه الدَّعوات؛ حتَّى إنَّه كان يُعلِّمُها الصَّحابةَ كما يُعلِّمُهم السُّورةَ من القرآن، كما في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُعلِّمُهم هذا الدُّعاءَ كما يُعلِّمُهم السُّورةَ من القرآن؛ يقول: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وأَعُوذُ بكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وأَعُوذُ بكَ مِنْ فتْنَة المَسِيحِ الدَّجَّال، وأَعُوذُ بكَ مِنْ فتْنَة المَحْيَا والمَمَات»[7].

ومن عجيب ما جاء عن السَّلف في الحرص على هذا الدُّعاء؛ ما رواه مسلم عَقِبَ هذا الحديث، قال: «بلَغَني أنَّ طاوسًا قال لابنه: أَدَعَوْتَ بها في صلاتك؟ فقال: لا، قال: أَعِدْ صَلاتَكَ»[8].

○○○

الثَّاني: الإيمان الصَّادق والعملُ الصَّالحُ ولزومُ الاستقامة والتُّقى قبل نُزول هذه المحنة.

لا بُدَّ أن يَعلَمَ المسلمُ أنَّ ثباتَه عند ورود الفتن إنَّما هو بتثبيت الله له، ليس له في ذلك قوَّةٌ وحيلةٌ، ولكنَّه مَحضُ فضلِ الله تعالى وخَالصُ منَّته،

(6) رواه مسلم (588).
(7) رواه مسلم (590).
(8) وصله عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» بسند صحيح (3087).

وهذا الفضلُ يُكرمُ اللهُ به أهلَ طاعته، المؤمنين برسالته، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]، وهذا التَّثبيتُ لقلوب المؤمنين هو من مقتضى مَعيَّة الله الَّتي وعد بها عبادَه في مثل قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ [الأنفال]، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل]، فهذه معيَّةٌ خاصَّةٌ تقتضي الحفظَ والتَّثبيتَ، والرِّعايةَ والتَّسديدَ، والنَّصرَ والتَّمكينَ، لمن آمن بالله صدقًا، واتَّقاه حقًّا، فلذلك يَدفَعُ سبحانه عنهم الفتن، ويُنجيهم من المحَن، بما أسْلَفوا من الاستجابة لأمره، والاستقامة على نهج نبيِّه، ولهذا جاء في وصيَّته ﷺ لابن عبَّاس: «احْفَظ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»، وفي بعض ألفاظه: «احْفَظ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إلَى الله في الرَّخَاء يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة»[9]، وقد بيَّن ﷺ أنَّ اللهَ هو يتولَّى عبادَه المؤمنين إذا خرج فيهم الدَّجَّال؛ فقال: «إنْ يَخْرُجْ وأَنَا فيكُمْ فَأَنَا حَجيجُه دُونَكُمْ، وإنْ يَخْرُجْ ولَسْتُ فيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجيجُ نَفْسه، واللهُ خَليفَتي عَلَى كُلِّ مُسْلم»[10].

قال أبو العبَّاس القرطبي: «وقولُه: «واللهُ خَليفَتي عَلَى كُلِّ مُسْلم»، هذا منه ﷺ تفويضٌ إلى الله تعالى في كفاية كلِّ مُسلم من تلك الفتن العظيمة، وتَوكُّلٌ عليه في ذلك»[11].

وقال القاري: «واللهُ خَليفَتي عَلَى كُلِّ مُسْلم» يعني: والله سبحانه وتعالى

(9) رواه أحمد (2669، 2763) والترمذي (2516)، والرواية الأخرى عند أحمد (2803)، والطبراني في «الكبير» (11243، 11560)، والحاكم (6303، 6304) وغيرهم.
(10) رواه مسلم (2937).
(11) «المفهم» (7/277).

وليٌّ كلِّ مسلم وحافظُه؛ فيُعينُه عليه، ويَدفَعُ شرَّه»[12].

وممَّا يُثبِّتُ اللهُ به عبادَه تُجَاهَ هذه المحنة: ما ذكرَه ﷺ عن الدَّجَّال أنَّه: «مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، كَاتِبٍ وغَيْرِ كَاتِبٍ»، وفي رواية: «يَقْرَؤُهُ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ»[13]، فهذه أمارةٌ مُشاهَدةٌ جعلَها اللهُ عز وجل فاضحَةً لأمر الدَّجَّال، كاشفةً عن حقيقتِه، ولكن لا يَرَى ذلك إلاَّ مَنْ أرادَ اللهُ هدايتَه وعصمتَه من أوليائه، ولو كان الرَّجُلُ منهم أُمِّيًّا لا يَقْرَأ، ويَحجُبُها سبحانه عن أعدائه ولو كانوا أقرأَ النَّاسِ وأعْلَمَهم بالدُّنيا.

قال النَّووي رحمه الله: «الصَّحيح الَّذي عليه المُحقِّقون أنَّ هذه الكتابةَ على ظاهرها، وأنَّها كتابةٌ حقيقةٌ، جعلها اللهُ آيَةً وعلامةً من جملة العلامات القاطعة بكُفره وكَذبه وإبطاله، ويُظهرُها اللهُ تعالى لكلِّ مُسلم كاتبٍ وغير كاتبٍ، ويُخفيها عمَّنْ أرادَ شقاوَتَه وفتنتَه، ولا امتناع في ذلك»[14].

وقال ابنُ كثير رحمه الله: «فبَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكتوبٌ كافرٌ كتابةً ظاهرةً، وقد حقَّقَ ذلك الشَّارعُ في خَبَرِه بقوله: «ك ف ر»[15]، فدلَّ ذلك على أنَّه كتابةٌ حسِّيَّةٌ لا مَعنويَّةٌ كما يقولُه بعضُ النَّاس»[16].

وصدق اللهُ تعالى إذْ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]، فهذه العلامةُ الظَّاهرَةُ الَّتي يختَصُّ اللهُ بها عبادَه المؤمنين، وحزبَه المُفلحين، والَّتي تَنكَشفُ لهم بها حقيقةُ الدَّجَّال اللَّعين، إنَّما هي ثَمرَةُ المُجاهدَة في الله، والمصابرة على طاعته، فجزاهم رَبُّهم بأن جعل لهم فُرقَانًا يُفرِّقُون به بين الحقِّ والباطل؛ وذلك في أَعْظَم فتنَة تَعرضُ للنَّاس.

يقولُ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله مُعلِّقًا على الحديث السَّابق: «فدلَّ على أنَّ المُؤمنَ يتبيَّنُ له ما لا يَتبيَّنُ لغيره؛ ولا سيما في الفتن، وينكشفُ له حالُ الكَذَّاب الوَضَّاع على الله ورسوله؛ فإنَّ الدَّجَّالَ أَكْذَبُ خلق الله؛ مع أنَّ اللهَ يُجري على يَدَيْه أمورًا هائلةً، ومَخاريقَ مُزلزِلَةً، حتَّى إنَّ مَنْ رآه افتتن به؛ فيَكشفُها اللهُ للمؤمن حتَّى يعتقدَ كذبَها وبُطلانَها، وكلَّما قَوِيَ الإيمان في القلب قَوِيَ انكشافُ الأمور له، وعرفَ حقائقَها من بواطلها، وكُلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ الكشفُ»[17].

ولمَّا كان التَّثبيتُ في هذه الفتنة حاصلاً لأهل الطَّاعة خاصَّةً؛ فقد رغَّبَ رسولُنا ﷺ في المبادرة إلى العمل الصَّالح قبل حلولها فقال: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، والدُّخَانَ، ودَابَّةَ الأَرْضِ، وطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وأَمْرَ العَامَّةِ، وخُوَيصةَ أَحَدِكُمْ»[18].

وممَّا يدلُّ على أنَّه مَنْ بادر إلى العمل الصَّالح وجاهد في الله قبلَ نُزول هذه المحنة نجَّاه اللهُ بفَضله منها، حديثُ النَّبيِّ ﷺ الَّذي قال فيه: «وَلَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِمَّا قَبْلَهَا إلاَّ نَجَا مِنْهَا»، وفي رواية: «فَمَنْ نَجَا مِنْ فِتْنَةٍ مَا قَبْلَهَا نَجَا مِنْهَا، وإِنَّهُ لا يَضُرُّ مُسْلِمًا»[19]، وقد يُشكلُ هذا مع ما تقدَّمَ من أنَّ فتنةَ الدَّجَّال أعظمُ الفتن على الإطلاق، فكيف تكون عظيمةً وتكون النَّجاةُ منها لمن نَجَا من الفتن الَّتي دُونَها؟! وجوابُه: أنَّ ذلك تَفضُّلٌ من الله سبحانه لمن جَاهَدَ في ذاته، وتعرَّف على ربِّه في وقت رخائه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧﴾ [محمد]، وقد تقدَّم قولُه ﷺ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»، قال ابنُ رجب: «وفي الجملة؛ فمن عامل اللهَ بالتَّقوى والطَّاعة في حال رخائه؛ عامَلَه اللهُ باللُّطف والإعانة في حال شدَّته»[20].

○○○

الثَّالث: العلمُ بالشَّريعة والفقهُ في الدِّين؛ لا سيَّما علمُ التَّوحيد والسُّنَّة.

ممَّا جعلَهُ اللهُ سبحانه عاصمًا من الفتن: العلمُ به والتَّفقُّهُ في شريعته، والمقصودُ به هنا ما استقرَّ في القلب، وكان قائدًا لصاحبه إلى مرضاة الرَّبِّ، لا ما كان على اللِّسان؛ فإنَّه حجَّةُ الله على الإنسان، فمتى طلب المسلمُ العلمَ بنيَّة خالصة، وسلك في تحصيله الجادَّةَ الصَّحيحةَ، وجعل همَّتَه في العمل به بعد إدراكه؛ رزقَه اللهُ تعالى بصيرةً يُمَيِّزُ بها بين الحقِّ والباطل، والسُّنَّة والبدعة، والهدى والضَّلالة، والدُّعاة إلى الصِّراط المستقيم والمنادين على أبواب الجحيم.

ومن أفضل علوم الشَّريعة وآكدها من جهة فرضيَّة التَّحصيل؛ علمُ العقيدة والتَّوحيد، وقد وردت الإشارة فيما أخبر به النَّبيُّ ﷺ عن الدَّجَّال

(12) «مرقاة المفاتيح» (378/9).
(13) رواه مسلم (2934) عن حذيفة رضي الله عنه، والرِّواية الأخرى له (169)، وروى البخاري الجملة الأولى منه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(14) «المنهاج» (60/18).
(15) يريد بذلك ما ورد في بعض الروايات أنه ﷺ تهجَّاها.
(16) «النهاية في الفتن» (194/19) ضمن «البداية والنهاية».
(17) «الفتاوى» (45/20).
(18) رواه مسلم (2934) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(19) الرواية الأولى رواها أحمد (23304)، وروى الأخرى ابن حبان (6769).
(20) «جامع العلوم والحكم» (ص203).

إلى بعض أصول الاعتقاد الَّتي يَستدلُّ بها المؤمنون على تزييف أباطيل الأعور الكذَّاب، فمن تعرَّفَ على ربِّه بما له من صفات الكمال، وما يَستحقُّه من نعوت الجلال، وأنَّه سبحانه مُنَزَّهٌ عن النَّقائص والعيوب، لم ينخدع بما يأتي به من الخوارق؛ إذ كيف يُصدِّقُ الدَّجَّال في دعواه أنَّه ربُّ النَّاس، وفيه من المعايب الظَّاهرة ما لا يخفى على إنسان، وأبرز ذلك عَوَرُه، ولهذا قال ﷺ: «أَلاَ مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأنه فَلاَ يَخْفَيَنَّ عَلَيْكُمْ أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ[مرَّتين]»[21].

وممَّا يَنقُضُ دعواه من توحيد الرُّبوبيَّة قولُه ﷺ: «إِنَّهُ يَمْشِي في الأَرْضِ، وإِنَّ الأَرْضَ والسَّمَاءَ لله»[22]، فلا يعقل أن يكون الرَّبُّ ربًّا وهو يمشي على الأرض الَّتي هي خلقٌ من خلقه.

وممَّا تقرَّر ـ أيضًا ـ من أصول الاعتقاد؛ أنَّ الله لا يُرَى في الدُّنيا، إنَّما يراه المؤمنون يومَ القيامة إذا دَخَلُوا الجنَّةَ، ولهذا ذكَّرَهم ﷺ بذلك ليَستَدلُّوا به على دَجَله وافترائه فقال: «وأَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا»[23].

ومنها كذلك مسألةُ ختم النُّبوَّة والرِّسالة، فالدَّجَّالُ أَوَّلَ ما يخرجُ يدَّعي أنَّه نبيٌّ، قال ﷺ: «إِنَّهُ يَبْدَأُ فَيَقُولُ: أَنَا نَبِيٌّ، ولاَ نَبِيَّ بَعْدِي»[24].

وممَّا يُفيدُ المؤمنَ في ذلك الزَّمانِ علمُه بالسُّنَّة والآثار، يدلُّ على ذلك ما أخبر به ﷺ من شأن ذلك الشَّابِّ المدني الَّذي يَخرُجُ إلى الدَّجَّال، قال ﷺ: «يَأْتِي الدَّجَّالُ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ المَدِينَة، فَيَنْزِلُ بَعْضَ السِّبَاخِ الَّتي تَلِي المَدِينَةَ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاس ـ أَوْ مِنْ خِيَارِ النَّاس ـ، فيقول: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذي حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ؛ هَلْ تَشُكُّونَ في الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيه؛ فيقولُ: والله مَا كُنْتُ فيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي اليَوْمَ، فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ»[25]، فتأمَّلْ ثباتَ هذا المؤمن وعدمَ اغتراره بما افتتن به أكثرُ النَّاس من حوله؛ لأنه وجَدَ أوصافَه مُطابقَةً لما جاءت به الأحاديثُ حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، فلذلك قال أَوَّلَ وَهلَة: «أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذي حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَهُ»، بل إنَّ ثباتَه كان فيما هو أعظم من ذلك، أعني لمَّا قَتَلَه الدَّجَّالُ وأَحيَاهُ، فما كان منه إلاَّ أن قال: «والله مَا كُنْتُ فِيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي اليَوْمَ»، لذلك استحقَّ هذا الشَّابُّ المؤمن أن يكون «أَعْظَمَ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ»[26].

وإذا كان العلمُ بالسُّنَن المرويَّة من أسباب العصمة من فتنة الدَّجَّال، فلا بُدَّ من الحرص على إذاعة هذه الأحاديث بين النَّاس وتذكيرهم بها، حتَّى يَحذَرُوا هذه الفتنةَ، ويأخذوا بأسباب الوقاية منها.

قال ابن ماجه ـ عقبَ روايَته لحديث أبي أمامة في ذكر الدَّجَّال ـ: «سمعتُ أبا الحسن الطَّنافسي يقول: سمعتُ عبدَ الرَّحمن المحاربي يقول: ينبغي أن يُدفَعَ هذا الحديثُ إلى المُؤدِّب حتَّى يُعلِّمَه الصِّبيانَ في الكُتَّاب».

ثمَّ إنَّ في ترك التَّذكير بها إهمالاً لأمر اهتمَّ به نبيُّنَا ﷺ غايةَ الاهتمام، وقد تقدَّمَ معنا قولُه ﷺ: «إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الدَّجَّالِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لاَ تَعْقِلُوا»، وأَوْلَى مَنْ يتعيَّنُ في حقِّه ذلك، أئمَّةُ المساجد والدُّعاةُ إلى دين الله تعالى، وقد جعل النَّبيُّ ﷺ من علامات خروج الدَّجَّالِ أن تَترُكَ الأئمَّةُ ذكرَه على المنابر، فعن راشد بن سعد قال: «لمَّا فُتحَت إصْطَخْر نادى منادٍ: ألا إنَّ الدَّجَّالَ قد خَرَج، قال فلقيَهم الصَّعبُ ابنُ جَثَّامَة فقال: لولا ما تقولون لأخبرْتُكم أنِّي سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لاَ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ حتَّى يَذْهَلَ النَّاسُ عَنْ ذِكْرِه، وحَتَّى تَتْرُكَ الأَئمَّةُ ذِكْرَهُ على المَنَابِرِ»[27]، قال الألباني: «ولقد صدق هذا الخبرُ على أئمَّة المساجد فتركوا ذكرَ الدَّجَّال على المنابر وهم خاصَّةُ النَّاس؛ فماذا يكون حال عامَّتهم؟!»[28].

OOO

الرَّابع: الفِرار منه وعدمُ التَّعرُّض لفتنته.

عن عمران بن حصين قال: قال رسولُ الله: «مَنْ سَمِعَ بالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ [ثلاثًا]، فَوَالله إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيه وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتْبَعُهُ مِمَّا ـ أو لما ـ يَبْعَثُ به مِنَ الشُّبُهَات»[29].

وعن أمِّ شَريك قالت: سَمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «لَيَفِرَّنَّ النَّاسُ من الدَّجَّالِ في الجِبَال»[30]، فالواجب على المرء المسلم أن يفرَّ بدينه، ولا يجوزُ له أن يُعجَب بإيمانه؛ لأنَّه سيوكَلُ إلى نفسه؛ فلا يَزالُ

(21) رواه بهذا اللفظ أحمد (6185)، وهو عند البخاري (4402) ومسلم (2930) بلفظ مقارب.
(22) رواه ابن خزيمة في «التَّوحيد» (103/1).
(23) رواه أحمد (22764).
(24) رواه ابن ماجه (4077).

(25) رواه البخاري (1882، 7132)، ومسلم (2938) عن أبي سعيد رضي الله عنه.
(26) رواه مسلم (2938).

(27) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «الزيادات على المسنَد» (16667).
(28) «قصة المسيح الدجال» (ص31).
(29) رواه أحمد (19875، 19968)، وأبوداود (4319) وهذا لفظه، وأما رواية التثليث فلأحمد.
(30) رواه مسلم (2945).

الدَّجَّال يُريه من شُبُهاته حتى يُصيِّرَه من أتباعه، من أجل ذلك قال أئمَّةُ السَّلف: «إنَّ القُلوبَ ضعيفةٌ والشُّبه خطَّافة»، ويقول ابنُ القيِّم في ذلك: «فما اسْتُعين على التَّخلُّص من الشَّرِّ بمثْل البُعد عن أسبابه ومَظانِّه، وههنا لطيفةٌ للشَّيطان لا يَتخلَّصُ منها إلاَّ حَاذقٌ؛ وهي أن يُظهرَ له في مَظانِّ الشَّرِّ بعضَ شَيءٍ من الخير ويدعوه إلى تحصيله، فإذا قرُبَ منه ألقاه في الشَّبَكة، والله المستعان»[31].

ooo

الخامس: حفظ عشر آيات من أوَّل سورة الكهف وقراءَتُها على الدَّجَّال لمن أدْرَكه.

ممَّا يَعصِمُ كذلك من شرِّ فتنة الدَّجَّال؛ حفظُ العشر آياتِ الأُوَل من سورة الكهف، وقراءتُها عليه إذا خرَج، عن أبي الدَّرداء أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ حَفظَ عَشْرَ آيَات منْ أَوَّل سُورَة الكَهْف عُصمَ منَ الدَّجَّال»[32]، وفي حديث آخر: «فَمَنْ أَدْرَكَهُ منْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْه فَوَاتحَ سُورَة الكَهْف [فَإنَّهَا جوَارُكُمْ منْ فتْنَته]»[33].

قال أبو العبَّاس القرطبي رحمه الله: «لمَا في قصَّة أصحاب الكهف من العجائب والآيات، فمن عَلمَها لم يَسْتَغْربْ أمرَ الدَّجَّال، ولم يَهُلْهُ ذلك، فلا يَفتَتنُ به»[34].

ولا ريبَ أنَّ المقصودَ هنا هو الحفظُ مع التَّدبُّر والتَّفهُّم، واتبَاع ذلك بالعمل بما تقتضيه هذه الآيات، وإلاَّ فإقامَةُ الحُروف فقط؛ ممَّا يُطيقُه أكثَرُ النَّاس برُّهم وفاجرُهم، وقد دلَّت السُّنَّةُ على أنَّ القرآنَ يَرفَعُ أُناسًا ويَضعُ آخَرين، ويكونُ لأقوام حُجَّةً وعلى آخرينَ حَسْرَةً، كلُّ ذلك بحسب القيام بحَقِّه، ومراعاة ما أُنزلَ لأجله.

وأُنبِّه على أنَّه قد ورد في بعض ألفاظ الحديث السَّابق ذكرُ عشر آيات من آخر السُّورة[35]، والمحفوظُ الَّذي عليه أكثرُ الرُّواة العشر الأُوَل، فتكون اللَّفظةُ الأخرى شاذَّةً، وهو ما رجَّحه ابنُ القيم في «جلاء الأفهام» (ص379) والألباني في «الصَّحيحة» (582، 2651) و«الضَّعيفة» (1336).

ooo

السَّادس: أن يفعَلَ المُسلمُ إن أدرك الدَّجَّالَ ما أَرْشَدَ إليه النَّبيُّ ﷺ في الأحاديث الآتية.

قال النَّبيُّ ﷺ: «وَإنَّ منْ فتْنَته أَنَّ مَعَهُ جَنَّةً ونَارًا، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وجَنَّتُهُ نَارٌ»[36]، ومقصودُه أنَّه مَنْ أراد النَّجاةَ فلْيَدْخُل الَّذي يرَى أنَّه نارٌ، ولْيَشْرَبْ منه؛ فإنَّه يكونُ عليه بَردًا وسلامًا، وأمَّا مَن اغْتَرَّ بنهره فإنَّه سيكونُ عليه نارًا وعذابًا، كما جاء مُوضَّحًا في روايات أُخَرَ؛ منها قولُه ﷺ: «لأَنَا أَعْلَمُ بمَا مَعَ الدَّجَّال منْهُ، مَعَهُ نَهْرَان يَجْريَان أَحَدُهُمَا ـ رَأْيَ العَيْن ـ مَاءٌ أَبْيَضُ، والآخَرُ ـ رَأْيَ العَيْن ـ نَارٌ تَأَجَّجُ»[37]، وفي حديث آخر: «فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلكَ منْكُمْ فَأَرَادَ المَاءَ فَلْيَشْرَبْ منَ الَّذي يَرَاهُ أَنَّهُ نَارٌ [ولْيُغمِّضْ [عَيْنَيْه] ثُمَّ لْيُطَأْطئْ رَأْسَهُ]؛ فَإنَّهُ سَيَجدُهُ مَاءً»، وفي رواية: «فَإنَّهُ مَاءٌ بَاردٌ [عَذْبٌ طَيِّبٌ] [فَلاَ تَهْلكُوا]»[38]، وفي حديث: «فَمَنْ دَخَلَ نَهْرَهُ حُطَّ أَجْرُهُ وَوَجَبَ وزْرُهُ، وَمَنْ دَخَلَ نَارَهُ وَجَبَ أَجْرُهُ وحُطَّ وزْرُهُ»[39].

واعلَمْ أنَّ هذا الَّذي ذُكرَ في الحديث من نَهْرَي الدَّجَّال وجنَّته ونـاره، وغير ذلك ممَّا جاءت به الأخبار ممَّا يُجريه الله على يَده من الخوارق المُحيِّرَة؛ هو حقيقةٌ وليس مُجرَّدَ تَمويه أو تخييل، كما يقولُه مَنْ تأثَّرَ بشُبهات أهل الاعتزال وسلك سبيلَهم في إنكار الغيبيَّات، يقولُ ابنُ كثير: «وهذا كلُّه ليس بمَخرَقة[40]، بل له حقيقةٌ امْتَحَنَ اللهُ بها عبادَه في ذلك الزَّمان، فيُضلُّ به كثيرًا ويَهدي به كثيرًا، يَكفُرُ المُرتابون، ويزدادُ الَّذينَ آمنوا إيمانًا، وقد حَمَلَ القاضي عياض وغيرُه على هذا المعنى معنى الحديث: «هُو أَهْوَنُ على الله من ذلك»، أي: هو أقلُّ من أن يَكونَ معه ما يُضلُّ به عبادَه المؤمنين، وما ذاك إلاَّ لأنَّه نَاقصٌ، ظاهرُ النَّقص والفجور والظُّلم، وإن كان مَعَهُ ما مَعه من الخوارق»[41].

ولا يُشكلُ على هذا قولُ نبيِّنا ﷺ في نَهْرَي الدَّجَّال: «رَأْيَ العَيْن»، فغايةُ ما فيه أنَّ باطنَهما يَختلفُ عن ظاهرهما، لا أنَّهما على غير الحقيقة، قال النَّووي: «قال العلماء: هذا من جملة فتنته، امتحن اللهُ تعالى به عبادَه ليُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطلَ، ثمَّ يَفضَحَهُ ويُظهرَ للنَّاس عَجزَه»[42]، وقال ابنُ حجر ـ وهو يُعدِّدُ ما قيل في شرح الحديث ـ: «وإمَّا أن يَجعَلَ

---

(31) «عدَة الصَّابرين» (ص113).
(32) رواه مسلم (809).
(33) رواه مسلم (2937)، والزِّيادة لأبي داود (4321).
(34) «المفهم» (2/439).
(35) هي عند مسلم عقب حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه، قال مسلم: «قال شعبة: «منْ آخر الكَهْف»، وقال همَّام: «منْ أَوَّل الكَهْف» كمَا قَالَ هشَام».
(36) رواه ابـن ماجـه (4077)، وهـو عنـد مسـلم (2934) دون قوله: «وإنَّ منْ فتْنَته».
(37) رواه مسلم (2934).
(38) رواه مسـلم (2934، و2935)، والزِّيـادات له إلاَّ لفظـة: «عَيْنَيْه» فهي عند أحمـد والطَّبراني، وقد تحرَّفت «فلا تَهْلكُوا» في المطبوع من «قصَّة المسيح الدَّجَّال» للألباني إلى: «فَلاَ تَهْلَلوا»؛ فليتَنَبَّهْ.
(39) رواه أحمـد (23425، و23429)، وأبـو داود (4244)، عـن حذيفـة رضي الله عنه وهـو الحديـث الَّذي أوَّلُه: «كَانَ النَّاس يسـألون رسولَ الله ﷺ عن الخير...».
(40) أي: ليسـت تمويهًـا، يقـال: رجـل مُمَخْـرِقٌ، والمخاريق شـيء يلعب بـه الصِّـبيان، ومنه قول عمرو بن كلثوم: مَخَاريقُ بأيْدي لاعبينَا.
(41) «النِّهاية في الفتن» (19/194).
(42) «المنهاج» (18/61).



اللهُ باطنَ الجنَّة الَّتي يُسخِّرُها الدَّجَّالُ نارًا وباطنَ النَّار جنَّةً وهذا الرَّاجح»[43].

نعم؛ قد ثبت أنَّ بعضَ ما يأتي به الدَّجَّال لَيسَ على الحقيقة، كما في قوله ﷺ: «وإنَّ من فتنَته أن يَقولَ لأَعْرَابيٍّ: أَرَأَيْتَ إنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وأُمَّكَ، أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فيَتَمَثَّلُ له شَيْطَانَان في صُورَة أَبيه وأُمِّه، فيَقُولَان: يا بُنَيَّ! اتْبَعْهُ؛ فَإنَّهُ رَبُّكَ»[44]، وهذا حقٌّ نقول به، ولكن لا نتعدَّى مَوردَ نصِّه، ولا نُحرِّفُ كلامَ المعصوم ﷺ عن ظاهره.

ooo

السَّابع: سُكنَى مكَّةَ والمدينة.

فهما حَرَمَان آمنَان، لا يَصلُ إليهما رُعبُ المسيح الدَّجَّال، دلَّ على ذلك أحاديثُ منها:

عن أنس بن مالك عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَيْسَ منْ بَلَد إلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ؛ إلاَّ مَكَّةَ والمَدينَةَ، لَيْسَ لَهُ منْ نقَابهَا نَقْبٌ إلاَّ عَلَيْه المَلاَئكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَها، ثُمَّ تَرْجُفُ المَدينَةُ بأَهْلهَا ثَلاثَ رَجَفَات، فيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافرٍ ومُنَافقٍ»[45].

وعن جابر أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «نعْمَت الأَرْضُ المَدينَةُ؛ إذَا خَرَجَ الدَّجَّالُ عَلى كُلِّ نَقَب منْ أَنْقَابهَا مَلَكٌ؛ لا يَدْخُلُهَا فإذَا كَانَ كَذَلكَ رَجَفَت المَدينَةُ بأَهْلهَا ثَلاَثَ رَجَفَات لاَ يَبْقَى مُنَافقٌ ولاَ مُنَافقَةٌ إلاَّ خَرَجَ إلَيْه، وأَكْثَرُ مَنْ يَخْرُجُ إلَيْه النِّسَاءُ، وذَلكَ يَوْمُ التَّخْليص، وذَلكَ يَوْمَ تَنْفي المَدينَةُ الخَبَثَ كَمَا يَنْفي الكيرُ خَبَثَ الحَديد»[46].

ومثلُهما المسجدُ الأقصى والطُّور، لما رواه أحمد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «وإنَّه - أي الدَّجَّال - يَلْبَثُ فيكُمْ أَرْبعينَ صَبَاحًا يَردُ فيهَا كُلَّ مَنْهَل؛ إلاَّ أَرْبَعَ مَسَاجدَ: مَسْجدَ الحَرَامَ، ومَسْجدَ المَدينَة، والطُّورَ، ومَسْجدَ الأَقْصَى»[47].

ولا بُدَّ أن يُعلَمَ أنَّ استيطان هذه البقاع، لا يُمكنُ بحالٍ أن يكون كافيًا لأصحابه ليَعصمَهم من هذه الفتنة؛ إلاَّ إذا جُمعَ إليه توحيدُ الله، والإيمانُ به، والتَّمسُّكُ بسنَّة نبيِّه ﷺ.

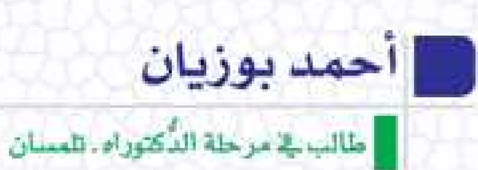
قال الألباني: «واعلَمْ أنَّ هذه البلادَ المُقدَّسَةَ إنَّما جَعلَها اللهُ عصمَةً من الدَّجَّال لمن سَكنَها وهو مُؤمنٌ مُلتَزمٌ بما يجبُ عليه من الحقوق والواجبات تجاه ربِّها، وإلاَّ فمُجرَّدُ استيطانها - وهو بعيدٌ في حياته عن التَّأدُّب بآداب المؤمن فيها - فَممَّا لا يَجعلُه في عصمة منه، فسيأتي... أنَّ الدَّجَّال - عليه لعائنُ الله - حين يأتي المدينَةَ النَّبويَّةَ وتَمنَعُه الملائكةُ من دخولها؛ تَرجُفُ بأهلها ثلاثَ رَجفَات، فلا يبقى فيها منافقٌ ولا منافقةٌ إلاَّ خرجَ إليه... فالعبرة إذَنْ بالإيمان والعمل الصَّالح، فذلك هو السَّببُ الأكبَرُ في النَّجَاة، وأمَّا السَّكَنُ في دار الهجرة وغيرها؛ فهو سببٌ ثانويٌّ، فمَنْ لم يأْخُذْ بالسَّبب الأكبَر؛ لم يُفدْه تَمسُّكُه بالسَّبب الأصغَر... وما أَحسَنَ ما روى الإمامُ مالكٌ في «الموطَّأ» (235/2) عن يحيى بن سعيد: «أنَّ أبا الدَّرداء كتب إلى سلمان الفارسي: أنْ هَلُمَّ إلى الأرض المُقدَّسة (يعني: الشَّام) فكتب إليه سلمان: إنَّ الأرضَ لا تُقدِّسُ أحدًا، وإنَّما يُقدِّسُ الإنسانَ عملُهُ»»[48].

ooo

(43) «فتح الباري» (124/13).
(44) رواه ابن ماجه (4077).
(45) رواه البخاري (1881، و7124)، ومسلم (2943).
(46) رواه أحمد (14112).
(47) «المسند» (23684).
(48) «قصَّة المسيح الدَّجَّال» (ص34 - 35).



ضـــابـــط الـــتـرجـــيـــح بـــين الـفـضـيـلـة المُـتـعـلِّـقـة بذات العبادة ومكانها أو زمـانـها



أحمد بوزيان
طالب في مرحلة الدُّكتوراه . تلمسان

إنَّ اللَّهَ ـ جلَّ وعلا ـ خَلَقَنا لعبادته، وإفراده بألوهيَّته فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ]، ولا يحقِّقُ العبدُ العبوديَّةَ لله ﷻ إلاَّ بالإخلاص فيها للمعبود ـ جلَّ وعلا ـ، والمتابعة للرَّسول ﷺ.

وإنَّ من تمام الإحسان فيها أن يعلَمَ العبدُ أنَّ العبادات تتفاضلُ في الأجر والثَّواب، من حيثُ وجوبُها أو استحبابُها، ومن حيثُ ما ورد في الشَّرع من الحثِّ عليها، والوصيَّة بالمواظبة على فعلها.

ولهذا كانت المعرفة بتفاضل العبادات، والوقوف على مراتبها ودرجاتها من أهمِّ الفقه المُوصِل إلى أعلى المقامات، وتفاوتُ النَّاس في هذا الباب بحسب ما أُوتوا من العلم، وما جُبلوا عليه من الصِّفات، وأكملُهم حالا أهل التَّعبُّد المطلَق الَّذين يشتَغلون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ بما هو أفضلُ فيه من غيره من القُربات.

وممَّا له صلةٌ بهذا الباب معرفةُ الفضل المُتعلِّق بماهية العبادة، أو زمانها ومكانها، وأيُّ هذه الأوجه ينبغي مراعاتُه تقديمًا وتأخيرًا عند التَّزاحم، وقد بيَّن فقهاؤنا هذا الأمرَ ونبَّهوا عليه، بل ذكروا له ضابطًا يُحكِمُه، وأصلاً يَرجِع إليه كلُّ فرْعٍ، وهو: «أنَّ الفضيلةَ المُتعلِّقةَ بذات العبادة مقدَّمةٌ على ما تعلَّق بمكانها أو زمانها».

ولبيان هذا الضَّابط أعقِدُ المباحثَ التَّالية:

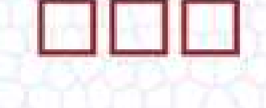
المبحث الأوَّل: في معنى هذا الضَّابط

المبحث الثَّاني: في تنصيص الفقهاء عليه.

المبحث الثَّالث: في أدلَّة إثباته.

المبحث الرَّابع: في تطبيقات الضَّابط ومستثنياته.

الخاتمة: خلاصة البحث.



المبحث الأوَّل: في معنى هذا الضَّابط

ولبيان المعنى الكلِّي لهذا الضَّابط لابُدَّ من شرح المصطلحات الَّتي تركَّبَ منها، وذلك في المطالب التَّالية:

المطلب الأوَّل ـ في معنى العبادة:

الفرع الأوَّل: لغة.

العبادة: فعالَة من التَّعبُّد وهو التَّذلُّل والخضوع، ومنه سُمِّيَ العبدُ عبدًا لذُلِّه وخُضُوعه لخالقه، ومنه الطَّريق المُعبَّد إذا كان مُذَلَّلاً موطوءًا[1].

الفرع الثَّاني: اصطلاحًا.

عُرِّفَت العبادةُ بتعاريف مُتنوِّعة من أَجْمَعِها وأَمْنَعِها تعريفُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ حيث يقول: «العبادة هي: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظَّاهرة»[2]، فيدخُلُ في ذلك قولُ القلب واللِّسان، وعملُ القلب والجوارح.

وهي تتضمَّن غايةَ الحُبِّ مع غاية

(1) انظر: «لسان العرب» لابن منظور (2776/4)، مادَّة (عبد).

(2) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (149/10).

الذُّلُّ لله - جلَّ وعلا -، «ولهذا لا يكفي أحدُهما في عبادة الله تعالى، بل يَجِبُ أن يكونَ اللهُ أحبَّ إلى العبد من كلِّ شيء، وأن يكون اللهُ أعْظَمَ عنده من كلِّ شيء، بل لا يستحقُّ المحبَّةَ والذُّلَّ التَّامَّ إلاَّ اللهُ»[3].

المطلب الثَّاني في معنى الفضيلة:

الفرع الأوَّل: لغةً.

الفضيلة: فَعيلَة من الفَضْل، وهو أصلٌ يدلُّ على الزِّيادة في الشَّيء، والفضلُ: الزِّيادةُ والخيرُ، والفضيلةُ الدَّرجة الرَّفيعةُ في الفضل[4].

الفرع الثَّاني: اصطلاحًا.

اختلفَتْ عباراتُ الأصوليِّين واصطلاحاتُهم في معنى الفضيلة، والمشهور عند الجمهور أنَّ الفضيلة:

ما نزَلَ عن درجة الاعتبار في الصِّحَّة من رُكْنيَّة أو وُجُوب، فتكون الفضيلةُ من قبيل المندوب والمستحَبِّ، إلاَّ أنَّهم قالوا: الفضيلة ما توسَّطَ أجرُه بين أعلى الدَّرجات وأدناها[5].

وعليه؛ فيمكن القولُ بأنَّ الفضيلةَ هي: ما زاد عن الواجب من الأعمال المطلوبة لا على جهة اللُّزوم، فيدخل في ذلك كلُّ ما ليس بركنٍ ولا واجبٍ ولا شرطٍ.

المطلب الثَّالث - في المعنى الكُلِّي للضَّابط:

المراد بهذا الضَّابط: أنَّ الإتيانَ بكلِّ ما يتعلَّقُ بالعبادة من الفضائل والكمالات إذا أدَّى إلى تعارُض بعضها مع بعض، وتعذَّرَ الجمعُ بينها، فإنَّنا نُراعي - في التَّقديم والتَّرجيح فيما بينها - ما كان له تعلُّقٌ بذات العبادة، ودخلٌ في ماهيَّتها، وما ليس كذلك ممَّا له ارتباطٌ بمكانها أو زمانها؛ لأنَّ ما تعلَّقَ بماهية الشَّيء أَوْلَى بالتَّقديم ممَّا هو خارجٌ عنها.

ويُستثنى من ذلك ما أدَّى إلى ترْك واجب، أو فعل مُحرَّم، أو تفويت ما هو أَفْضَلُ؛ لأنَّ مراعاةَ أصل العبادة أَوْلَى من كمالها، فإذا أدَّى تحصيلُ الفضيلة إلى إبطال أصل العبادة أو خَرْمه لم يُلتفَتْ إليه؛ لأنَّه رُوعيَ في التَّقديم للإتيان بالعبادة على أحسن وجه، فإذا عاد على أصلها بالإبطال أو الإخلال لم يُعتَبَرْ حفاظًا على ما به صحَّةُ العبادة وإجزاؤُها، ولأنَّ المصلحةَ الخاصَّةَ مُقدَّمةٌ على المصلحة العامَّة في محلِّ الخصوص، كما سيأتي بيانه في المستثنيات.

المبحث الثَّاني: في تنصيص الفقهاء عليه

اشتهر ذكرُ هذا الضَّابط عند الشَّافعيَّة والحنابلة، واختلفت تعبيراتُهم عنه اختلافًا يسيرًا في الألفاظ، وإن كان المعنى مُتَّحِدًا، فمنهم من ذَكَرَ المكانَ دون الزَّمان، ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى قلَّة التَّطبيقات المُتفرِّعَة على الزَّمان[6]، أو لذكرهم لها عند الكلام على الفروع المُتعلِّقة بالمكان، وهذا لا يعني اختصاصَها بالمكان.

ومنهم من عبَّرَ عن ذات العبادة بالحال، فقال: «إذا تعارَضَ شرَفُ المكان وشرَفُ الأحوال، فأيُّهما يُقدَّمُ؟»[7].

ومنهم من لَمَحَ معنى آخر، وهو أنَّ ذاتَ العبادة بمثابة الشِّعار المُستَقِلِّ، وزمانَها أو مكانَها بمثابة الشِّعار الجزئي غير المُستقِلِّ.

قال إمامُ الحرَمَيْن الجويني رَحِمَهُ اللهُ (ت 478 هـ): «وممَّا يتعَلَّقُ بالرَّمَل: أنَّا نُؤْثِرُ الجمعَ بين الدُّنُوِّ من الكعبة وبين الرَّمَل، ولا ننظُرُ إلى كثرة الخُطى فيمن يَبعُدُ من الكعبة، وهذا مُتَّفَقٌ عليه.

فإن عَسُرَ الرَّمَل في زَحمَة النَّاس في القرب، ولو بَعُدَ إلى الحاشية لاستمكن من الرَّمَل، فالرَّمَل في البعد أَوْلَى؛ فإنَّ القُربَ لا يبلغ معشارَ شِعَار مُستَقِلٍّ»[8].

وقال النَّووي رَحِمَهُ اللهُ (ت 676 هـ): «فرع: في قاعدة مُهمَّة صرَّح بها جماعةٌ من أصحابنا، وهي مفهومةٌ من كلام الباقين، وهي: أنَّ المُحافظةَ على فضيلة تتعلَّقُ بنفس العبادة أولى من المحافظة على فضيلة تتعلَّق بمكان العبادة»[9].

وقال ابنُ حجر الهيتَمي رَحِمَهُ اللهُ (ت 974 هـ) مُعلِّقًا على قول النَّووي رَحِمَهُ اللهُ في «المنهاج»: (فلو فات الرَّمَلُ بالقرب لزحمة فالرَّمَلُ مع بُعْد أَوْلَى)[10]: «لأنَّ ما تعلَّقَ بذات العبادة أفضلُ ممَّا تعلَّقَ بمحلِّها، كالجماعة بغير المسجد الحرام أَوْلَى من الانفراد به»[11].

وقال البُهُوتي رَحِمَهُ اللهُ (ت 1051 هـ) مُعلِّلاً ترجيحَ البُعد عن البيت مع الرَّمَل على القرب منه مع تفويت الرَّمَل: «لأنَّ المحافظةَ على فضيلةٍ تتعلَّق بنفس

---

(3) «مجموع الفتاوى» (153/10).

(4) انظر: «معجم مقاييس اللُّغة» لابن فارس (508/4) (فضل)، «الصِّحاح» للجوهري (1791/5) (فضل)، «لسان العرب» (3428/5) (فضل).

(5) انظر: «نشر الورود» للشِّنقيطي (27/1)، «شرح الكوكب المنير» لابن النَّجَّار الفتوحي (403/1).

(6) انظر: «المفاضلة في العبادات» لسليمان النَّجران (ص 740).

(7) انظر: «الشَّرح المُمتع» (269/6).

(8) «نهاية المطلب في دراية المذهب» (292/4).

(9) «المجموع شرح المُهذَّب» (197/3)، وعنه نقلها ابنُ السُّبكي في «الأشباه والنَّظائر» (214/1)، والسُّيوطي في «الأشباه والنَّظائر» (147/1)، واللَّحجي في «إيضاح القواعد الفقهيَّة لطلاب المدرسة الصولتيَّة» (ص 69).

(10) «منهاج الطَّالبين» (ص 199).

(11) «تحفة المحتاج» (91/4).

العبادة أَوْلَى من المحافظة على فضيلة تتعلَّقُ بمكانها أو زمانها»[12]، فعمَّمَ الحكمَ في المكان والزَّمان.

وقال ابنُ عثيمين رحمه الله (ت1421هـ) عند قول الحجَّاوي رحمه الله (ت 968 هـ): (وَصَدَقَةُ التَّطَوُّعِ مُسْتَحَبَّةٌ، وَفِي رَمَضان وأوقات الحاجات أفضلُ): «مسألة: إذا تعارض شرفُ المكان وشرفُ الأحوال، فأيُّهما يُقدَّم؟

الجواب: يُقدَّمُ شرفُ الأحوال؛ لأنَّ الصَّدقةَ إنَّما شُرِعَت لدفع الحاجة، فالفضلُ فيها باعتبار الحاجات يتعلَّقُ بنفس العبادة، وقد سبق قاعدةٌ مفيدةٌ في هذا الباب، وهي: أنَّ الفضلَ إذا كان يتعلَّق بذات العبادة كانت مراعاتُه أولى من الفضل الَّذي يتعلَّقُ بزمانها أو مكانها»[13].

هذا؛ وقد وجدتُ عبارةً لبعض الحنفيَّة فيها إشارةٌ لهذا الضَّابط، قال ابنُ عابدين رحمه الله (ت 1252 هـ): «تنبيه: اختار العلاَّمةُ الشَّيخُ عبدُ الرَّحمن العمادي في «منسكه» التَّمتُّعَ؛ لأنَّه أفضلُ من الإفراد، وأسهلُ من القِران، لما على القارن من المشقَّة في أداء النُّسُكَين، لما يلزمه بالجناية من الدَّمَيْن...؛ لأنَّ القارنَ والمُفردَ يبقَيان مُحرِمَيْن أكثرَ من عشرة أيَّام، وقلَّما يَقدِرُ الإنسانُ على الاحتراز فيها من هذه المحظورات...، والمُتمتِّعُ إنَّما يُحرِمُ بالحجِّ يومَ التَّرويَة من الحرم فيمكنُه الاحترازُ في ذينك اليومَيْن فيَسْلَمَ حجُّه إن شاء الله تعالى.

قال شيخُ مشايخنا الشِّهابُ أحمد المنيني في «مناسكه»: «وهو كلامٌ نفيسٌ يريد به أنَّ القِرانَ في حدِّ ذاته أفضلُ من التَّمتُّع، لكن قد يَقترنُ به ما يجعله مرجوحًا، فإذا دار الأمرُ بين أن يَقرِنَ ولا يَسْلَمَ عن المحظورات، وبين أن يَتمتَّعَ ويسلمَ عنها فالأولى التَّمتُّعُ؛ ليَسْلَمَ حجُّه، ويكون مبرورًا؛ لأنَّه وظيفةُ العمر»[14].

فقدَّمَ التَّمتُّعَ في هذه الحال مع أنَّ الأفضلَ عندهم القِران، لما في التَّمتُّع من المحافظة على ذات العبادة من حيث الكمالُ وعدم وقوع ما يُفَوِّتُ الأجر أو يُنقِصُه.

المبحث الثَّالث:
في أدلَّة إثباته

المطلب الأوَّل ـ الأدلَّة العامَّة:

1. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ أيُّ الأعمال أفضلُ؟ قال: «إيمَانٌ باللهِ وَرَسُولِه» قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: «جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ» قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»»[15].

2. وعن أبي عمرو الشَّيباني قال: حدَّثني صاحبُ هذه الدَّار ـ وأشار إلى دار عبد الله ـ قال: «سألتُ النَّبيَّ ﷺ: أيُّ الأعمالِ أَحَبُّ إلى الله؟ قال: «الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ»، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «ثُمَّ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»»، قال: حدَّثني بهنَّ، ولو استزدتُه لزادني»[16].

3. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا سأل رسولَ الله ﷺ: أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[17].

4. وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلَاةِ، أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشًى فَأَبْعَدُهُمْ، وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ حَتَّى يُصَلِّيَهَا مَعَ الإِمَامِ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي يُصَلِّيهَا ثُمَّ يَنَامُ»، وفي رواية أبي كُرَيْب: «حَتَّى يُصَلِّيَهَا مَعَ الإِمَامِ فِي جَمَاعَةٍ»[18].

ووجهُ الاستدلال من هذه النُّصوص وأمثالها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ بيَّن أنَّ الأعمالَ مُتفاضلَةٌ في الأجر والثَّواب، وذلك راجعٌ إمَّا لفضل العبادة في نفسها، وجوبًا واستحبابًا، أو زمانًا ومكانًا، أو لحال المُتعبِّد، كحال الاجتماع والانفراد، أو حال الصِّحَّة والمرض.

5. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...٣٦﴾ [التوبة].

6. وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ... ١٨٥﴾ [البقرة].

7. وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾ [الدخان].

8. وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ٣﴾ [القدر].

9. وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ»، فقالوا: يا رسولَ الله! ولا الجهادُ في سبيل الله؟ فقال رسولُ الله

---

(12) «كشَّاف القناع عن متن الإقناع» (6/251).

(13) «الشَّرح المُمتع» (6/269)، وانظر: (4/153، 278، 311، 312) و(7/244، 245، 265، 266، 355).

(14) «ردُّ المحتار على الدُّرِّ المختار» لابن عابدين (3/553)

(15) أخرجه البخاري (1519).

(16) أخرجه البخاري (527)، ومسلم (85).

(17) أخرجه البخاري (28).

(18) أخرجه البخاري (651)، ومسلم (662)، واللَّفظ له.

ﷺ: «وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»[19].

10. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أَحَبُّ البِلاَدِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ البِلاَدِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا»[20].

11. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلاَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ»[21].

ووجه الاستدلال من هذه النُّصوص أنَّها مُصرِّحَةٌ بتفضيل بعضِ الأزمنة والأمكنة على بعض، لشرفها في نفسها عند الله ـ جلَّ وعلا ـ، وما يَحصُلُ فيها من الطَّاعاتِ والقُرُبَات، أجلُّ ممَّا يكونُ في غيرِها لما لها من الفضل[22].

المطلب الثَّاني ـ الأدلَّةُ الخاصَّة:

1. عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لاَ صَلاَةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلاَ وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ»[23].

ففي الحديث إشارةٌ إلى أنَّ أداءَ الصَّلاة في أوَّلِ وَقتِهَا، أو مع الجماعة مُمتَنِعٌ إذا كان يُفضي بصاحبه إلى الإخلال بالخشوع والطُّمأنينَة، والصَّلاةُ في أوَّلِ الوقت أو مع الجماعة ممَّا له تعلُّقٌ بزمان العبادة أو مكانها، ومراعاةُ الخشوع والطُّمأنينة ممَّا له تَعلُّقٌ بذات العبادة، فكان ما له تعلُّقٌ بذات العبادة مُقدَّمًا على ما له تَعلُّقٌ بزمانها أو مكانها.

2. عن زيد بن ثابت: «أَنَّ رسولَ الله ﷺ اتَّخَذَ حجرةً ـ قال: حسبتُ أنَّه قال: من حَصِير ـ في رمضان فصلَّى فيها ليالي، فصلَّى بصلاته ناسٌ من أصحابه، فلمَّا عَلِمَ بهم جعل يَقعُدُ، فخرج إليهم، فقال: «قَدْ عَرَفْتُ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ صَنِيعِكُمْ، فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ؛ فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلاَةِ صَلاَةُ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلاَّ المَكْتُوبَةَ»[24]، وفي لفظ: «صَلاَةُ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهِ فِي مَسْجِدِي هَذَا إِلاَّ المَكْتُوبَةَ»[25].

ووجهُ الاستدلال أنَّ النَّبيَّ ﷺ فضَّلَ صلاةَ النَّفل في البيت على صلاتها في المسجد؛ لأنَّ من حكمها أنَّها: «سَبَبٌ لتمام الخشوع والإخلاص، وأَبْعَدُ من الرِّياء والإعجاب وشبههما»[26]، فراعى الفضلَ المُتعلِّقَ بذات العبادة.

3. أنَّ أصلَ العبادة هو المقصود، وأمَّا الزَّمانُ والمكان، فهما ظرفٌ لتحصيلها، والشَّارع قد يُرخِّص في الزَّمان والمكان ما لا يُرخِّصه في أصل العبادة[27].

ويشهد لهذا المعنى: تفريقُ العلماء في باب النَّهي بين المنهيِّ عنه لذاته، والمنهيِّ عنه لأمرٍ خارج، وما يترتَّبُ على ذلك من الحُكم بالصِّحَّة أو الفساد[28].

4. أنَّ ما تعَلَّق بذات العبادة فيه تتميمٌ وتكميلٌ لحقيقة العبادة وماهيتها، وهذا تكميلٌ للأصل، وما تعلَّقَ بمكانها أو زمانها هو من تحصيلها في الظَّرف والمَحَلِّ المطلوب، أو المُرَغَّب إيقاعُها فيه، وهذا تكميلٌ للفرع في الجملة، وما كان مُكمِّلاً للأصل مُقدَّمٌ على ما كان مُكمِّلاً للفرع.

5. أنَّ المصلحةَ العامَّةَ مُقدَّمَةٌ على المصلحة الخاصَّة في غير مَحلِّ الخصوص[29]، ومراعاةُ الفضيلةِ المُتعلِّقَة بذات العبادة من قبيل المصلحةِ العامَّةِ فيها، ولَحظُ الفضيلة المُتعلِّقَة بالزَّمان أو المكان من قبيل المصلحةِ الخاصَّة فيها.

المبحث الرَّابع: في تطبيقات الضَّابط ومستثنياته

المطلب الأوَّل ـ تطبيقات الضَّابط[30]:

الفرع الأوَّل: في الصَّلاة.

المسألة الأولى: ترتيب الصُّفوف.

ذكر الفقهاء أنَّ الَّذي يَلِي الإمامَ الرِّجالُ، ثمَّ الصِّبيان، ثمَّ النِّساء، «فإنْ مَنَعَ منه مانعٌ بحيث لو جُمِعَ الصِّبيانُ بعضُهم إلى بعض لحصلَ بذلك لعبٌ وتشويشٌ، فحينئذٍ لا نجمعُ الصِّبيانَ بعضَهم إلى بعض؛ وذلك لأنَّ الفَضْلَ المتعلِّقَ بذات العبادة أولى بالمراعاة من الفَضْلِ المتعلِّق بمكانها»[31]، وإنَّما: «نجعل بين كُلِّ صبيَّيْنِ بالغًا من الرِّجال فَيَصفُّ رَجُلٌ بالغٌ يليه صَبيٌّ، ثمَّ رَجُلٌ ثمَّ صبيٌّ، ثمَّ رَجُلٌ ثمَّ صبيٌّ؛ لأنَّ ذلك أضبطُ وأبعدُ عن التَّشويش، وهذا وإنْ كان يستلزمُ أنْ يتأخَّرَ بعضُ الرِّجالِ إلى الصَّفِّ الثَّاني أو الثَّالث حسَبَ كثرةِ الصِّبيان؛ فإنَّه يحصُلُ به فائدةٌ، وهي

(19) البخاري (969)، والتِّرمذي (757) واللَّفظ له.
(20) أخرجه مسلم (671).
(21) أخرجه البخاري (1190)، ومسلم (1394).
(22) انظر: «زاد المعاد» لابن القيِّم (53/1)، وقد بيَّن رحمه الله أنَّ الأشياءَ قد تتفاضل في نفسها، خلافًا لمن زَعَمَ أنَّ تفاضُلَها راجعٌ لأمرٍ خارجيٍّ فحسْبُ.
(23) أخرجه مسلم (560).
(24) أخرجه البخاري (731).
(25) أخرجه أبو داود (1044)، وصحَّحه العلاَّمةُ الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (959).
(26) «المجموع» للنَّووي (197/3)، «الأشباه والنَّظائر» لابن السُّبكي (215/1).
(27) انظر: «المفاضلة في العبادات» (ص740).
(28) انظر: «البحر المحيط» للزَّركشي (446/2).
(29) انظر: «شرح المنظومة السَّعديَّة في القواعد الفقهيَّة» للشَّثري (ص75).
(30) معظم التَّطبيقات انتقيتها من كتاب: «الشَّرح الممتع على زاد المستقنع» لابن عثيمين لكثرة مراعاته لهذه القاعدة.
(31) «الشَّرح الممتع» (278/4).



الخشوعُ في الصَّلاةِ وعدمُ التَّشويش»[32].

المسألة الثَّانية: صلاةُ الجماعة في غير المسجد.

إذا دار الأمرُ بين أن يُصلِّي المرءُ الصَّلاةَ في جماعة في غير المسجد، أو يُصلِّي في المسجدِ مُنفردًا، فصلاتُه مع الجماعة في غير المسجد أفْضَلُ من صلاته مُنفردًا في المسجد؛ لأنَّ الجماعةَ فضيلةٌ مُتعلِّقةٌ بذات الصَّلاة، والمسجدَ فضيلةٌ مُتعلِّقةٌ بمكانها»[33].

المسألة الثَّالثة: الصَّلاةُ في الصَّفِّ الأوَّل، والدُّنوُّ من الإمام.

أ ـ إذا كانت الصَّلاةُ في الصَّفِّ الأوَّل، أو الدُّنوُّ من الإمام سببًا في قلَّةِ الخشوع أو انعدامه، لسبب عارض ككثرة الزَّخارف في مُقدِّمَة المسجد، أو وجود تشويش، أو بجانبه رجلٌ به رائحةٌ كريهةٌ، فالصَّلاةُ في الصَّفِّ المُتأخِّر ـ حينئذ ـ أفْضَلُ لما في ذلك من المحافظة على الخشوع، وهو مُتعلِّقٌ بذات العبادة، وإن كان في ذلك تفويتٌ لفضل التَّقدُّم في الصَّفِّ المُتعلِّق بمكان العبادة»[34].

ب ـ إذا كان تحصيلُ مكانٍ في الصَّفِّ الأوَّل بسدِّ فُرجة مفوِّتًا للرَّكعة الأخيرة، فتحصيلُ الرَّكعة أوْلَى لتعلُّقه بذات العبادة[35].

جـ ـ أنَّ الواقفَ في الصَّفِّ الثَّاني بقرب الإمام يشاهد أفعالَه، ويسمعُ قراءتَه، ويقفُو أثرَه على الوجه المشروع، أفضلُ حالاً من الواقف في الصَّفِّ الأوَّل بعيدًا عنه، لا يعلم شيئًا من ذلك، وإنَّما يقتدي بصوت المبلِّغ[36].

المسألة الرَّابعة: الصَّلاةُ في المسجد القريب.

إذا كانت الصَّلاةُ في المسجد البعيد أكثرَ خشوعًا وطمأنينةً، لحُسن تلاوة الإمام، وطمأنينته في الصَّلاة أكثرَ من إمام المسجد القريب، أو كان إمام المسجد القريب كثيرَ اللَّحن في القراءة، لا يتأنَّى في الصَّلاة، فالصَّلاةُ في المسجد البعيد أولى[37].

المسألة الخامسة: الصَّلاةُ خلف المقام.

يُشرَعُ لمن طاف أن يُصلِّيَ ركعَتيْن خلفَ المقام، وكلَّما قَرُبَ من المقام كان أفضلَ، فإذا دار الأمر بين أن يصلِّيَ قريبًا من المقام مع كثرة حركته لردِّ المارِّين بين يَدَيْه أو مع التَّشويش فيمن يأتي ويذهب، وبين أن يُصلِّي بعيدًا عن المقام أو في المسعى كان الأفضل الصَّلاة بعيدًا عن المقام حفاظًا على الطُّمأنينة والخشوع[38].

المسألة السَّادسة: صلاةُ الحاقن أو مَنْ بحضرته طعام.

إذا كان المُصلِّي حاقنًا، أو حضَرَه طعامٌ، بحيث ينشغلُ عن أداء الصَّلاة على وجهِ التَّمام والكمال، ويفوته كثيرٌ من الخشوع فيها، قُدِّمَ قضاءُ الحاجة أو تناول الطَّعام على صلاة الجماعة؛ لأنَّ ذلك يقتضي: «انشغالَ القلبِ عن الصَّلاة، وهذا خَلَلٌ في نَفْسِ العبادة، وتَرْكُ الجماعة خَلَلٌ في أمْرٍ خارج عن العبادة؛ لأنَّ الجماعةَ واجبةٌ للصَّلاة، والمحافظةَ على ما يتعلَّقُ بذات العبادة أولى مِن المحافظةِ على ما يتعلَّقُ بأمْرٍ خارج عنها»[39].

المسألة السَّابعة: صلاة النَّافلة في البيت.

صلاة الرَّجل للنَّفل في بيته أفْضَلُ منها في المسجد؛ لأنَّ فعلَها في البيت فضيلةٌ تتعَلَّقُ بذات العبادة، وسببٌ لتمام الخشوع والإخلاص، وأبعدُ من الرِّياء والعُجْبِ، والصَّلاةُ في المسجد أكثرُ عُرضَةً لتلك المحذورات من الصَّلاة في البيت[40].

المسألة الثَّامنة: الصَّلاةُ داخل الكعبة.

إذا كانت الصَّلاةُ داخلَ الكعبةِ سببًا في تفويت الجماعة خارجَ الكعبة، فالصَّلاةُ خارجَها أفضَلُ من المحافظة على الصَّلاة في الكعبة؛ لأنَّ الجماعةَ فضيلةٌ تتعَلَّقُ بنفس الصَّلاة، والكعبةُ فضيلةٌ تتعَلَّقُ بمَوضعِها[41].

الفرع الثَّاني: في الزَّكاة.

المسألة الأولى: الصَّدقةُ في الزَّمان والمكان الفاضل.

إذا دار الأمرُ بين الإنفاق في زمنٍ فاضلٍ كرمضان، أو مكانٍ فاضلٍ كمكَّةَ، وبين الإنفاق على المحتاجين في غيرهما، فالإنفاقُ في غيرهما أفضلُ؛ «لأنَّ الصَّدقةَ إنَّما شُرِعَتْ لدفع الحاجة، فالفضل فيها باعتبار الحاجات يتعلَّقُ بنفس العبادة»[42]، فيُقدَّمُ شرَفُ الحال على شرف الزَّمان والمكان.

المسألة الثَّانية: تأجيلُ إخراج الزَّكاة.

يجوزُ تأجيلُ إخراج الزَّكاة عن أوَّلِ وقتها إذا كان يُرجى قُدومُ قومٍ أصْلَحَ من غيرهم، وأكثرَ حاجَةً ممَّنْ يكون موجودًا حالَ وجوبها؛ لأنَّ المبادرةَ مُتعلِّقةٌ بالزَّمان، وانتظارَ المحتاج مُتعلِّقٌ بذات الزَّكاة؛ ما لم يُؤدِّ ذلك إلى تأخيرها تأخيرًا فاحشًا.

(32) «الشَّرح الممتع» (279/4).
(33) انظر: «المجموع» للنَّووي (197/3).
(34) انظر: «الفتاوى الكبرى الفقهيَّة» لابن حجر الهيتمي (181/1)، «الشَّرح الممتع» (245/7).
(35) انظر: «المفاضلة في العبادات» (ص742).
(36) انظر: «أسنى المطالب» للأنصاري (234/1).
(37) «الشَّرح الممتع» (153/4).
(38) «الشَّرح الممتع» (265/7، 266).
(39) «الشَّرح الممتع» (311/4، 312).
(40) انظر: «المجموع» للنَّووي (198/3).
(41) انظر: «المجموع» للنَّووي (197/3).
(42) «الشَّرح الممتع» (269/6).

الفرع الثَّالث: في الحجِّ.

المسألة الأولى: القرب من الكعبة حال الطَّواف.

إذا كان قرب الحاجِّ أو المعتمِر من البيت حال الطَّواف مانعًا من تحقيق الرَّمَل في الأشواط الثَّلاثة، فالبُعْدُ عن البيت مع الإتيان بالرَّمَل أولى؛ لأنَّ الرَّمَل مُتعلِّقٌ بماهية الطَّواف، والقرب من البيت مُتعلِّقٌ بمكانه.

المسألة الثَّانية: رميُ الجَمَراتِ ليلاً.

إذا كان لا يتيَسَّر للإنسان الرَّميُ في النَّهار، فله أن يرمِيَ في اللَّيل، وإذا تيسَّرَ لكن مع الأذى والمشقَّة، وفي اللَّيلِ يكونُ أيْسَرَ له وأكثَرَ طُمأنينَةً؛ فإنَّه يرمي في اللَّيل؛ لأنَّ ذلك مُتعلِّقٌ بذات الرَّمي، وكونه بالنَّهار مُتعلِّقٌ بزمانه.

المطلب الثَّاني: مُستَثنيَاتُه.

المسألة الأولى: المحافظة على الصَّلاة في المسجد[43].

إذا دار الأمر بين الصَّلاة في المسجد مع قلَّة الجماعة، والصَّلاة في غيره مع كثرَتها، قُدِّمت الصَّلاةُ في المسجد؛ لأنَّ الشَّارعَ نصَّ على صلاة الجماعة، واعتنى بإظهار هذه الشَّعيرة، ومراعاةُ الكثرة في غير المسجد يُؤدِّي إلى إضاعتها فيه.

المسألة الثَّانية: الصَّلاةُ في المسجد القريب[44].

إذا كانت الصَّلاةُ في المسجد البعيد مراعاةً لكثرة الجماعة سببًا في تعطيل المسجد القريب، فإقامة الصَّلاة في المسجد القريب أفضلُ؛ إبقاءً على بيت

(43) «المنثور في القواعد» (54/3)، وعنه السُّيوطي في «الأشباه والنَّظائر» (147/1)، واللَّحجي في «إيضاح القواعد الفقهيَّة لطُلَّاب المدرسة الصولتية» (ص70).

(44) المرجع نفسه.

من بيوت الله.

المسألة الثَّالثة: صلاة النَّفل.

سبق بيانُ أنَّ صلاةَ النَّفل في البيت أفضلُ منها في المسجد، ويُستثنى من ذلك أن يكونَ بيتُ الرَّجل في المسجد، فالأفضل ـ حينئذ ـ الصَّلاةُ في المسجد لاجتماع شرف الحال وشرف المكان.

قال ابنُ السُّبكي رحمه الله: «وفيما وجدتُه منقولاً عن القاضي أبي الطَّيِّب: استثناء مَن هو ساكنٌ في المسجد، قال: فصلاته في المسجد أولى.

قلت: إن كان يريد مَنْ بَيتُه قطعةٌ من المسجد؛ فذاك اجتمعَ فيه الأمران، ولا شكَّ أنَّ صلاةَ هذا في هذا البيت أولى.

وإن أراد مَنْ له بابٌ إلى المسجد، فأقول: الَّذي يظهر أنَّه متى تساوى المسجدُ والبيتُ في البعد عن الرِّياء ـ ويظهر هذا كثيرًا فيمن له باب إلى المسجد ـ فإنَّه يخرج ليلاً إليه؛ بحيث لا يُبصِرُه أحدٌ.

ومن عندَهُ مسجدٌ مهجورٌ لا يراه فيه أحد ـ وربَّما كان مفتاحه معه ـ فالمسجد أفضَلُ»[45].

المسألة الرَّابعة: الرَّمَل في صفِّ النِّساء.

الحرص على الرَّمَلِ في الطَّوافِ أَوْلَى من القُرْبِ من الكعبة ـ كما سبق ذكره ـ، فإن كان لا يستطيع الحاجُّ أو المُعتَمِرُ الإتيانَ به إلاَّ في صفِّ النِّساء، فترْكُ الرَّمَل أجْدَرُ به؛ لأنَّه يُنسَبُ ـ حينئذ ـ إلى تَرْك شعارٍ كُلِّيٍّ في الدِّين، وهو ترك الاختلاط، ولا يقع منه الشِّعارُ الجزئي وهو الرَّمَل مَوقِعًا[46].

□□□

(45) «الأشباه والنَّظائر» (215/1).

(46) انظر: «نهاية المطلب في دراية المذهب» (292/4).

الخاتمة

من خلال ما سبق بيانُه في مضامين البحث يتجلَّى لنا منزلةُ العبادة في الإسلام، وأهمِّيَّةُ العلم بمراتِبِها، ودرجات تفاوتها، وما يترتَّبُ على ذلك كلِّه من الأجر والثَّواب، وما يتحقَّقُ من المصالح العاجلة والآجلة.

كما يتبيَّنُ لنا أنَّ أحظَى النَّاس بفضل الله ورحمته، أعلمُهم بفضائل العبادات، وأحرَصُهُم على تحقيقها كلِّها، وهؤلاء هم أهلُ التَّعبُّدِ المُطلَق الَّذين ليس لهم غَرَضٌ في تَعَبُّد بعينه يُؤثِرُونَه على غيره، بل غَرَضُهم تَتَبُّعُ مرضاة الله تعالى أيْنَما كانت، وحيثُما حَلَّتْ، فمدارُ تعبُّدهم عليها، ينتقلون في مدارج العبوديَّة، كلَّما رُفِعَتْ لهم منزلةٌ عملوا على السَّيْر إليها والاشتغال بها حتَّى تلوح لهم منزلةٌ أخرى، لا تَملِكُهم الرُّسُوم، ولا تُقيِّدُهم القيود، فجميع أعمالهم على مراد الله ـ ولو كانت راحة نفوسهم ولذَّتها في سواها ـ فهؤلاء هم المتحقِّقون بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًّا، القائمون بهما صدقًا[47].

□□□

(47) انظر: «مدارج السَّالكين» لابن القيِّم (89/1-90).



النَّسب العلمي

توفيق عمروني

إنَّ منَ الأسباب الَّتي بها تنهضُ الحركةُ العلميَّةُ وتتلاحقُ عبر الأجيال والحقب الزَّمنيَّةِ المتعاقبةِ، هو التَّواصل الموجود بينَ أهل العلم مِن عُلماء وطلَّابِ علم، فكانت الرِّحلةُ في الطَّلب دأبَهم وديدنَهم وطريقًا من طُرق التَّعارف والتَّواصل، وللإبقاءِ على هذه السِّلسلة مترابطة الحلقَات والعُرى لا يفصمُها فاصمٌ ولا يقطعُها قاطعٌ؛ شُرعَت الرِّحلةُ في طلب العلم زَمَنَ الأنبياءِ والرُّسلِ.

فقد حكى القرآنُ الكريمُ رحلةَ كليم الله موسى عليه السلام إلى الخَضِر عليه السلام لملاقاته وأخذِ العلم عنه؛ كما أُثِرَ عن كثيرٍ من السَّلف رضي الله عنهم أخبارُ رَحلاتِهم في الطَّلب ولقاءِ المشايخ والأكابر بدءًا بالصَّحابة رضي الله عنهم؛ كخَبر جابر بن عبد الله رضي الله عنهما المشهور في رحلته مسيرةَ شهرٍ إلى الشَّام لسماع حديث واحد بلغه عن أحدهم يرويه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ وقد تتابعَ العلماءُ على المضي في هذه السُّنَّة الحميدةِ والسِّيرةِ الرَّشيدة، إلاَّ أنَّ علماءَ الحديث أخذوا بالنَّصيب الأوفرِ وحازوا قصبَ السَّبق في ميدان الرِّحلة في طلب الحديث، فكانَ شرفُ المحدِّث يزيد سموًّا كلَّما كانَت رحلتُه أَطْوَلَ وأسفارُهُ أَبْعَدَ، ولقاءاتُه بالمشايخ والأعلام أَكْثَرَ، حتَّى عُدَّ لبعضهم ثلاثةُ آلافِ شيخٍ كالحافظ ابن النَّجار البغدَادي، ودامَت رحلتُه سبعًا وعشرين سنةً، ومنهُم مَن أخذَت رحلتُه خمسًا وأربعين سنةً من عُمره كالإمام أبي عبدِ الله بن مندَه، يُفارقون فيها الأوطانَ، ويتركونَ الأهلَ والولدَان، مع ما يُلاقيه هؤلاء الرَّحَّالون في أَسفَارهم مِن مشاقَّ ومتَاعب وشدَائد، بعضُها دوِّن وحفظته كتبُ التَّاريخ، وبعضُها مضَى دون ذكر ولا تَدوين، ولا يعود أحدُهم إلى موطنه حتَّى يقضي

وطرَه، ويُشبع نهمَتَه، فيرجع وهو يحملُ علمًا وأدبًا جمًّا، وهذا لإدراكهم حقيقةً مهمَّةً وهي أنَّ مُلاقاةَ العُلماء هو السَّبيلُ الأوحَد والباب الأمثل لأخذ العلم؛ ولهذا قالوا: «إنَّ العلمَ كانَ في صُدور الرِّجال، ثمَّ انتقَل إلى الكُتب، وصارَت مفاتحُه بأيدي الرِّجال»[1].

وقَد عقَد ابنُ خلدُون في «تاريخه» بابًا ترجَم له بقَوله: «في أنَّ الرِّحلةَ في طَلب العُلوم ولقَاء المشيَخَة مزيدُ كمالٍ في التَّعلُّم»؛ ثمَّ قَال: «والسَّبَب في ذلكَ أنَّ البشر يأخذُون معارفَهُم وأخلاقَهُم، وما ينتَحلون به منَ المذَاهب والفضَائل، تارةً علمًا وتعليمًا وإلقَاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمُباشَرة.

إلاَّ أنَّ حصولَ الملَكَات عن المباشَرة والتَّلقين أشَدُّ استحكَامًا وأقوَى رسُوخًا، فعَلى قَدْر كثرَة الشُّيوخ يكونُ حصولُ الملَكات ورسُوخُها».

فمِن أعظَم فوائد الرِّحلة في الطَّلب هي حصولُ اللِّقاء المُباشر معَ العَالم واكتحال العَين برُؤيته، فيُطالعُ الطَّالبُ في شيخه النَّموذجَ الصَّادقَ الَّذي يُترجمُ العلمَ الَّذي يحويه صدرُه إلى أعمالٍ وأقـوالٍ وآدابٍ وتصـرُّفات، فيشاهدُ صـورًا من العبادة والزُّهـد والأخـلاق، وأشكالا منَ الهَدي والسَّمت والـدَّلِّ؛ تنطَبع في النَّفس، ويكون لها أعظمُ الأثر في مسيرة الطَّالب العلميَّة والعمليَّة، ذلكَ لأنَّ العلمَ النَّافع يدعو إلى العَمل الصَّالح، ولا يكونُ نافعًا إلاَّ إذَا ظهَرت آثارُه على صاحبه، فيجدُ الطَّالبُ ضالَّتَه الفكريَّةَ والعقليَّةَ والرُّوحيَّةَ والأدبيَّةَ بهذه المباشَرة، ويستَفيد تنمية ملكته العلميَّة ورسـوخَـها كـمَا أشـار إلى ذَلـكَ ابنُ خلدون؛ ورَووا أنَّه «كانَ يجتَمعُ في مجلس أحمَد زُهَاء خمسة آلاف أو يزيدون نحو خمسمائة يكتُبون، والباقُون يتَعلَّمون منهُ حُسن الأدَب والسَّمت»[2].

وأمـرٌ آخـرُ وهـو أن يصلَ الطَّالبُ نفسَه بسلسلة العلم المبارَكَة الَّتي تنتَهي به إلى مبلِّغ الوحي نبيِّ الله ﷺ، فتشعُر نفسُه بالانتماء إلى حظيرة العلم وأهله، فتزكو أخلاقُه، وتَحسُنُ آدابُه، ويجمُل هديُه؛ وهـذا مـا يُحـرمُ منه المتَّصلُ بالعلم بحبل غير متين؛ إمَّا عن طريق الكتاب وحـدَه، أو عن طريق الوسائل الحديثة كالمواقع والمنتديات الإلكترونيَّة في الشَّبكة العنكبوتيَّة، ونحوها، فهذه طرقٌ تُوصلُ إلى كثير منَ المعرفَة، لكنَّ التَّتلمذَ عليها وتنصيبَها في محلِّ الشَّيخ المعلِّم، والاقتصارَ عليها وحدَهـا، هو ضربٌ من ضُروب الخَلل الَّذي يُصدِّع شخصيَّةَ الطَّالب، ويهزُّ فكرَه، ويُهدر عليه وقتَه، ويجعَلُ منه متعلِّمًا هزيلاً، لا يحقِّق مقصدًا، ولا يبلغ مأربًا، ولا ينشَأُ منه عالمًا محـرِّرًا، ذلك لأنَّ هذا العلم روحٌ به تتمُّ الحياةُ، فلا تنقله الآلةُ إلى الرُّوح، وإنَّما ينتقل منَ الرُّوح إلى الرُّوح، لتكمُل بـه النَّـفسُ، فيتلقَّى العلمَ من أفواه المشايخ حسًّا ومشاهدةً ومزاحمةً بالرُّكب بـينَ أيديهم، فيكون قَد أخذَ العلمَ بأطرافه، فيعرف الشَّيخَ، ويعرفه الشَّيخُ ويتمُّ بينَهما التَّناسُب؛ فليس مَنْ أخذ العلمَ عن الإنسان الحيِّ النَّاطق كمَن أخذه عن الجمَاد ولو كان ناطقًا.

أمَّـا من لم يُعرْ هذا الأصلَ العظيمَ اهتمامًا، فقَد نادى على نفسه بالخيبة والهوان، وسيُحيط به النَّدمُ عند فَوات الأوان؛ وقد قالوا قديمًا: «مَن دخَل في العلم وحدَه؛ خرجَ وحده»؛ قال الشَّيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ: «أي: مَن دخل في طلب العلم بلا شيخ؛ خرجَ منهُ بلا علم؛ إذ العلمُ صَنْعَةٌ، وكلُّ صنعَة تحتَاج إلى صانعٍ، فَلا بدَّ إذًا لتَعلُّمها من معلِّمها الحاذق»[3].

وعنـدمـا يبلغ الـرُّشـدَ يجد نفسَه موتورَ النَّسب العلميِّ، ويُعاب على عرائه من المشيخَة، ولهذا لمَّا كتب أحمدُ ابنُ نصر الدَّاودي المسيلي (402هـ) مُنكرًا علـى معاصريه مـن علمـاء القـيروان سُكناهم في مملكَة بني عُبَيْد، وبقاءَهم بين أظهرهم؛ كان جوابُهم عليه أن قالوا له: «اسكُت لا شيخَ لك»؛ لأنَّه لم يَتفقَّهْ في أكْثر علمه عند إمَام مشهور، وإنَّما وصَل إلى ما وصل بإدراكه، ويُشيرون أنَّه لو كانَ له شيخٌ يفقِّهه حقيقةَ الفقه، لعَلم أنَّ بقاءَهُم مع مَن هناكَ من عامَّة المسلمين تثبيتٌ لهم على الإسلام، وبقيَّةٌ صالحَةٌ للإيمَان، وأنَّه لو خرجَ العُلماء من إفريقيَّة لتشرَّق[4] مَن بقيَ فيها منَ العامَّة الألـف والآلاف، فرجَّحُوا خيرَ الشَّرَّين[5].

وفي كتاب «الصِّلة» لابـن بشكوال (250/1) عن صالح ابن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ قال: «لقَد التفَت المعتَصمُ إلى أبي فقَال له: كلِّم ابنَ دُؤاد؛ فأعرَضَ عنهُ أبي بوجهه، وقَال: كيفَ أكَلِّمُ مَن لم أرَه على باب عالم قَطُّ».

---

(1) «الموافقات» (140/1).

(2) «السِّير» (316/11)؛ وفيه أيضًا: أنَّ أبا بكر ابن المُطوِّعي كان يقول: اختلفتُ إلى أبي عبد الله ثنتي عشرة سنة، وهويقرأ «المسند» على أولاده، فما كتبت عنه حديثا واحدا، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه.

(3) «حلية طالب العلم» (ص159).

(4) أي صار على عقيدة المشارقة، ويومها كانت عقيدةَ العُبَيْديِّين الباطنيِّين.

(5) «ترتيب المدارك» (103/7)، وقال الشاطبي: «وبهذا الوجه وقَع التَّشنيع على ابن حزم الظَّاهري، وأنَّه لم يُلازم الأخذَ عن الشُّيوخ، ولا تأدَّب بآدابهم، وبضدِّ ذلكَ كانَ العُلماءُ الرَّاسخون كالأئمَّة الأربعَة وأشباههم» [«الموافقات» (144/1)]

فهذا هو المَهيعُ السَّائد والمنهجُ المعهود عند أهل العلم المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين، فلم يكونوا يتصوَّرون طالبَ علم عديمَ الصِّلة بالمشايخ والعلماء، أو فاقدَ العلاقة بالأساتذة والمعلِّمين، بل منَ الوصف اللاَّزم للطَّالب اشتهارُه بطَرْق أبوابهم للزِّيارة والاستفادَة، والجلوس بينَ أيديهم للتَّعلُّم والاستزادة، ورعايةُ حُرمتهم في الغيبَ والشَّهادة، والتَّلطُّف عند مخاطبتهم، وحُسن الاستماع منهم، مع الأخذ بمجامع الأدب بحضرتهم وفي مجالسهم؛ فإنَّ العلمَ رحمٌ بينَ أهله، ولا بدَّ من وصل هذه الرَّحم، ودَفْع أسباب قطعها، وبقَدر هذا الوصل يكون الفلاحُ والنَّجاحُ، وبقَدْر ترك هذا الوِصال يكونُ الفشلُ والإخفَاق.

فعلى طالب العلم النَّبيه أن يكون على صلة وثيقة بأهل العلم، لينتَظمَ في سلكهم ويَلحقَ برَبْعهم، وليَرفع الجهلَ والجهالةَ عن نفسه، فبالعلم يزولُ الجهلُ عنه، وبقُربه من أهل العلم ترتَفع جهالةُ عينه وحاله، فيَشتَهر عندَهُم بالطَّلب وتَثبُت عدالتُه واستقامتُه؛ فممَّا كانَ مقرَّرًا عند المحدِّثين قديمًا أنَّهم لا يقبلُون حديثَ الرَّاوي حتَّى تُعلَم عينُه بأن يرويَ عنه على الأقلِّ اثنان من الرُّواة الثِّقات المشهورين، وتَنكشفَ حالُه من حيثُ العدالةُ والتَّجريحُ؛ لهذا كانَ من المستَهجن القَبيح أن ينصِّبَ الرَّجلُ نفسَه معلِّمًا، وهو مجهول النَّسب العلمي، ولا يَعرفُ عنه أهلُ العلم من أهل بلده القريبين منه - فضلاً عن غيرهم - شيئًا، لا عينَه وصورتَه، ولا حالَه وعدالتَه.

وبهذا الأسلوب السَّلفي الوجيه يُقطَع الطَّريقُ على المتطفِّلين على أهل العلم، والمنتَسبين إليهم بغير حقٍّ، ممَّن امتلأت بهم الدُّنيا هذه الأيَّام سواءً في عالَم الحقيقَة أو في عالَم الافتراض (عالم الأنترنت)، وصاروا يشَكِّلون عقبةً كؤودًا، يحولون بين النَّاس وبينَ العلماء، ويصرفون وجوهَ العامَّة إلى أنصاف العلماء، ويثيرون فتنًا هوجَاء، ويُشيعُون فهومًا عوجَاء، ويُصدرون أحكامًا وفتاوى عرجاء، والَّذي غرَّهم سهولةُ الوصُول إلى وسَائل العلم، ويُسر تناولها كوسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمشاهدة، والشَّبكَة العَنكبوتيَّة ونحوها، فهذه الوسائل كثيراً ما تصنِّف أشخاصًا تحت مسمَّى عالم، ومفت، وداعية، وباحث شرعي ونحوها من المسمَّيات، وهو غير مؤهَّل لشيء من ذلك؛ لهذا انتبه سلفنا قديمًا إلى أنَّ الكتابَ - مع كونه وسيلةً خالصةً للنَّفع - غيرَ أنَّه قد يُسبِّبُ هذا التَّطفُّلَ، قال الأوزاعي رحمه الله: «كانَ هذا العلمُ كريمًا يتَلاقاه الرِّجالُ بينَهم، فلَمَّا دخَل في الكُتب، دخَل فيه غيرُ أهله»[6]، فكيف اليوم بهذه الوسائل الَّتي ليَست متمحِّضةً للنَّفع والخير، بل هي صارفةٌ عن كثير من الحقائق، وملهيةٌ عن كثير من الدَّقائق، وتجمع إلى جنب الخير الَّذي فيها كثيرًا منَ الشُّرور والآفات، فإنَّها تُخرجُ الصَّغير في صورة الكبير، وتصوِّر الحقير في هيئة العظيم، والنَّاقص في صورة الكامل.

فالشَّأن الَّذي ينبغي أن يُعلَمَ أنَّ مُستَودعَ العلم صُدورُ الرِّجال، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت]، لهذا عندما يحينُ وقت رفع العلم منَ الأرض، فإنَّ رفعَه لا يكون بإتلاف هذه الوسائل وإزالتها، بل بقَبض حمَلَة العلم وهُم العلماء، كما جاء في الحديث الصَّحيح: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ»[7].

فإذا كنَّا نرومُ أن ترسُو سفينتُنا على شاطئ الأمان، ونسلمَ من الفتن وأسباب الهوان؛ فعلينا أن نعود بالعمليَّة التَّعليميَّة إلى سكَّتها الَّتي عهدها أهلُ العلم وتوارثها الخلف عن السَّلف وألفُوها جيلا بعد جيل، وهو تسلُّم العلم من أفواه العُلماء والمشايخ، وأن نُبقي هذه السُّنَّة الحميدَة، والطَّريقة السَّلفيَّة الرَّشيدة، حفاظًا على شريعتنا الغرَّاء، وصيانةً لجناب سنَّة نبيِّنا ﷺ المحجَّة البيضاء من كلِّ سوء وفتنة عمياء.

(6) «تاريخ ابن عساكر» (35/188).

(7) البخاري (100)، ومسلم (2673).

فإذا كنَّا نرومُ أن ترسُو سفينتُنا على شاطئ الأمان، ونسلمَ من الفتن وأسباب الهوان؛ فعلينا أن نعود بالعمليَّة التَّعليميَّة إلى سكَّتها الَّتي عهدها أهلُ العلم وتوارثها الخلف عن السَّلف وألفُوها جيلا بعد جيل، وهو تسلُّم العلم من أفواه العُلماء والمشايخ، وأن نُبقي على هذه السُّنَّة الحميدَة، والطَّريقة السَّلفيَّة الرَّشيدة، حفاظًا على شريعتنا الغرَّاء، وصيانةً لجناب سنَّة نبيِّنا ﷺ المحجَّة البيضاء من كلِّ سوء وفتنة عمياء.

تحديد يوم ميلاد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم

حسن بوقليل
ليسانس في الشريعة

إنَّ من نعم الله عز وجل على آخر الأمم أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، به أخرج الناسَ من ضلال الشرك إلى هداية التوحيد، ومن ظلام البدع إلى نور السنة.

إنَّه نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ؛ خيرُ مُرَبٍّ ومؤدِّب، وأفضل معلِّم ومهذِّب.

أقام الله عز وجل به ملَّةً عوجاء، وشيَّدَ به دولةً علياء، أساسها توحيد الله عز وجل، ونشر مكارم الأخلاق في الأمَّة جمعاء.

سطع نورُ نبُوَّته بمولده، فعن خالد ابن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنَّهم قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك، قال: «دَعْـوَةُ أَبِـي إِبْرَاهِـيمَ، وَبُشْرَى عيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي حينَ حَمَلَتْ بِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّام»[1].

جاء بالبِشارة لأهل التَّوحيد والإيمان، والنِّذارة لأهل الشِّرك والكفران.

حريٌّ بأهل الإسلام أن يعرفوه حق معرفته؛ نسبه، ومولده، وبلده، ومهاجره، وزوجه وصحبه.

لقد شاع عند كثير من المسلمين الاحتفال بمولده! في يوم الثاني عشر من ربيع الأول، من كل عام، وإنما نبينا ﷺ ينبغي أن تدرس حياته، وسنته على مدار العام.

وإليك ـ أخي القارئ ـ بيان متى ولد نبينا ﷺ؛ في أي سنة، وفي أي شهر، وفي أي يوم.

(1) رواه الحاكم (2/600)، والبيهقي في «الدلائل (1/83)، وصححه الألباني في «الصحيحة (1545).

العام الَّذي وُلد فيه نبيُّنا ﷺ:

كان العرب قديمًا يؤرِّخون ميلادهم على حسب الأحداث العظيمة التي تمر بهم، ومن هذه الأحداث التي كان لها كبير أثر في تاريخهم قصة الفيل، حيث عزم أبرهة النصراني على هدم الكعبة، فسار إليها برجال يمتطون الفيَلَة، فأرسل الله عز وجل عليهم طيرا أبابيل، وهي قصة ثابتة بالإجماع، قصَّها الله تعالى علينا في القرآن.

وفي عام الفيل وُلد النَّبيُّ ﷺ[2].

قال إبراهيم بن المنذر الحزامي رحمه الله: «والَّذي لا يشُكُّ فيه أحدٌ من علمائنا أنَّ رسول الله ﷺ ولد عام

(2) «السيرة» لابن هشام (1/158)، و«عيون الأثر» لابن سيد الناس (1/79)، و«زاد المعاد» (1/74)، و«سير أعلام النبلاء» (سيرة1/33)، و«مختصر السيرة» لابن جماعة (ص 36).

الفيل، وبعث على رأس أربعين سنةً من الفيل»[3].

وقال خليفة بن خياط رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمجتمع عليه عام الفيل»[4].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا خلافَ أنَّه وُلد ﷺ بجَوف مكَّة، وأنَّ مولدَه كان عام الفِيل، وكان أمر الفيل تَقدمةً قدَّمها الله لنبيِّه وبيته، وإلاَّ فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيرا من دين أهل مكة إذ ذاك؛ لأنَّهم كانوا عبَّاد أوثان، فنصرهم الله على أهل الكتاب نصرًا لا صنع للبشر فيه، إرهاصًا وتقدمةً للنَّبيِّ ﷺ الَّذي خرج من مكَّة، وتعظيمًا للبيت الحرام»[5].

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «وُلِدَ النَّبيُّ ﷺ عام الفِيل»[6].

وعن قيس بن مَخرمة رضي الله عنه قال: «وُلدتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل، كنَّا لِدَيْن»[7].

وقوله: «كنَّا لِدَين»: يقال: لِدَةُ الرَّجل، أي: تِرْبُه وقَرِينه[8].

○○○

(3) ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (74/3).
(4) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص 53).
(5) «زاد المعاد» (76/1).
(6) رواه ابن سعد في «الطبقات» (101/1)، والبزار في «مسنده» (4762)، والطحاوي في «شرح المشكل» (5967)، والحاكم في «المستدرك» (603/2) وقال: «على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي في شرط مسلم. وحسنه الألباني في «الصحيحة» (3152).
(7) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (ص99)، ومن طريقه رواه أحمد (17891)، والترمذي (3619)، وابن جرير في «تاريخ الملوك» (155/2)، والطبراني في «الكبير» (873)، والحاكم في «المستدرك» (603/2)، والطحاوي في «شرح المشكل» (5968)، وأبو نعيم في «الدَّلائل» (85)، والبيهقي في «الدلائل» (76/1). والحديث حسَّنه الذَّهبي في «السير» (سيرة1/33)، والألباني في «الصحيحة» (432/7).
(8) انظر: «الصحاح» (554/2).

واختلف أهل السير كم كان بين حادثة الفيل، وبين مولده ﷺ، والأَشْهَرُ أنَّه وُلِدَ ﷺ بعد الفيل بخمسين يومًا[9].

○○○

□ فائدة:

عام الفيل يوافق السنة الميلادية (570م) أو (571م) على ما قرَّره أهل الفلك[10].

○○○

الشَّهر الَّذي وُلد فيه نبيُّنا ﷺ:

المشهور أنَّه ﷺ ولد في ربيع الأول[11]، وهو قول الجمهور[12].

وقيل: وُلِدَ في صفر.

وقيل: وُلِدَ في ربيع الآخر.

وقيل: في رمضان، كما سيأتي[13].

○○○

اليوم الَّذي وُلد فيه نبيُّنا ﷺ:

قد صحَّ عنه ﷺ أنَّه ولد يوم الإثنين، فقد سئل عن صوم يوم الاثنين؟ فقال: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ. أو: أُنزِلَ عَلَيَّ فيه»[14].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا ممَّا لا خلاف فيه أنَّه ولد ﷺ يوم الإثنين»[15].

(9) «الروض الأنف» للسهيلي (159/2)، و«البداية والنهاية» (380/3). وهو الَّذي ارتضاه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ. «الصفدية» (219/1).
(10) «السيرة النبوية الصحيحة» (97/1)، و«الرحيق المختوم» (ص41).
(11) «فتح الباري» (696/6 و207/7).
(12) «البداية والنهاية» (374/3).
(13) «سبل الهدى والرشاد» للصَّالحي (405/1).
(14) رواه مسلم (1162) من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه. وزاد ابن خزيمة (2117): «وَيَوْمٌ أَمُوتُ فِيهِ»، وهي من أمارات نبوَّته ﷺ، فقد توفي ﷺ يوم الإثنين، كما عند البخاري (1387) أنَّ أبا بكر رضي الله عنه سأل عائشة رضي الله عنها: في أيِّ يومٍ توفي رسول الله ﷺ؟ قالت: «يوم الإثنين».
(15) «البداية والنهاية» (374/3).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتَّفقوا على أنَّ رسول الله ﷺ ولد يوم الإثنين في شهر ربيع الأوَّل عامَ الفيل، واختلفوا فيما مضى من ذلك الشَّهر لولادته على أربعة أقوال»[16]، ثمَّ ذكرها، ونُجملُها[17]:

1 ـ أنَّه ﷺ ولد للَيلَتَين خلتا من ربيع الأوَّل.

ذكره ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الاستيعاب» (ص53).

عن أبي معشر نجيح المدني قال: «ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأوَّل»[18].

وروي هذا القول عن سعيد ابن المسيِّب وغيره[19].

2 ـ أنَّه ﷺ ولد لثَمانِ خلَون منه.

وهو الَّذي رجَّحه ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ[20]، وذكره ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ عن الخوارزمي[21]، وأنَّه يوافق العشرين من شهر نَيسان (أفريل)[22]، وأشار ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ إلى صحَّته.

(16) «صفة الصفوة» (52/1).
(17) انظرها في: «السيرة» لابن هشام (158/1)، و«عيون الأثر» (79/1)، و«صفة الصفوة» (52/1)، و«الكامل في التاريخ» (355/1)، و«إمتاع الأسماع» للمقريزي (6/1)، و«سبل الهدى والرشاد» للصالحي (401/1)، و«السيرة الصحيحة» للعمري (96/1).
(18) رواه ابن سعد في «الطبقات» (101/1)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (70/3).
(19) ذكره الذهبي في «السير» (سيرة1/35).
(20) «جوامع السيرة» (375/3).
(21) هو أبو بكر محمد بن موسى، شيخ الحنفية، كان يقول: «ديننا دين العجائز، لسنا من الكلام في شيء»، ما شاهد النَّاس مثله في حسن الفتوى وحسن التَّدريس، وقد دعي إلى القضاء مرارًا، فامتنع. توفي في جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعمائة. [«السير» (235/17)] مختصرًا.
(22) «الاستيعاب» (ص 53). وانظر «الروض الأنف» (159/2).

تنبيه: رجَّح الشَّيخ صفيُّ الرَّحمن المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ مَولدَه ﷺ كان في التَّاسع من ربيع الأوَّل، وأنَّه يوافق العشرين من شهر أفريل.

انظر «الرَّحيق المختوم» (ص41)، والَّذي ذكرَتْه المصادر أنَّه لثَمانٍ خَلَوْنَ، يعني اليومَ الثَّامن، فلعلَّه رَحِمَهُ اللَّهُ لم يَعُدَّ اللَّيلةَ الأولى، والله أعلم.

قال ابن دحية رحمه الله: «وهذا أعدل الأزمان والفصول، وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذي القرنين فيما ذكر أصحابُ الزِّيج[23]، ... وكان موافقًا من البروج الحَمَل، وكان ذلك عند طلوع القمر أوَّل اللَّيل»[24].

3. أنَّه ﷺ ولد لعَشر خلَون منه. نقله ابن دحية[25].

وروي عن أبي جعفر الباقر قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأوَّل»[26].

ورواه مجالد عن الشعبي[27].

وصحَّح هذا القول الدمياطي في «سيرته»، كما نقله الذَّهبي في «السير» (سيرة1/36).

4. أنَّه ﷺ ولد لثنتي عشرة خلَت منه. نصَّ عليه ابن إسحاق[28].

ورواه الزبير بن بكار[29] عن معروف بن خرَّبوذ وغيره من أهل العلم قالوا: «ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وسميت قريش آل الله، وعظمت في العرب، ولد لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول».

قال ابن كثير رحمه الله: «ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» عن جابر، وابن عبَّاس»[30].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا هو المشهور عند الجمهور، والله أعلم»[31].

هذه مجمل الأقوال التي ذكرها أهل السير، والتي استند أصحابها إلى بعض الروايات، وهناك أقوالٌ أخرى لم تشتهر في كتب السِّير، ومنها[32]:

1. أنه ﷺ ولد أوَّل ربيع الأول[33].

2. أنَّه ﷺ ولد لسبع عشرة خلت منه[34].

3. أنه ﷺ ولد لثمان بقين منه[35].

4. أنَّه ﷺ ولد في رمضان[36].

5. أنَّه ﷺ ولد لثنتي عشرة خلت من رمضان[37].

○○○

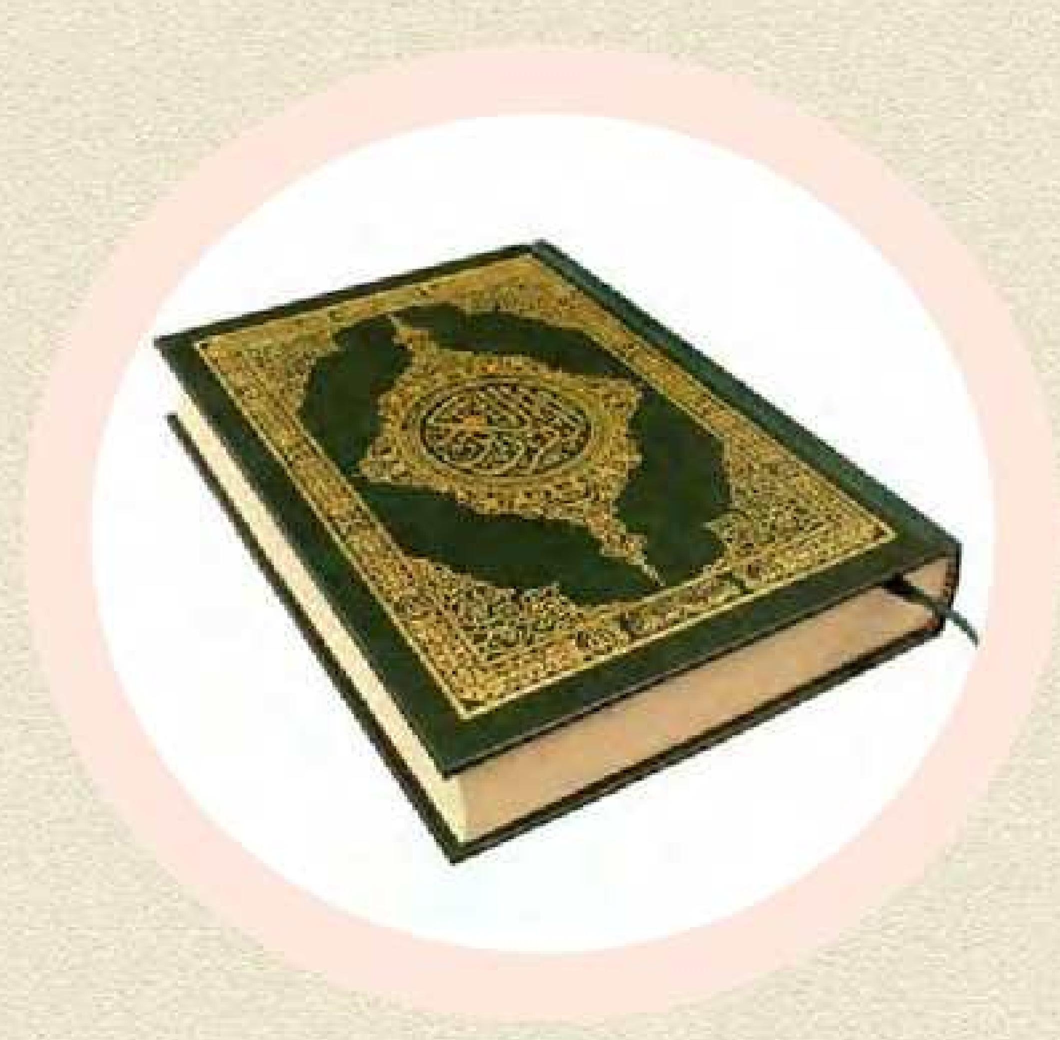
خلاصة القول:

والمقصود أنَّ النَّبيَّ ﷺ ولد عام الفيل، بعد حادثة أبرَهة بخمسين يومًا، وكان ذلك يوم الإثنين، من شهر ربيع الأوَّل، والأقرب أنه كان لثمان خلون منه، وهو مذهب الخوارزمي، وارتضاه ابن حزم، وصحَّحه ابن عبد البر، وبعض المعاصرين.

واعلم أخي القارئ أنه ليس في تحديد ميلاده ﷺ حافز للاحتفال به بما نراه اليوم! فسيرة نبينا ﷺ تحتاج منَّا إلى دراسة مدى الحياة، فحديثه ﷺ لا يمَلُّ.

وليست محبته ﷺ في الاحتفال به بتخصيص أكلة في يوم، أو قصيدة تُقْرَأُ على قوم.

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على سنته ﷺ، وأن يحشرنا معه يوم نلقاه. والحمد لله رب العالمين.



(23) أي: أهل الفلك والحساب.
(24) «البداية والنهاية» (3/377).
(25) كما في «البداية والنهاية» (3/375). وكتاب ابن دحية هو «التنوير في مولد السراج المنير» ألفه لأحد الملوك، ذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (3/449)، وقد أشار د. جمال عزُّون في مُقدِّمَة تحقيقه لكتاب «الآيات البيِّنات» (ص104) لابن دِحْيَة أنَّه عثَرَ على نُسخَةٍ من الكتاب نفيسةٍ بالمكتبة الأحمديَّة بحلب، تقعُ في (434) صفحةً.
(26) رواه ابن سعد في «الطبقات» (1/100).
(27) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (3/75).
(28) «السيرة» لابن هشام (1/158).
(29) «تاريخ دمشق» (3/69)، و«السير» (سيرة1/53).
(30) «البداية والنهاية» (3/375)، ولم أجده في المطبوع من «المصنف».
(31) «البداية والنهاية» (3/375).
(32) وانظر «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (1/401 وما بعدها).
(33) ذكره ابن عبد البر رحمه الله في «الاستيعاب» (ص53). وقد رواه أبو نعيم في «الدلائل» (1/153)، وابن عساكر في «تاريخه» (3/68) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين في [أوَّل] شهر ربيع الأول». وليس عند ابن عساكر: «أوَّل»، وفيه معلى بن عبد الرحمن، ضعيف كذاب. «الميزان» (4/358). قال ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» (3/376): «وهذا غريبٌ جدًّا».
(34) قرأه ابن دحية رحمه الله في كتاب «إعلام الورى بأعلام الهدى» لبعض الشيعة. ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» (3/374) وخطَّأه.
(35) نقله ابن دحية رحمه الله عن ابن حزم، قال ابن كثير رحمه الله: «والصَّحيح عن ابن حزم الأوَّل: أنَّه لثمانٍ خلَون منه». «البداية والنهاية» (3/375).
(36) نقله ابن عبد البر رحمه الله في «الاستيعاب» (ص53) عن الزُّبير بن بكَّار.
قال ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» (3/376): «وهو قولٌ غريبٌ جدًّا، وكان مستنده أنَّه - عليه الصَّلاة والسَّلام - أوحِيَ إليه في رمضان بلا خلاف، وذلك على رأس أربعين سنةً من عمره، فيكونُ مولدُه في رمضان! وهذا فيه نظَرٌ، والله أعلم».
وقال ابن حجرٍ رحمه الله في «فتح الباري» (6/697): «وهو قولٌ شاذٌّ».
(37) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (3/66) عن شعيب بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: «حمل رسول الله ﷺ في عاشوراء المحرَّم، وولد يوم الإثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل». قال الذهبي رحمه الله في «السير» (سيرة1/34): «وهذا حديث ساقط، كما ترى».

أمْسِكْ عليكَ لسانَك

نجيب جلواح



إنّ الله تبارك وتعالى أنعم علينا نعمًا كثيرة، لا يُمكن عَدُّها ولا حصرُها؛ قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ] ومن أجلِّ هذه النِّعم وأعظمها ـ بعد نعمة الإسلام ـ: نِعمة النّطق باللّسان، هذه الجارحة التي لها أهميّة عُظمى في حياة المسلمين العقديّة، إذْ بالتّلفّظ بكلمة التّوحيد: يكون الدُّخول في الإسلام، وبالنُّطق بها كذلك يكون الخُروج من الدُّنيا لمن خُتِم له بالحُسنى؛ روى أبو داود (3116) عن مُعاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامه لا إِلَهَ إلا اللّه دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1]، وذلك لأنّها أوّل ما يلزم العبد النّطق به في بداية التّكليف، فأُريد أنْ تكون خاتمة الأقوال، ولمّا كانت الأعمال بخواتيمها، كانت هي أشرف ما يُختم به[2].

هذا وبالنّطق بكلمة الكُفر أو بناقض من نواقض الإسلام: يكون الخُروج من الدّين؛ قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ].

(1) (صحيح)، انظر: «صحيح الجامع» للألباني (6479).

(2) انظر: «كشف المشكل» لابن الجوزي (164/3).

وإنّ الإنسان لا يُوزَن بجسمه، ولا بهيئته ومَظهره، وإنّما يُوزن بمَنطقه وحكمته، لذا قيل: كمالُك في كلامك.

ولله درّ القائل:

لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

وَكَائِن تَرَى مِنْ سَاكِت لَكَ مُعْجِبٍ
زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

ﷺﷺﷺ

اللِّسان ـ مع صِغر حجمه ـ سِلاح ذو حدَّين:

فإنِ استُعمل في الخير وطاعة الرَّحمن ـ كقراءة القُرآن، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والصَّدع بالحقّ،والدَّعوة إلى الله ـ أدَّى المطلوبَ منه، وكان ذلك شُكرًا لهذه النِّعمة ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [لقمان : 12].

وإنِ استُعمِلَ في الشَّرِّ وطاعة الشَّيطان ـ كالكذب، وقَول الزُّور، والقذف، والغيبة، والنَّميمة، والتَّقوُّل على الله بغير علم، والشِّرك ـ أدَّى ذلك إلى سخط الله وغضبه، وكان كُفرًا بالنِّعمة ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة لقمان].

وإنَّ النَّاس ـ في هذه الحياة الدُّنيا ـ يَزرعون بألسنتهم الأقوال الطَّيِّبَة والخبيثة، والَّتي تُثمر الحسنات والسَّيِّئات، وسيَجْنُون غدًا ـ يومَ القيامة ـ ما بذروا؛ فمَن زرع خيرًا وجد الكرامةَ، ومَن بَذر شرًّا جنى النَّدامة.

وإنَّ ألسنةَ بعضِ النَّاس تحصد الكلام، من غير تمييز بين القبيح منه والحسن، فهي كالمنجل يقطع، من غير تمييز بين الرَّطْبِ واليابس، والجيِّد والرَّديء[3]؛ روى التِّرمذي (2616) وابنُ ماجه (3973) والطَّبراني في «المعجم الكبير» (137) عن مُعاذ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخذَ بلسانه فقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» فَقُلْتُ: يَا نَبيَّ الله! وَإنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِه؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّار عَلَى وُجُوهِهِمْ ـ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ ـ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»، وزاد الطَّبراني: «إنَّكَ لَمْ تَزَلْ سَالِمًا مَا سَكَتَّ، فَإذَا تَكَلَّمْتَ كُتِبَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»[4].

وأكثر ذنوب النَّاس صادرةٌ من ألسنتهم، فمَن علم ذلك وأيقن، اتَّقى الله في لسانه، فتكلَّمَ ليَغْنَم، أوْ سَكَتَ ليَسْلَم؛ روى الطَّبراني في «المعجم الكبير» (10294) عن أبي وائل عن عبد الله [أي: ابن مسعود ﷺ] أنَّه ارتقى الصَّفا فأخذ بلسانه، فقال: يَا لِسَانُ! قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ، وَاسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمْ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «أَكْثَرُ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِه»[5]؛ «لأنَّه أكثر أعضائه عملاً، وهو صغير جِرْمُه، عظيم جُرْمُه، فمن أطلق عَذَبَةَ لسانه مرخى العنان، مَلَكَ به الشَّيطانُ، في كلِّ ميدان، وساقه إلى شفا جُرُفٍ هارٍ إلى أنْ يضطرَّه إلى البوار»[6].

قال الزُّرقاني ﷺ: «وقد أكثر النَّاس في تفصيل آفات الكلام، وهي أكثر من أنْ تدخل تحت حصر، وحاصله: أنَّ آفات اللِّسان أسرع الآفات للإنسان، وأعظمها في الهلاك والخُسران، فالأصل: مُلازمة الصَّمت حتَّى تتحقَّق السَّلامة من الآفات، والحصول على الخيرات، فحينئذ تخرج تلك الكلمة مَخطومة، وبأزمَّة التَّقوى مَزمومة»[7].

ﷺﷺﷺ

وفي اللِّسان آفتان عظيمتان، إنْ سلم صاحبه من الأُولى، فقلَّما يَسلَم من الثَّانية، وهما: آفة الكلام، وآفة السُّكوت، وأعظم الجوارح اختراقًا للحُرُمات: هو اللِّسان، في حالتيه السَّابقتين:

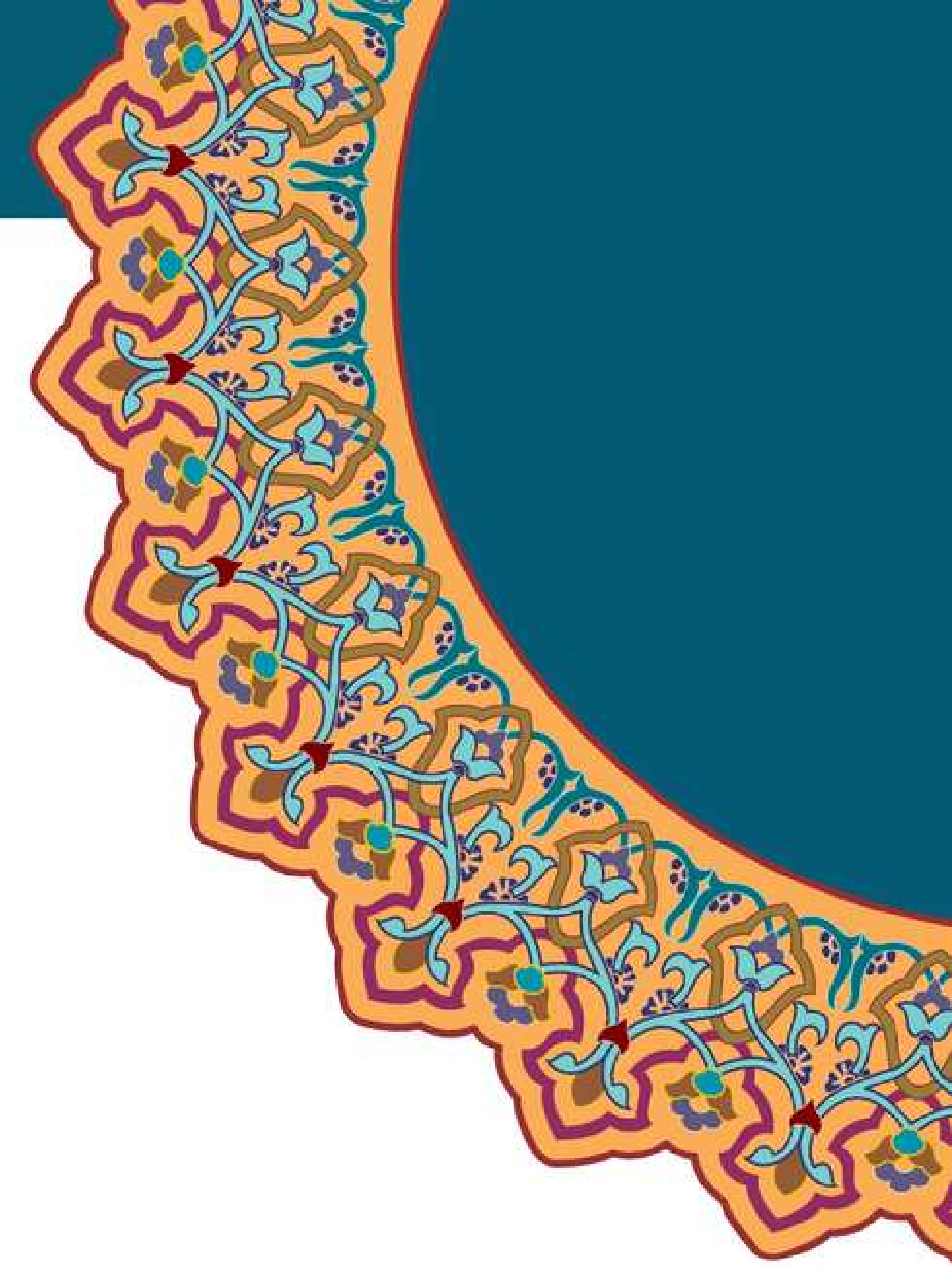
إمَّا مُتلفِّظًا مُتكلِّمًا بمُحرَّم، بدافع التَّعالي والطَّيش والغضب.

وإمَّا صامتًا وساكتًا عن حقّ واجب، بدافع المُداهنة والمجاملة والملاينة.

والحكيم العاقل هو مَن يتكلّم بخير يُؤجر عليه، أو يسكت عن شرّ يُعاقب عليه؛ روى البخاري (6018) ومسلم (47) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ...» الحديث. أمَّا السُّكوت عن الخير وذكر الله تعالى: فليس بمأمور به، بل هو منهيّ عنه[8].

لسانُك حصانُك، إنْ صُنته صانك، وإن خُنته خانك، تدبّر في نفسك وتأمّل، فما فيك يكفيك، وانظر بعين فكر كيف جعل الله لسانك مَستورًا من وراء الشَّفتين والأسنان، فهو في الفم سجين، وفي حصن حصين، وهذا حتّى لا تُطلق له العنان فيُفسد؛ روى البيهقي في «شعب الإيمان» (4649) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «وَالذي لا إلَهَ غَيْرُهُ، مَا شَيْءٌ أَحَقَّ بِطُولِ السِّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ».

(3) انظر: «الكاشف عن حقائق السُّنن» للطِّيبي (488/2).
(4) (صحيح)، انظر: «صحيح الجامع» للألباني (5136).
(5) (صحيح)، انظر: «السّلسلة الصّحيحة» للألباني (534).
(6) انظر: «فيض القدير» للمُناوي (79/2).
(7) «شرح موطّأ مالك» (477/4).
(8) انظر: «المسالك في شرح موطّأ مالك» لابن العربي (393/7).



قال ابن القيّم رحمه الله: «جعل ـ سبحانه ـ اللّسان عضوًا لَحْميًّا، لا عَظْم فيه ولا عَصَب؛ لتسهل حركته، ولهذا لا تجد في الأعضاء مَن لا يكترث بكثرة الحركة سواه، فإنّ أيّ عضو من الأعضاء إذا حرّكته كما تحرّك اللّسان لم يُطِعْكَ لذلك، ولم يلبث أنْ يَكلَّ ويخلدَ إلى السُّكون إلاَّ اللِّسان... وجعل ـ سبحانه ـ على اللّسان غَلَقَيْن: أحدهما: الأسنان، والثّاني: الفم، وجعل حركته اختياريّة، وجعل على العين غطاء واحدًا، ولم يجعل على الأذن غطاء، وذلك لخطر اللّسان وشَرَفه، وخطر حركاته، وكونه في الفم بمنزلة القلب في الصّدر، وفي ذلك من اللّطائف، أنَّ آفةَ الكلام أكثر من آفة النّظر، وآفة النّظر أكثر من آفة السّمع، فجعل للأكثر آفات طبقتَيْن، وللمتوسِّط طبقًا، وجعل الأقل آفة بلا طبق»[9].

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى ـ من النَّظم المُحكم[10] ـ:

لسَانُ الفَتَى حَتْفُ الفَتَى حينَ يَجْهَلُ
وَكُلُّ امْرِئٍ مَا بَيْنَ فَكَّيْه مَقْتَلُ

إذَا مَا لسَانُ المَرْءِ أَكْثَرَ هَذْرَهُ
فَذَاكَ لسَانٌ بالبَلاءِ مُوَكَّلُ

وَكَمْ فَاتحٍ أَبْوَابَ شَرٍّ لنَفْسه
إذَا لَمْ يَكُنْ قُفْلٌ عَلَى فِيه مُقْفَلُ

وقيل أيضًا:

احْفَظْ لسَانَكَ أَيُّهَا الإنْسَانُ
لاَ يَلْدَغَنَّكَ إنَّهُ ثُعْبَانُ

كَمْ في المَقَابر منْ قَتيل لسَانه
كَانَتْ تَهَابُ لقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

ومَن يعش رجبًا، يرَ عجبًا، ممّا آل إليه حال المسلمين اليوم، وسبب ذلك: حصائد ألسنتهم، حيث أكاذيب تُشاع، وأحاديث تُذاع، سندُها الظنُّ والبُهتان، فالوقوع في الأعراض دون بُرهانٍ، فتمزّقت بذلك المجتمعات، وجرّت على النّاس الويلات. فكم من فتنة حدثت، ودماءٍ أريقت، وأرواحٍ أزهقت، وأموالٍ سُلبت، وأعراضٍ انتهكت، بسبب أخبارٍ كاذبة وإشاعات لا أساس لها من الصحة؟ وكم من اجتماع أصبح فُرقة؟ وأُلفة صارت عداوة؟ ومَحبّة أضحت كُرهًا؟ وزوجةٍ أمست مُطلّقة؟... كلُّ ذلك بسبب هذه الإشاعات والأكاذيب، التي تُحدثها حصائد الألسُن.

ولمّا كان اللّسان بهذه الخُطورة، ولعظيم أمْره، شدّد الشّرع عليه المراقبة المتنوّعة؛ فقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [سورة المجادلة]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة ق].

ومن العَجب الذي لا ينقضي: أنّك قد ترى الرَّجلَ مُتورّعًا عن الفواحش والمحظورات، يَسهل عليه الاحتراز عن كثير من المحرّمات ـ كالزّنا، والرّشوة، والسّرقة، وشُرب الخمر ـ ولكن يَصعب عليه كثيرًا التّحفُّظ من حركة لسانه. ومن الغرابة التي لا تنتهي: أنْ ترى بعض المستقيمين يُعظِّم أمر الرِّبا ويُنكر على آكله ومُوكله، وحُقّ له ذلك: كون الرِّبا من الكبائر الموبقات المهلكات، ولكنّه ـ مع ذلك ـ تراه يخوض في أعراض المسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، لا يبالي بما يقول، ولا يعبأ بما ينطق به، مع أنّ خوضه في الأعراض أشدّ أنواع الرِّبا إثمًا، وأكبرها وبالاً، وأسوؤها مآلاً، وأعظمها تحريمًا، وأشنعها جُرمًا، وأكثرها مَضرّة، وأشدّها فسادًا؛ روى أبو داود (4876) عن سعيد بن زيد عن النّبيّ ﷺ قال: «إنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الاسْتِطَالَةَ في عِرْضِ المُسْلِم بغَيْر حَقٍّ»[11]؛ فإنّ العرض ـ عند أرباب الكمال ـ أعزّ على النّفس من المال، وأعظم منه خطرًا، وقد أنشد بعضهم:

أَصُونُ عِرْضي بمَالي لاَ أُدَنِّسُهُ
لاَ بَارَكَ اللَّهُ ـ بَعْدَ العِرْض ـ في المَال[12]

واعلم أنَّ الكلمةَ إنْ لم تَبُحْ بها مَلَكْتَها، وإنْ نطقتَ بها مَلَكَتْكَ، فكم من مُستهين بالأمور، يتكلَّمُ بالكلام من سخط الله تعالى لا يبالي، ولا يظنُّ أنَّه سيبلغ ما هو بالغُه، تكفي الكلمة الواحدة

(9) «التّبيان في أيمان القرآن» (ص466).

(10) «مشوار المحاضرة» للتنوخي (ص103).

(11) (صحيح)، انظر: «صحيح الجامع» للألباني (2203).

(12) انظر: «الكاشف عن حقائق السّنن» للطّيبي (3218/10)، و«مرقاة المفاتيح» لعليّ القاري (3158/8).

أنْ تهوي به أبعد ما بين المشرق والمغرب؛ روى البخاري (6478) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «... وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وتأمّل في هذه القصّة واعتبر بحال هذا المجتهد في العبادة كيف أفسد على نفسه دُنياه وأخراه بسبب كلمة قالها، كان بإمكانه أنْ يُمسك لسانه عنها فيَسْلَم؛ روى أبو داود (4901) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَانَ رَجُلانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ، فَكَانَ لا يَزَالُ المُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا المُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ».قال أبو هريرة: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[13]، فقد ضاع اجتهاد هذا العابد بزلّة لسان، فانقلب الأمر عليه وصار في الذّنب أسوأ من صاحبه، الذي غفر الله له، وأنزله مَنزلة المجتهد[14].

ومثله ما جاء في «صحيح مسلم» (2621) عن جندب أنّ رسول الله ﷺ حَدَّثَ: «أَنَّ رَجُلا قَالَ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» أَوْ كَمَا قَالَ.

وقد يأتي العبد يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها كلَّها، إذْ تُؤخذ منه أعمالُه التي تعب ـ في الدّنيا ـ من أجل تحصيلها، فلمّا كان وقت فَقْره إليها، وهي أمامه يُشاهدها ـ يوم القيامة ـ أخذت منه لفلان وفلان، ثمّ طُرح في جهنّم، فلا إفلاس أعظم من هذا، ولا أخسر صفقةً ممّن هذه حاله[15]: روى مسلم (2581) عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟» قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

ولهذا كان السّلف يتورّعون عن الحديث في الأعراض، ولا يخوضون في الباطل، بل يعتبرون ذلك هو العبادة؛ روى ابن أبي الدنيا في «ذمّ الغيبة والنّميمة» (55) وفي «الصّمت» (192) عن خَصَّاف وَخُصَيْف وعبد الكريم ابن مالك قالوا: «أَدْرَكْنَا السَّلَفَ وَهُمْ لا يَرَوْنَ العِبَادَةَ فِي الصَّوْمِ وَلا فِي الصَّلاةِ، وَلَكِنْ فِي الكَفِّ عَنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ»، وأصل هذا: الحديث المتّفق عليه: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[16].

ومن أكثر ما يُدخل النّاسَ النّارَ ألسنتُهم، فمَن كثُر كلامه كثُر مَلامُه؛ روى الترمذي (2004) وابن ماجه (4246) عن أبي هريرة قال: سئل النَّبِيُّ ﷺ: مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ الجَنَّةَ؟ قَالَ: «التَّقْوَى، وَحُسْنُ الخُلُقِ» وسئل: مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّارَ؟ قَالَ: «الأَجْوَفَانِ: الفَمُ، وَالفَرْجُ»[17]. وفي هذا الحديث: دليلٌ على أنّ أكبرَ الكبائر إنّما هي من الفم والفَرْج، فمنَ الفَم ما يتولّد من اللّسان، وهو كلمةُ الكُفر، وقذفُ المحصنات، وأخذ أعراض النّاس[18].

ولمّا كان من أعظم ما يُدخل النّارَ هذا اللّسان ـ كما سلف ـ فلا يُنجي من شرّه إلاّ أنْ يُقيَّد بلجام الشّرع، فيُجرى في الخير ويُحبس عن الشّرّ، للفوز بالجنان والنّجاة من النّيران؛ روى التّرمذي (2409) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ»[19]، دلّ هذا الحديث على أنّ أعظم البلاء على المرء في الدّنيا لسانه وفرجه، فمَن وُقي شرّهما وُقي أعظم الشّر[20].

واستقامة الإنسان موقوفة على استقامة قلبه، ولا يخفى ظهور توقّف صلاح الأعضاء وفسادها على القلب ـ بحسب صلاحه وفساده ـ فإنّه مَعدن الأخلاق الكريمة، كما أنّه مَنبع الأحوال الذّميمة[21]، ثمّ إنّ استقامة القلب موقوفة على استقامة اللّسان؛ روى أحمد

---

(13) (صحيح)، انظر: «صحيح الجامع» للألباني (4455).

(14) انظر: «مرقاة المفاتيح» لعليّ القاري (1626/4).

(15) انظر: «المفهم» للقرطبي (563/6).

(16) أخرجه البخاري (10) ومسلم (40) عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما.

(17) (حسن)، انظر: «السّلسلة الصّحيحة» للألباني (977).

(18) انظر: «المسالك في شرح موطّأ مالك» لابن العربي (580/7).

(19) (صحيح)، انظر: «السّلسلة الصّحيحة» للألباني (510).

(20) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (310/11).

(21) انظر: «مرقاة المفاتيح» لعليّ القاري (3040/7).

(13048) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»[22].

ولمّا كانت حُرمةُ المؤمنِ عظيمةً عند الله حَرَّم أذاه بأيّ نوع من أنواع الأذى، لاسيّما باللّسان، فها هو رسول الله ﷺ يقوم خطيبًا في النّاس، رافعًا صوته، مُحذِّرًا من أذى المسلمين؛ روى التّرمذي (2032) عن ابن عمر قال: صَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلى قَلْبِهِ، لا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ وَلا تُعَيِّرُوهُمْ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ».

وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلى البَيْتِ - أَوْ إِلى الكَعْبَةِ - فَقَالَ: مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَالمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ[23].

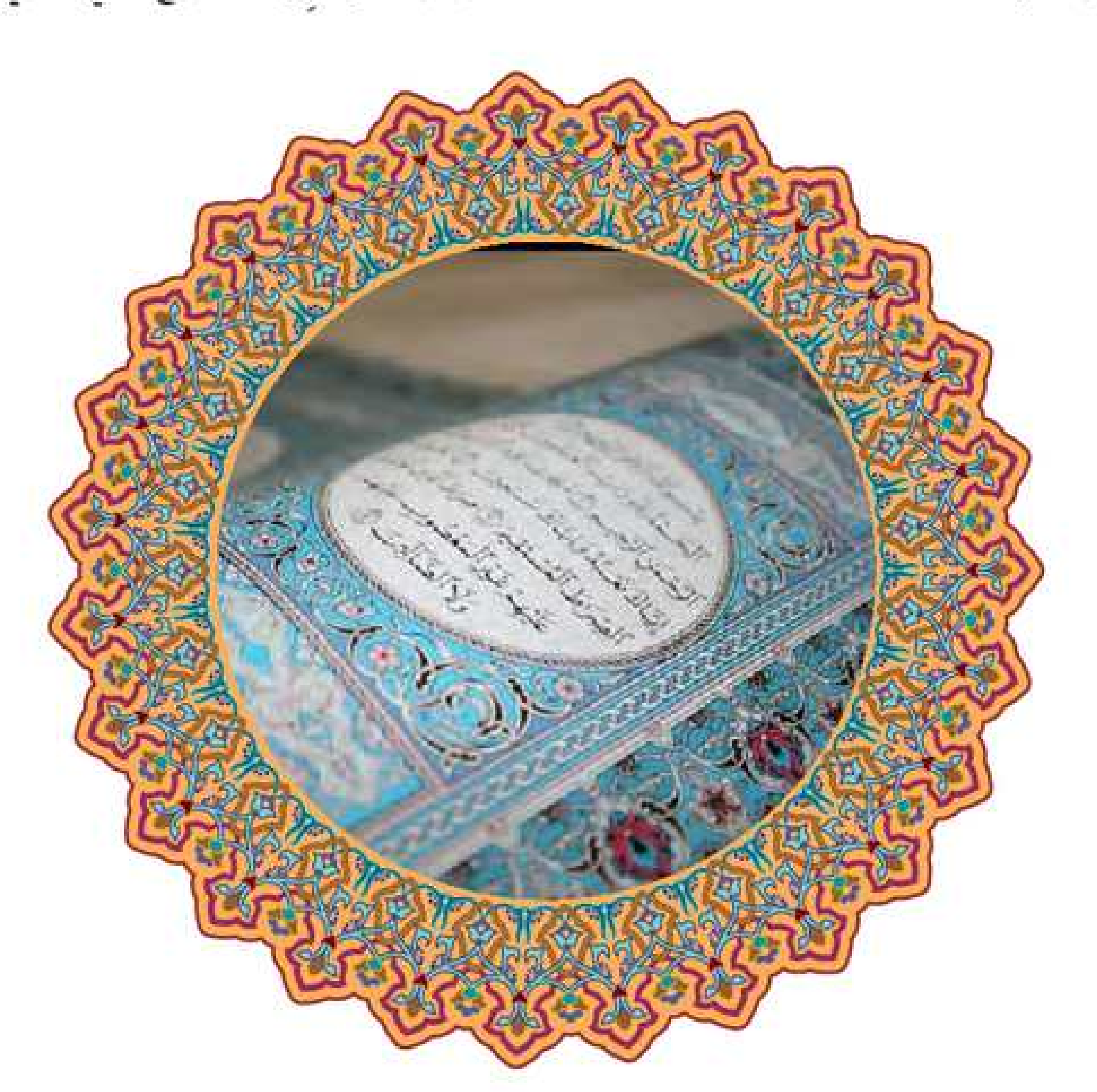
إنّ في الخوض خطرًا، وفي الصّمت سلامةً؛ روى التّرمذي (2501) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»[24]، فمَن سكت عن النّطق بالشّر وعمّا لا خير فيه، نجا من العقاب في الدّارين، بل حتّى الكلام المباح يُؤمَر بتركه مَخافةَ جَرِّه إلى الحرام. ولكن هذا لا يعني السّكوت عن المُنكر، بل يجب الصّدع بالحقّ.

وإنّ الأعضاء لمّا كانت مُتابعة للّسان في الخير والشّر، وفي الاستقامة والاعوجاج: فإنّها تقوم ناصحة له، راجيةً منه أنْ لا يُلحق بها ضررًا؛ روى التّرمذي (2407) عن أبي سعيد الخُدريّ رفعه قال: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ[25] فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»[26]، وفائدة هذا الخبر النّبوي: إعلام الإنسان أنّه لا يأتيه الخير والشّر إلاّ من قِبَل لسانه، فليحذره![27].

وفي الأخير نَذكُر سبيل النّجاة للتّعلّق به، وطريق الخلاص من الآفات للسّير في ضوئه؛ روى التّرمذي (2406) وأحمد (22235) والطّبراني في «الكبير» (741) عن عُقبة بن عامر قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقُلْتُ: مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «يَا عُقْبَةُ! أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»[28].

فلاحظ كيف سُئل النّبيّ ﷺ عن حقيقة النّجاة، ولكنّه أجاب عن سببه؛ لأنّه أهمّ بحاله وأولى، وكان من الظّاهر أنْ يقول: حفظ اللّسان، فأخرجه على سبيل الأمر الذي يقتضي الوُجوب، مزيدًا للتّقرير والاهتمام[29]، والمعنى: احفظ لسانَك وصُنْه، ولا تُجْرِه إلاّ بما يكون لك، لا عليك، ولا تُحرّكه بمعصية، وأمسكه عمّا يضرّك، وأطلقه فيما ينفعك، واندم على ما قدّمتَ من الخطايا باكيًا[30].

والله تعالى نسأل أنْ يحفظ ألسنتَنا من الكذب والزُّور والبهتان، وكلِّ أنواع الباطل وسائر آفات اللّسان، إنَّه وحده سبحانه المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم.



(22) (حسن)، انظر: «السّلسلة الصّحيحة» للألباني (2841).

(23) (صحيح)، انظر: «صحيح الجامع» للألباني (2985). وقد ورد قول ابن عمر مرفوعًا: أخرجه البيهقي في «شُعب الإيمان» (3725) عن ابن عبّاس، وهو في «السّلسلة الصّحيحة» للألباني (3420).

(24) (صحيح)، انظر: «السّلسلة الصّحيحة» للألباني (536).

(25) أي: تذلّ له وتخضع وتتواضع.

(26) (حسن)، انظر: «صحيح الجامع» للألباني (351).

(27) انظر: «التّنوير شرح الجامع الصّغير» للصّنعاني (575/1).

(28) (صحيح لغيره)، انظر: «السّلسلة الصّحيحة» للألباني (890).

(29) انظر: «الكاشف عن حقائق السّنن» للطّيبي (3123/10).

(30) انظر: «مرقاة المفاتيح» لعليّ القاري (3039/7).



أ.د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر



في فساد دعوى تقييد الطلاق بالقاضي

■ **السُّؤال:**

هل يُعْتَبَرُ وقوعُ الطلاق بمجرَّدِ صدورِه مِن الزوج أم لا بدَّ مِن اعتبارِ حكم القاضي؟ نرجو التفصيلَ في بيانِ وجه الحقِّ في هذه المسألة. وجزاكم اللهُ خيرًا.

■ **الجواب:**

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسَلَه اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبِه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فتقييدُ الطَّلاقِ بالقضاء دعوةٌ تبنَّاها بعضُ دُعاة التَّجديد؛ وذلك بإسنادِ أَمْرِ الطَّلاقِ للقُضاة، والدَّعوة إلى الحَجْرِ على الزَّوج بحيثُ يَمتنِع عليه الطَّلاقُ ولا يُعْتَدُّ به مهما أَوْقَعَه إلاَّ في ساحة القضاء، بعد بحثِ القاضي في أسبابِ الطَّلاقِ والنَّظرِ في جدواها، فَإِنْ وَجَدَها صالحةً للتَّفريق حَكَمَ به، وإلاَّ فلا يفرِّق بينهما؛ عملاً ـ في زعمهم ـ بالعدل والإنصاف، بعيدًا عن التَّحيُّزِ إلى أحَدِهما، أخذًا بمبدإ التَّسوية بين الرَّجُلِ والمرأةِ في حقِّ الطَّلاق، كلُّ ذلك بحجَّةِ حمايةِ الأسرةِ من الانهيار، وصيانةِ الرَّابطة الزَّوجيَّة من العَبَث، وضمانِ عدَم تعسُّف الرَّجلِ وإساءته في استعمالِ هذا الحقِّ.

ولا يخفى أنَّ هذه الدَّعوى باطلةٌ وتعليلاتها غيرُ صحيحة؛ لأنَّ المعلومَ أنَّ الطَّلاقَ تصرُّفٌ شرعيٌّ قوليٌّ، وهو حقٌّ ملَّكه اللهُ تعالى للرَّجُل خالصًا وجَعَلَه بيده، ويُمارسه بعبارته وإرادته المُنْفَرِدة تقصُّدًا لحَلِّ قَيْدِ النِّكاح ومفارَقة زوجته إذا وَجَدَ ما يدعوه إلى ذلك، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1]، وقولُه تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: 230]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: 232]، وغيرُها من الآيات القرآنيَّة، وفي الحديث المرفوع: «إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ»[1]، ووَرَدَتْ أحاديثُ أخرى

(1) أخرجه ابن ماجه (2081)، والبيهقيُّ في «الكبرى» (370/7)، والدارقطنيُّ في «سننه» (3991) ولفظ الدارقطنيِّ: «أَلَا إِنَّمَا يَمْلِكُ الطَّلَاقَ مَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ»، من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما، والطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (300/11)، من حديث=

كثيرةٌ تدلُّ على هذا المعنى منها: حديثُ عُمَرَ رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَلَّقَ حَفْصَةَ ثُمَّ رَاجَعَهَا»[2]، وحديثُ ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ، وَكُنْتُ أُحِبُّهَا وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا، فَقَالَ لِي: «طَلِّقْهَا»، فَأَبَيْتُ، فَأَتَى عُمَرُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «طَلِّقْهَا»»[3]؛ ويظهرُ جليًّا أنَّ المخاطَبَ بالتَّطليق في هذه الآيات والأحاديث همُ الأزواجُ دونَ غيرهم، والحكمةُ من ذلك المحافظةُ على العَقد من مَخاطر إنهائه لأتفه الأسباب وأهْوَنِها؛ إذ لا يَخفى أنَّ الرَّجل ـ في الغالب ـ أكثرُ تقديرًا لعواقب الأمور وأبْعَدُ عن الطَّيْش في التَّصرُّف، وخاصَّةً وهو يعلم تَبِعاتِ الطَّلاق وأعباءَه الماليَّةَ من المصاريف المُتعلِّقة به والنَّفقات المُترتِّبة على عاتقه في حالة إيقاعه للطَّلاق، الأمرُ الَّذي يَحملُه على التَّأنِّي والتَّروِّي فيه، وتقدير عواقب تصرُّفاته مع زوجته، بخلاف المرأة ـ إن قُدِّر أنَّ الطَّلاقَ بيدها ـ فلا تتأنَّى في إيقاعه ـ غالبًا ـ لعاطفتها الجيَّاشة وسرعة انفعالها ـ من جهة ـ وعدَم تضرُّرها ماليًّا بتكاليف الطَّلاق ونفقاته من جهة أخرى.

وإذ لم يجعل اللهُ الطَّلاقَ بيد الزَّوجة مع أنَّها شريكةُ زوجها في العقد والحياة الزَّوجيَّة؛ فلا حقَّ للرَّجل الأجنبيِّ فيه من باب أَوْلى.

هذا ـ وإنْ تقرَّر أنَّ للزَّوج حقًّا مُنْفردًا في حَلِّ قَيْد النِّكاح بلفظ الطَّلاق ونحوه ـ إلاَّ أنَّ الزَّوجَ يجوز له ـ على أرْجَح قولَي العلماء ـ أنْ يوكِّلَ غيرَه عن نَفْسه في طلاق زوجته منه، كما يجوز أن يفوِّضَ إلى زوجته حقَّه في طلاق نَفْسها منه، وهو ما عليه مذهبُ جماهير أهل العلم من الأئمَّة الأربعة وغيرهم؛ لأنَّ الطَّلاقَ تصرُّفٌ شرعيٌّ قوليٌّ تصحُّ النِّيابةُ فيه والتَّوكيلُ أو التَّفويضُ، كسائر التَّصرُّفات القوليَّة الأخرى الَّتي يملكُها المُوكِّلُ كالبيع والإجارة وغيرهما.

وتُستثنى قضايا الزَّوجين التي تُرْفَع إلى القاضي الشَّرعيِّ للفصل فيها، وذلك في حالات خاصَّة، فيجوز للقاضي أن يَحكُمَ بالتَّفريق بين الزَّوجَيْن إذا ما حصلَتْ أسبابُه وتحقَّقَتْ شروطُه، كالتَّفريق بسبب الإيلاء أو الظِّهار أو اللِّعان، أو بسبب الضَّرر، أو الخُلع، أو للعيوب المانعة من الاستمتاع، أو بسبب إسلام أحَد الزَّوجَيْن أو ردَّته دون صاحبه، أو التَّفريق لفقدان الزَّوج أو لعَدَم الإنفاق، وغير ذلك من الأسباب الَّتي في بعضها خلافٌ، وقد يكون الاختلافُ في تفاصيلها.

وللقاضي الشَّرعي أن يَرفَعَ الخلافَ في القضايا المطروحة عليه ذات الصِّبغة الاجتهاديَّة، وحكمُه نافذٌ إذا وَرَدَ على سبب صحيح مُوافق لحكم شرعيٍّ ـ نصًّا كان أو إجماعًا ـ وقَويَ دليلُه؛ لأنَّ مهمَّةَ القاضي الشَّرعيِّ هي امتدادٌ لمهمَّة الرُّسُل، وتتمثَّل في فكِّ النِّزاع بين المُتخاصمَيْن برفع الظُّلم والفصل في الخصومة بالحقِّ والعدل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]؛ لذلك فحكمُ القاضي ينتقضُ بالخطإ في السَّبب والاجتهاد، فإنْ كان الحكمُ مرتَّبًا على سبب باطل كشهادة الزُّور بأنْ شَهِدَ شاهدَا زور عند القاضي على طلاق امرأة وحَكَمَ القاضي بالطَّلاق، فإذا حَصَلَ العلمُ بالكذب والزُّور؛ فلا يُنَفَّذُ حكمُ القاضي ولا تُطلَّق من زوجها بقضائه، ولا يجوز لها أن تتزوَّج من آخَرَ، وأمَّا الخطأُ في الاجتهاد ـ إذا كان القاضي أهلاً له ـ؛ فإنَّه ينتقضُ وجوبًا بمخالفة نصٍّ صريح من كتاب أو سنَّة ولو كانَتْ آحادًا، وينتقضُ ـ أيضًا وفاقًا لمالك والشَّافعيِّ ـ بمخالَفة القياس الجليِّ، وزاد مالكٌ مخالَفةَ القواعد الأساسيَّة[4].

ومعنى ذلك أنَّ القاضيَ لا يُحلُّ حرامًا ولا يُحرِّمُ حلالاً، فلو أنَّ زوجًا أَوْقَعَ طلقات ثلاثةً فإنَّ زوجتَه لا تَحلُّ له بعد ذلك حتَّى تنكحَ زوجًا غيرَه، ولا يُنفَّذُ حكمُ القاضي إذا حَكَمَ بحلِّها لأنَّ حُكْمَه لا يُحلُّ الحرامَ، أمَّا إذا كان في نوع الطَّلقات خلافٌ اجتهاديٌّ فإنَّ حُكْمَ القاضي يرفع الخلافَ بالضَّوابط السَّابقة، ويشهد لذلك قولُه ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّته مِنْ بَعْض، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيه شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[5].

قال النَّوويُّ رحمه الله: «وفي هذا الحديث دلالةٌ لمذهب مالك والشَّافعيِّ وأحمدَ وجماهير علماء الإسلام وفقهاء الأمصار مِنَ الصَّحابة والتَّابعين فمَن بَعْدَهم: أنَّ

= عصمَةَ بن مالك الخَطْميِّ رضي الله عنه، ولفظُه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الطَّلَاقُ بِيَدِ مَنْ أَخَذَ السَّاقَ»، والحديث حسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (2041).

(2) أخرجه أبو داود (2283)، وابن ماجه (2016)، من حديث ابن عبَّاس عن عمر رضي الله عنه، والنَّسائيُّ (3560)، من حديث ابن عبَّاس عن ابن عمر رضي الله عنه، وأحمد (15924)، من حديث عاصم ابن عمر رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (2077) و«الصَّحيحة» (2007)، قال الألبانيُّ رحمه الله: «... وقال الحاكم: «صحيحٌ على شرط الشَّيخَيْن»، ووافقه الذَّهبيُّ. وأقول: وهو كما قالا».

(3) أخرجه أبو داود (5138)، والتِّرمذيُّ (1189)، وابن ماجه (2088)، وأحمد (4711)، وابنُ حبَّان (427)، والحاكم (2798)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وحسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (919).

(4) انظر: الفتوى (457) الموسومة بـ: «في الاعتداد بحكم الحاكم في رفع الخلاف»، وذلك على الموقع الرَّسميِّ للشيخ فركوس ـ حفظه الله ـ.

(5) متَّفقٌ عليه: أخرجه البخاريُّ (7168)، ومسلمٌ (1713).

حُكْمَ الحاكم لا يُحيل الباطنَ ولا يُحِلُّ حرامًا، فإذا شَهِدَ شاهدًا زور لإنسانٍ بمالٍ فحَكَمَ به الحاكمُ لم يَحِلَّ للمحكوم له ذلك المالُ، ولو شَهِدَا عليه بقتلٍ لم يَحِلَّ للوليِّ قتلُه مع علمِه بكذبهما، وإن شهدَا بالزُّور أنه طلَّق امرأتَه لم يَحِلَّ لمن عَلِمَ بكذبهما أن يتزوَّجها بعد حُكْمِ القاضي بالطَّلاق، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: يُحِلُّ حكمُ الحاكم الفروجَ دون الأموال، فقال: يُحِلُّ نكاحَ المذكورة، وهذا مُخالفٌ لهذا الحديث الصَّحيح ولإجماعِ مَنْ قبلَه، ومُخالفٌ لقاعدة وافَقَ هو وغيرُه عليها وهي أَنَّ: «الأَبْضَاعَ أَوْلَى بِالاحْتِيَاطِ مِنَ الأَمْوَالِ»»[6].

ومن نتيجة ما ذُكر يظهر جليًّا فسادُ دعوى دُعاة التَّجديد، وعدمُ اعتبارِ تعليلاتهم لمقابلتها للنُّصوص الشَّرعيَّة، ولو سلَّمْنا جدلاً بالتَّعليلات المذكورة فمن العسير على القاضي - إذا ما جُعل الطَّلاقُ بيده - أن يُثْبِتَ الحالات النَّفسيَّةَ الواقعةَ بين الزَّوجَيْن الَّتي هي سببُ الطَّلاق، كالتَّناكر الطَّبيعيِّ والنُّفورِ المُفْضي إلى البغض والكراهية وعدمِ انسجام الأخلاق وتلاؤمها بين المرءِ وزوجه، وغيرها من الحالات النَّفسيَّة الَّتي لا مَطْمَعَ للقاضي في إدراكها على الوجه المستوفي لحقيقة حجمها، فضلاً عن أنَّ هذه التَّعليلات تقلِّلُ من شأن الرَّجل، وتحكمُ عليه بالسَّفَه وعدمِ التَّقدير وسوءِ التَّصرُّف، وتَحجرُ تصرُّفاته وتسلُبُ منه الثِّقةَ في حقٍّ شرعيٍّ ملَّكه الشَّارعُ إيَّاه على وجه الخصوص؛ لذلك فالمصلحةُ الشَّرعيَّةُ تقضي أن يكون إنهاءُ الحياة الزَّوجيَّة بيَدِ الرَّجُلِ تجاوبًا مع الأدلَّة الشَّرعيَّة.

(6) «شرح مسلم» للنَّووي (6/12).

في حكم المسح على الجوربين



■ **السُّؤال:**

انتشر في أوساط العامَّة إنكارُ المسح على الجورَبَيْن وادِّعاءُ بطلانِ صلاة فاعله بحجَّة عَدَم ثبوتِ المسح على الجوارب وعَدَمِ جواز قياسه على الخفَّيْن؛ فهل من توجيه وبيانٍ مُفَصَّل؟
وجزاكم الله خيرًا.

■ **الجواب:**

إنَّ حُكْمَ المسح على الجَوْرَبَيْن مَحَلُّ خلاف بين أهل العلم:

فمَنْ ذَهَبَ إلى القول بعَدَم جوازِ المسح على الجوربين غير المجلَّدَيْن عَلَّلَ المَنعَ بأنَّ الجورب لا يُسَمَّى خُفًّا فلا يأخذ حُكْمَه؛ ذلك لأنَّ المسحَ على الخفِّ رخصةٌ بالنَّصِّ فوَجَبَ الاختصاصُ بما وَرَدَتْ فيه، وهو مذهبُ أبي حنيفة رحمه الله رَجَعَ عنه -[7]، ومذهبُ مالكٍ والشَّافعيِّ - رحمهم الله -.

وذَهَبَ الجمهورُ إلى جواز المسح على الجَوْرَبَيْن بشرط أَنْ يكونا غيرَ رَقيقَيْن وإنَّما صَفيقَيْن ساتِرَيْن لمَحَلِّ الفرض[8]، وعُمْدَتُهم في الاشتراط: القياسُ على الخُفِّ المُخرَّق في عَدَم جوازِ المسح عليه من جهة، ولأنَّ - من جهة أخرى - كُلَّ ما يُرى منه مَواضعُ الوضوءِ الَّتي فَرْضُها الغَسْلُ فإنَّه لا يُمْسَحُ عليه لأنَّه لا يجوز اجتماعُ غَسْلٍ ومَسْحٍ؛ فغُلِّبَ حكمُ الغَسْلِ وبَطَلَ حكمُ المسح.

أمَّا ما ذَهَبَ إليه أهلُ التَّحقيق فهو جوازُ المسح على الجوربَيْن مُطلَقًا ولو كانا رَقيقَيْن أو غيرَ صَفيقَيْن ساتِرَيْن لمَحَلِّ الفرض، وهو ظاهرُ مذهب ابن حزم وبه قال ابنُ تيمية والشَّنقيطي وغيرُهم[9]، وعُمْدَتُهم في تقرير هذا الحكم: حديثُ المُغيرة بن شُعْبَةَ رضي الله عنه قال: «تَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ عَلَى

(7) قال أبو عيسى التِّرمذي: «سمعتُ صالحَ بنَ محمَّد التِّرمذي قال: سمعتُ أبا مُقاتل السَّمرقندي يقول: دخلتُ على أبي حنيفةَ في مَرَضه الَّذي مات فيه، فدعا بماء فتَوَضَّأ وعليه جوربان، فمسح عليهما ثمَّ قال: «فَعَلْتُ اليومَ شيئًا لم أَكُنْ أَفْعَلُه: مَسَحْتُ على الجَوْرَبَيْن وهما غيرُ مُنَعَّلَيْن»» [«سنن التِّرمذي» (1/169)].

(8) انظر: «الإشراف» للقاضي عبد الوهَّاب (1/136)، «المجموع» للنَّووي (1/499)، «الفروع» لابن مُفْلح (1/128)، «فتح القدير» لابن الهُمَام (1/158).

(9) انظر: «المحلى» لابن حزم (2/86)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (21/184)، «أضواء البيان» للشَّنقيطي (2/16، 19).

الجَوْرَبَيْنِ وَالنَّعْلَيْنِ»[10]، ولأنَّه ثَبَتَ المسحُ على الجوربَيْنِ من غير اشتراط عن عدد كبيرٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم، قال أبو داود: «ومَسَحَ على الجوربَيْنِ: عليُّ ابنُ أبي طالب، وابنُ مسعود، والبراءُ ابنُ عازب، وأنسُ بنُ مالك، وأبو أُمامةَ، وسهلُ بنُ سعد، وعمرُو بنُ حُرَيْث، ورُوِيَ ذلك عن عُمَرَ بنِ الخطَّاب وابنِ عبَّاس»[11]، ولا يُعْلَمُ لهم من الصَّحابة رضي الله عنهم فيه مُخالفٌ فكان إجماعًا وحجَّةً على ما تَقَرَّرَ أصوليًّا[12]، كما أنَّه - من جهة أخرى - ثَبَتَ عن بعض الصَّحابة والتَّابعين أَنْ لا فَرْقَ بين الجَوْرَبَيْنِ والخُفَّيْنِ في التَّرخيص، أو هما بمَثابة الخُفَّيْن في الحكم، ومن هذه الآثار:

1. عن الأزرق بن قيس قال: «رَأَيْتُ أنسَ بنَ مالك أَحْدَثَ؛ فغسَلَ وجْهَه ويدَيْه ومَسَحَ برأسه، ومَسَحَ على جَوربَيْن من صوف؛ فقلتُ: «أَتَمْسَحُ عليهما؟» فقال: «إنَّهما خُفَّان ولكنَّهما من صوف»»[13].

2. وعن يحيى البَكَّاء قال: «سَمعتُ ابنَ عُمَرَ يقولُ: «المسْحُ على الجوربَيْن كالمسح على الخفَّيْن»[14].

3. وعن عَبَّاد بن رَاشد، قال: سألتُ نافعًا [مولى ابنِ عمر] عن المسح على الجوربَيْن فقال: «هما بمنزلة الخُفَّيْن»[15].

4. وعن عطاء قال: «المسحُ على الجوربَيْن بمنزلة المسح على الخفَّيْن»[16].

ولا يخفى أنَّ الجوربَ هو لباسُ القَدَم، سواءٌ كان مصنوعًا من القُطن أو الكتَّان أو الصُّوف أو غير ذلك، وفي هذه الآثار ردٌّ صريحٌ على مَن أبْطَلَ إلحاقَ الجَوْرَبَيْن بالخُفَّيْن، علمًا أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم هم أهلُ اللُّغة وأَفْقَهُ أهلِ الأرض، ناهيك إذا كان أَمْرُ المسح - من حيث جوازُه - مُجْمَعًا عليه في عصرهم رضي الله عنهم.

أمَّا الاحتجاجُ بأنَّ المسحَ على الخُفِّ ثَبَتَ رخصةً، والرُّخَصُ لا تتعدَّى مَحَلَّها؛ فجوابُه: أنَّ سببَ التَّرخيص إنَّما هو الحاجةُ وهي موجودةٌ في المسح على الجَوْرَبَيْن وغيرهما ممَّا هو من غير الجلد، فضلاً عن أنَّ هذا الاستدلالَ في حدِّ ذاته مُعارِضٌ للنَّصِّ والإجماع المُتقدِّمَيْن المُثْبِتَيْن لشرعيَّة المسح على الجَوْرَبَيْن.

وأمَّا اشتراطُ الجمهور السَّلامةَ من الخَرْق والتَّشقيق ونحوهما قياسًا على عَدَم جواز المسح على الخفِّ المخرَّق؛ فإنَّ هذا الشَّرط مُعارَضٌ بالأصل المقرَّر أنَّ: «كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ»[17] أوَّلاً، ومُنافٍ - ثانيًا - للإذن في المسح على الخفَّيْن مطلقًا؛ فكان شاملاً لكُلِّ ما وَقَعَ عليه اسْمُ الخفِّ كما هو ظاهرٌ من النُّصوص الحديثيَّة، ولا يَسَعُ أَنْ يُسْتثنى منه إلاَّ بمُسْتَنَدٍ شرعيٍّ وهو مُنْتَفٍ؛ وعليه لا يتمُّ القياسُ صحيحًا لاختلال شرط «ثبوت حكم الأصل المَقيس عليه»، و«إِذَا سَقَطَ الأَصْلُ سَقَطَ الفَرْعُ».

ومِنْ جهة ثالثة فإنَّ خفافَ الصَّحابة رضي الله عنهم لا تخلو من كونها مخرَّقةً ومشقَّقةً ومرقَّعةً، وهي السِّمَةُ الظَّاهرةُ بل الغالبةُ في لباسهم؛ فلو كان الخرقُ يمنع من المسح لَبيَّنه النبيُّ ﷺ لأنَّ المَقامَ مَقامُ بيان، و«تَأْخِيرُ البَيَانِ عَنْ وَقْتِ الحَاجَةِ لا يَجُوزُ» كما تَقَرَّرَ في القواعد، علمًا بأنَّ مِثْلَ هذه الشُّروط المُرْسَلة تُناقضُ مقصودَ الشَّارع الحكيم المُراعي للتَّيسير والتَّوسعة برفع الحرج والتَّضييق عن المُكلَّفين.

وحريٌّ أَنْ أَخْتِمَ هذه الفتوى بقول الألباني رحمه الله: «فبعد ثبوت المسح على الجَوْرَبَيْن عن الصَّحابة رضي الله عنهم، أفلا يجوز لنا أَنْ نقول فيمَنْ رَغِبَ عنه ما قاله إبراهيمُ [النَّخعي] هذا في مَسْحهم على الخفَّيْن: «فمَن تَرَكَ ذلك رغبةً عنه فإنَّما هو من الشَّيطان»[18]»[19].

قلتُ: فإذا كان التَّركُ رغبةً عنه من الشَّيطان؛ فقَدْ استفحل كيدُه فيمَنْ يُهَوِّلُ في إنكار المسح على الجَوْرَبَيْن إلى درجة إبطالِ صلاته به، والله المستعانُ.

والعلم عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.

---

(10) أخرجه أبو داود (159)، والتِّرمذي (99)، وابنُ ماجه (559) من حديث المُغيرة بن شُعْبَةَ رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (147).

(11) «سنن أبي داود» (113/1).

(12) انظر مسألةَ قول الصَّحابي إذا انتشر ولم يُعْلَمْ له مُخالفٌ في: «المسوَّدة» لآل تيمية (335)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (14/20)، «إعلام الموقِّعين» لابن القيِّم (120/4)، «شرح الكوكب المنير» للفتوحي (212/2، 422/4).

(13) أخرجه الدُّولابي في «الكُنى والأسماء» (1009)، وصحَّحه أحمد شاكر، انظر: [«سلسلة الآثار الصَّحيحة» للعبيلان (120)].

(14) أخرجه عبد الرزَّاق في «المصنَّف» (782)، وابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (1994)، وسندُه حسنٌ، انظر: تحقيق الألباني لـ: «المسح على الجوربَيْن والنَّعلين» للقاسمي (58).

(15) أخرجه ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (1992)، وسندُه حسنٌ، انظر: تحقيق الألباني لـ: «المسح على الجوربَيْن والنَّعلَيْن» للقاسمي (58).

(16) أخرجه ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (1991)، وسندُه صحيحٌ، انظر: تحقيق الألباني لـ: «المسح على الجوربين والنعلين» للقاسمي (67).

(17) حديث أخرجه - بهذا اللَّفظ - النَّسائي (3451)، وابنُ ماجه (2521) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه البخاريُّ (2168)، ومسلمٌ (1504)، بلفظ: «مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ [عَزَّ وَجَلَّ] فَهُوَ بَاطِلٌ».

(18) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (1885).

(19) تحقيق الألباني لرسالة «المسح على الجوربين والنعلين» للقاسمي (58).

من أعلام الأندلس

أبو عمر الطَّلَمَنْكي الأندلسي

المقرئ المحدِّث الأثري

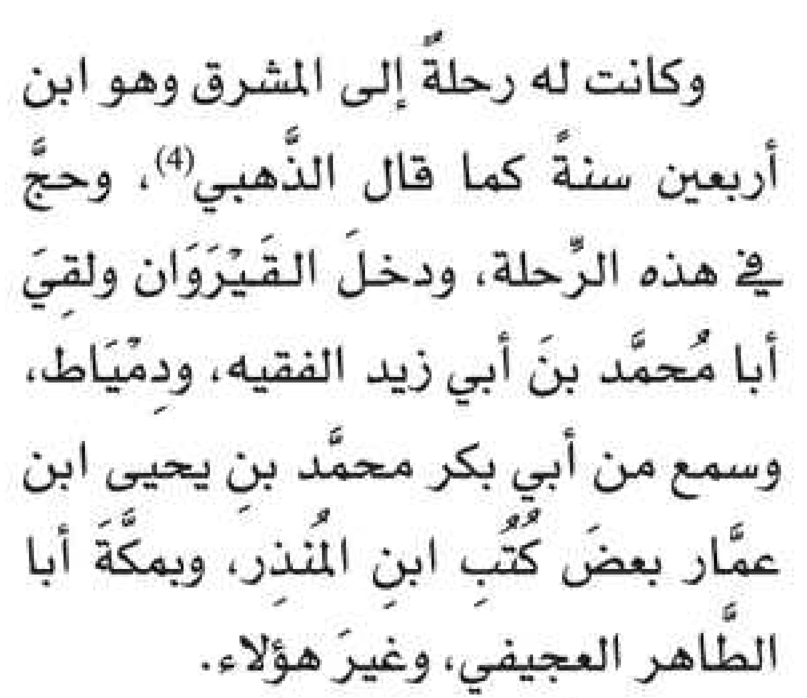
د.رضا بوشامة
أستاذ الحديث بجامعة الجزائر



هو أحمد بنُ مُحمَّد بن عبد الله ابن أبي عيسى. لُبّ. ابن يحيى بن محمَّد ابن قزلمان المَعَافري الأندلسي، المشهور بأبي عمر الطَّلَمَنْكي.

منسوبٌ إلى بلده الَّذي وُلِدَ به سنةَ (340هـ)، وطَلمَنْك أو طَلَمَنْكَة: بفَتَحات ونون ساكنة، كانت مدينةً بثَغر الأندلس الشَّرقي، بناها محمَّد ابنُ عبد الرَّحمن الأموي[1]، يقال لها بالإسبانية: (salamanqua)[2]، أو (salamanca)، تقع اليوم وسطَ شمال إسبانيا في مقاطعة قشتالة وليون (Castille-et-León) وتبعد عن العاصمة مدريد 212 كم.

كان أبو عمر الطَّلَمَنْكي قديمَ السَّماع والطَّلب، قال الذَّهبي: «وأوَّلُ سماعه سنة (362هـ)، وقد سمع مُوطَّأ يحيى ابن يحيى من أبي عيسى يحيى بن عبد الله سنة (362هـ) عن عمِّ أبيه عبيد الله بن يحيى بن يحيى، عن أبيه، عن مالك، وهذا إسنادٌ عالٍ جدًّا»[3].



وكانت له رحلةٌ إلى المشرق وهو ابن أربعين سنةً كما قال الذَّهبي[4]، وحجَّ في هذه الرِّحلة، ودخلَ القَيْرَوَان ولقيَ أبا مُحمَّد بنَ أبي زيد الفقيه، ودِمْيَاط، وسمع من أبي بكر محمَّد بن يحيى ابن عمَّار بعضَ كُتُب ابن المُنذِر، وبمكَّةَ أبا الطَّاهر العجيفي، وغيرَ هؤلاء.

قال ابنُ بشكوال: «رَحَلَ إلى المشرق فحجَّ، ...وانصرف إلى الأندلس بعلمٍ كثيرٍ»[5].

ولم يتوقَّفْ تجوالُه بعدَ رجوعه من المشرق بل دخلَ عِدَّةَ مُدُنٍ أندلسيَّةٍ نافعًا لأهلها وطلاَّبها.

قال ابنُ الحذَّاء: «سكنَ قُرطُبَة، وأقرأَ بها، ثمَّ سكن المريَّة، ثم مُرسِيَّة، ثمَّ سَرَقُسْطة»[6].

واشتغل بالإقراء والتَّحديث، فعُرِفَ بتَفنُّنِه في علوم الشَّريعة كما قال القاضي عياض: «اتَّسعت روايتُه وتفنَّن في علوم الشَّريعة، وغلب عليه القرآنُ والحديث»[7].

(1) «الرَّوض المعطار» (ص393)، «ترتيب المدارك» (32/8)، «سير أعلام النُّبلاء» (567/17)، «تاريخ الإسلام» (456/9).

(2) «الحُلل السُّندسيَّة» لشكيب أرسلان (205/1).

(3) كلام الذَّهبي في حاشية «الصِّلة» لابن بشكوال (84/1) كما أفاده مُحقِّقه، وانظر: «فهرس ابن عطيَّة» (ص130)، «السِّير» (567/17)، «تاريخ الإسلام» (456/9)، «تذكرة الحفَّاظ» (1098/3).

(4) أي قارب الأربعين؛ وقد سمع بمكَّة من إبراهيم ابن محمَّد الأبيوَرْدي (ت 379هـ)، وهو أعلى شيخ له، لقيَه بمكَّة، وكتب عنه جُزْءًا من حديثه، «تاريخ الإسلام» (465/8).

(5) «الصِّلة» (85/1).

(6) «ترتيب المدارك» (33/8).

(7) «ترتيب المدارك» (33/8).

فمن جانب علم القرآن: فهو من الأئمَّة المشهود لهم بذلك في كلِّ فنونه، وهو أوَّلُ مَنْ أدخَلَ القراءات إلى الأندلس على قول ابن الجزري[8]، فانتفع به أهلُها انتفاعًا عظيمًا.

قال ابن بشكوال: «كان أحدَ الأئمَّة في علم القرآن العظيم، قراآته وإعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه ومعانيه»[9]، وقال الذَّهبي: «كان عجبًا في حفظ علوم القرآن»[10].

فكان يُقرئ النَّاسَ ويؤمُّهم مُحتَسِبًا الأجرَ عند الله، والتزم الإمامةَ بمسجد مُتْعة بقرطبة، فانتفع النَّاسُ بعلمه وإقرائه[11].

ومن جانب الحديث: كان إمامًا حافظًا، له عنايةٌ بالحديث وعلومه ورجاله.

قال ابن بشكوال: «كانت له عنايةٌ كاملةٌ بالحديث ونقله وروايته وضبطه ومعرفة رجاله وحملته، حافظًا للسُّنن، جامعًا لها إمامًا فيها»[12].

ويدلُّ لذلك أنَّه كتب «صحيح البخاري» روايةَ ابن السَّكن أيَّامَ إقامَته بقُرطُبة لسماع العلم في مدَّة آخرُها سنةُ (374هـ)[13]، وكذلك فإنَّ ابنَ خَيْر الإشبيلي روى كُتُبًا في «فهرسته» في الحديث وما يتعلَّقُ به من طريق أبي عمر الطَّلَمَنْكي؛ كـ«كتاب فيه من حديث العبَّاس ابن الوَليد القَاضي عن شُيُوخه»، و«المغازي والسِّيَر» لمحمَّد بن إسحاق، وتواليف أبي سعد ابن الأعرابي، وغير ذلك.

وروى ابنُ عَطيَّة في «فهرسته» «مُسْنَدَ أبي بكر البَزَّار» من طريق الطَّلَمَنْكي، عن القاضي أبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن يحيى بن مُفرِّج عن مُحَمَّد بن يحيى الرَّقِّي المَعْرُوف بالصَّمُوت عن البَزَّار، و«مُسْنَد حَديث مَالك» للجوهري من طريقه ـ أيضًا ـ عن الجَوهَري مُؤلِّفه[14].

واعتنى بكتاب الحاكم أبي عبد الله في «علوم الحديث»، حتَّى رواه نازلاً عن مُؤلِّفه وكانا في عصر واحد، قال الذَّهبي: «ورأيتُ عجيبَةً وهي أنَّ مُحَدِّثَ الأندلُس أبا عمر الطَّلَمَنْكي قد كتب كتابَ «علوم الحديث» للحاكم في سنة تسع وثمانينَ وثلاثمائة، عن شيخ سمَّاه، عن رجلٍ آخر، عن الحاكم»[15].

وفي رحلته إلى المشرق سمع بمصر من عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم ابن أسد بن إدْريس الرَّازي، أبي القاسم الشَّافعي، قال: كتبتُ عَنهُ بمصْر أجزاءَ من حَديثه، وكتبتُ عَنهُ «أصُولَ السُّنَّة»، روايتَه عن أبي مُحَمَّد عبد الرَّحمن ابن أبي حاتم، وهو جزء»[16].

وأخذ عنه العلمَ كثيرٌ ممَّن صار يُشار إليه بالعلم والمعرفة؛ كابن عبد البَرِّ الأندلسي، وابن حَزْم الظَّاهري، وعبد الله بن سهل المُقرئ وغيرهم.

قال القاضي عياض: «حدَّث عنه الجلَّةُ سماعًا وإجازةً»[17].

ومن لطائف ما يُذكَرُ عنه؛ ما رواه تلميذُه أبو الوليد الوَقَّشي عنه أنَّه قال: «دخلتُ مُرسيَّة فتشبَّث بي أهلُها يسمعون عليَّ «غريبَ المصنَّف»، فقلتُ لهم: انظروا لي مَن يقرأ لكم وأُمسكُ أنا كتابي، فأتَوْني برجل أعمى يُعرَفُ بابن سِيدَه فقرأَهُ عليَّ من أوَّله إلى آخره فعجبْتُ من حفظه، وكان أعمى بنَ أعمى»[18].

ولمَا حباه اللهُ من علم واتِّساع الرِّواية والإمامة أثنى عليه كثيرٌ من العلماء من تلاميذه وغيرهم.

قال أبو عمرو الدَّاني المُقرئ: «كان خيِّرًا فاضلاً ضابطًا لما روى»[19].

وقال ابنُ الحصار الخولاني: «كان من الفضلاء الصَّالحين على هَدْي وسنَّة، قديمَ الطَّلَب والعلم، مُقدَّمًا في الفهم، مُجوِّدًا للقرآن، حسَنَ اللَّفظ به، فضائلُه جمَّةٌ من أن تُحصى»[20].

وقال حاتم الطَّرابُلسي تلميذُه: «كان أبو عمر من أهل العناية بالعلم والضَّبط له، وله علومٌ حسنة»[21].

وقال ابنُ الحذَّاء: «كان فاضلاً شديدًا في كتاب الله»[22].

وقال الحُمَيْدي: «كان إمامًا في القراءات مَذكورًا، وثقةً في الرِّواية مَشهورًا»[23].

وأكثَر الذَّهبيُّ من الثَّناء عليه ومدَحه فقال: «الإمامُ المُقرئُ المُحقِّقُ المُحدِّثُ الحافظُ الأثري... عالمُ أهل قُرطبة، كان من بحور العلم»[24].

وأمَّا أُسرَتُه فلم أَقفْ على كبير شيء، إلاَّ أنَّه ممَّا لا شكَّ فيه أنَّه تزوَّج

(8) «غاية النِّهاية» (115/1).
(9) «الصِّلة» (85/1)، «تاريخ الإسلام» (456/9).
(10) «السِّير» (567/17).
(11) انظر: «الصِّلة» (85/1)، «السِّير» (568/17)، «تاريخ الإسلام» (456/9).
(12) «الصِّلة» (85/1).
(13) «التكملة لكتاب الصِّلة» (140/3).
(14) «فهرست ابن عطيَّة» (ص131).
(15) «السِّير» (166/17)، «تاريخ الإسلام» (89/9).
(16) «طبقات الفقهاء الشَّافعيَّة» لابن الصَّلاح (509/1).
(17) «ترتيب المدارك» (32/8).
(18) «الصِّلة» (33/2)، «نكت الهميان في نُكَت العُميان» للصَّفدي (ص188)، وابن سِيدَه هو العالمُ اللُّغوي صاحبُ «المُحكَم».
(19) «ترتيب المدارك» (33/8)، «السِّير» (568/17).
(20) «ترتيب المدارك» (33/8).
(21) «ترتيب المدارك» (33/8).
(22) «ترتيب المدارك» (33/8).
(23) «جذوة المُقتبس» (ص166).
(24) «السِّير» (567.566/17)، و«تذكرة الحفَّاظ» (1098/3).

وأَنْجَبَ وكانت زوجَتُه ابنةَ أخي أبي جعفر بن عونِ الله، وكان أحدُ أولاده ممَّنْ أخذَ عنه وسمعَ عنه، واسمُه مُحمَّد ابنُ أحمد بن محمَّد أبو بكر الطَّلَمَنْكي، قال ابنُ الأبَّار: «شارك أباه في عدَّة من شيوخه الجلَّة، وأقرأ القرآنَ وحدَّثَ»، قال أبو عبد الله بن عبد السَّلام: «سألتُه أن يجيز لي جميعَ ما رواه وما استجاز له أبوه وما صنَّف ويُصنِّفه قال لي: نعم أجزتُ لك جميعَ ذلك»[25].

وزوَّج ابنتَه لسليمان بنِ إبراهيم ابن حمزة المَالَقي، قال ابنُ بشكوال: «كان مُجوِّدًا للقرآن عالمًا بكثيرٍ من معانيه، مُتصرِّفًا في فنون العربيَّة حسنَ الفهم خيِّرًا فاضلاً، وكان زوجًا لابنة أبي عُمَرَ الطَّلَمَنْكي، وروى عنه كثيرًا من رواياته وتواليفه»[26].

ومن مظاهر فضله وإمامته وديانَته أنَّه كان عارفًا بأصول الدِّيانات، ذا هدْيٍ واستقامة وسُنَّة، رادًّا على أهل الأهواء والبدع، شديدًا في السُّنَّة واتِّباع الأثر.

وبذلك ذكرَه مُترجموه، قال ابنُ بشكوال: «جمع كُتُبًا حِسانًا كثيرةَ النَّفع على مذاهب أهل السُّنَّة، ظهر فيها علمُه واستبانَ فيها فهمُه... كان سيفًا مُجرَّدًا على أهل الأهواء والبدع قامعًا لهم غيورًا على الشَّريعة شديدًا في ذات الله»[27].

وقال ابنُ الحذَّاء: «كان سيفًا على أهل البدع»[28].

وقال الذَّهبي: «صنَّف كُتُبًا كثيرةً في السُّنَّة، يلوح فيها فضلُه وحفظُه وإمامتُه واتِّباعُه للأثر»[29].

(25) «التَّكملة لكتاب الصِّلة» لابن الأبَّار (311/1).
(26) «الصِّلة» (275/1).
(27) «الصِّلة» (85/1)، «السِّير» (568/17)، «تاريخ الإسلام» (456/9).
(28) «ترتيب المدارك» (33/8).
(29) «السِّير» (567/17).

وقد ذكر أهلُ العلم له مُصنَّفات في شتَّى العلوم، وأكثرُها في أصولِ الدِّيانات وتفسيرِ القرآن، قال القاضي عياض: «ألَّف تواليفَ نافعةً كثيرةً كبارًا ومُختصَرةً احتسابًا»[30]، فمن ذلك:

1 . «الوصول إلى معرفة الأصول في مسائل العقود في السُّنَّة»[31].

جاء وصفُه في «مختصر الصَّواعق» بقوله: «فَذَكَرَ فيه من أقوالِ الصَّحابَة والتَّابعين وتابعيهم، وأقوالِ مالك وأئمَّة أصحابه ما إذا وقف عليه الواقفُ، علم حقيقةَ مذهب السَّلَف»[32].

2 . «الرِّسالة المختصرة في مذاهب أهل السُّنَّة وذكر ما دَرَج عليه الصَّحابة والتَّابعون وخيارُ الأُمَّة»[33].

3 . «الدَّليل إلى طاعة الجليل فيما تنطوي عليه الجوانح وتباشره بالعمل الجوارح»، وهو كتابُ يوم وليلة[34]، وسمَّاه عياض: «الدَّليلَ إلى معرفة الجليل وقال: في مائة جزء»[35].

4 . «الرَّوضة في القراءات»[36].

5 . «كتاب علم المصاحف»، ونقل منه أبو بكر اللَّبيب مواضع كثيرةً في شرحه على «العقيلة» وسمَّاه بقوله: «قال الطَّلمنكي في كتاب علم المصاحف»[37].

6 . «الفهرست» له أو «البرنامج»[38].

7 . «تفسير القرآن»، في نحو مائة جزء[39].

8 . «البيان في إعراب القرآن».

9 . «فضائل مالك».

10 . «رجال المُوطَّأ».

11 . «الرَّدُّ على ابن مَسَرَّة»[40].

(30) «ترتيب المدارك» (33/8).
(31) «الفهرست» لابن خير (ص319)، «ترتيب المدارك» (33/8).
(32) «مُختَصَر الصَّواعق» (889/2).
(33) «الفهرست» (ص320).
(34) «الفهرست» (ص360).
(35) «ترتيب المدارك» (33/8).
(36) «غاية النِّهاية» (110/1).
(37) «مُقدِّمة مختصر التَّبيين لهجاء التَّنزيل» (174/1).
(38) «الفهرست» لابن خير (ص528)، «تكملة الصِّلة» (107/4).
(39) يوجد نقلٌ منه في مكتبة الفاتيكان في أسطُر، وظنَّ مُفَهْرِسُ المكتبة بمركز الملك فيصل أنَّه كتابُ التَّفسير له، فذكره كذلك، فأخطأ، أفادني بذلك رفيقُ دربي في الطَّلب: الأستاذ عمَّار تَمَالْت. حفظه الله. الباحث في مركز الملك فيصل رَحِمَهُ اللهُ.
(40) هو محمَّد بن عبد الله بنِ مَسَرَّةَ بنِ نجيح البجلي، من أهل قرطبة، وتُنسَبُ إليه البدعةُ، فيُقال: بدعة ابنِ مَسَرَّةَ.
قال ابن الفرضي: «قال لي الخطَّاب بن مَسلَمَة: اتُّهِم بالزَّندقة فخرج فارًّا، وتردَّد بالمشرق مُدَّةً، فاشتغل بملاقاة أهلِ الجدل، وأصحاب الكلام والمعتزلة، ثمَّ انصَرَفَ إلى الأندلس فأظهر نُسكًا وورَعًا، واغترَّ النَّاسُ بظاهرِه، فاختلفوا إليه وسمعُوا منه، ثمَّ ظهر النَّاسُ على سوءِ مُعتَقَدِه، وفتح مذهبَه فانْقَبضَ مَنْ كان له إدراكٌ وعلمٌ، وتمادى في صُحبَتِه آخرون غلَبَ عليهم الجهل فدانوا بنِحلَته، وكان يقول: بالاستطاعة، وإنفاذِ الوعيد، ويُحرِّفُ التَّأويلَ في كثيرٍ من القرآن...»، إلى أن قال: «وقد ردَّ عليه جماعةٌ من المشرق...، ولأحمد بن خالد في الرَّدِّ عليه صحيفةٌ أخبرنا بها عنه أبو محمَّد الباجي».
وقال الحميدي: «نُسِبَت إليه بذلك مقالاتٌ نعوذ بالله منها»، انظر: «تاريخ العلماء» (41/2)، «جذوة المقتبس» (ص94)، «أخبار الفقهاء والمُحدِّثين (ص178).
تنبيه: خلط الحافظُ الذَّهبي بين ابنِ مَسَرَّةَ هذا ووَهْبِ بنِ مسَرَّةَ ابنِ مُفَرِّج بنِ حكم التَّميمي أبي الحزم المُحدِّث السُّنِّي، فألزق به بدعةَ الاعتزال، وقال: «وقد كان منه هفوةٌ بالقدر، نسأل الله السَّلامةَ».
وقال أيضًا: «قال الطَّلَمَنْكي في ردِّه على الباطنيَّة: ابنُ مسرَّةَ ادَّعَى النُّبوَّةَ، وزعم أنَّه سَمِعَ الكلامَ، فثبت في نفسه أنَّه من عند الله»، قال الذَّهبي: «ليس هذا من قبيل ادِّعاء النُّبوَّة، بل من قبيلِ الغلط والجهل» [«السِّير» (558.557/15)].
وقال أيضًا: «قال القاضي عياض: كان حافظًا للفقه بصيرًا به وبالحديث والرِّجال والعلل مع وَرَعٍ وفضلٍ، دارت عليه الفتيا ببلده... بدت منه هفوةٌ في القدر» [«تذكرة الحفَّاظ» (890/3)].
كذا قال الذَّهبي، وتابعه على اتِّهام وهبٍ بالقدر: ابنُ حجَرٍ فقال في ترجمة محمَّد بنِ مُفَرِّج القرطبي: «قال ابنُ الفرضي: تُرِكَ؛ لأنَّه كان يدعو إلى بدعة وهب بنِ مَسرَّة، ووهبٌ كان قدريًّا» [«اللِّسان» (387/5)].
وقال في ترجمة وهب (231/6): «من العلماء بالفقه والحديث، تكلَّم في شيءٍ من القدر فعابوا =

ذكر هذه الكتُبَ القاضي عياض في «ترتيب المدارك».

وممَّا يُؤسَفُ له أنَّ مثلَ هذه الكتب الجليلة كان ينبغي أن يكثر بها النَّسْخ، فتنتفع بها الأجيالُ، خاصَّةً أنَّها في بيان ما كان عليه علماءُ المالكيَّة والأندلس من عقائدَ صحيحة مُوافقَة لطريقة الصَّحابة والتَّابعين وأهلِ الأثر، فلم يَبْقَ منها إلاَّ نُقولاتٌ نَقَلَها بعضُ أهلِ العلم الغَيُورين على السُّنَّة كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذِه ابنِ القيِّم والذَّهبي وغيرهِم رحمهم الله جميعًا، وأكثَرُ هذه النُّقولِ في إثبات صفات الله تعالى كالاستواء والنُّزول والمجيءِ الَّتي أثبَتَها اللهُ في كتابه، ونبيُّه محمَّدٌ ﷺ في سُنَّته، وأجمعَ عليها الصَّحابةُ والتَّابعُون والأئمَّةُ المرضيُّون.

= عليه، وتبعه جماعة على مقالته».

وهذا الكلام الَّذي نقله الحافظان ليس في شيء من كُتُب تراجم الأندلسيِّين، فلم يَتَّهِمْ أحدٌ منهم وهبَ بنَ مسرَّةَ الحافظَ السُّنِّيَّ بما ذُكِرَ، والخطأُ والغلطُ والوهمُ في ذلك من الذَّهبي وابن حجر؛ اختلط عليهما وهبُ بنُ مسرَّةَ الحافظ بمحمَّد بن عبد الله ابن مسرَّةَ البجلي المعتزلي الَّذي ردَّ عليه أبو عمر الطَّلَمَنْكي.

ومن الغريب أنَّ الذَّهبي نقل عن القاضي عياض كلامَه في وهب ابن مسرَّةَ كما تقدَّمَ، وقال: «بدت منه هفوةٌ في القدر»، وهذا لا شكَّ أنَّه من الذَّهبي، مع أنَّ القاضي عياضًا قال بعد ذلك الكلام المنقول: «وله كتابٌ في السُّنَّة وإثبات القدر والرُّؤية والقرآن» [«ترتيب المدارك» (165/6)].

وأمَّا نقلُ الحافظ ابن حجر عن ابن الفَرَضي في ترجمة محمَّد ابن مُفَرِّج أنَّه كان يدعو إلى بدعة وهب بن مسرَّة، فهو نقلٌ بما فهمه الحافظان، وليس كذلك، بل الَّذي قاله ابنُ الفَرَضي: «كان يعتقد مذهبَ ابن مسرَّة ويدعو إليه»، كما في «تاريخ العلماء» (84/2)، ومذهب ابن مسرَّة إذا أُطلقَ عند الأندلسيِّين يتَّجه إلى محمَّد بن عبد الله بن مسرَّة المعتزلي المبتدع، لا إلى المحدِّث السُّنِّي وهب بن مسرَّة، واللهُ الموفِّق.

وهذا كلُّه لا يَحُطُّ من مكانة الحافظَيْن الجليلَيْن الذَّهبي وابن حجر، فالغلطُ لا يَسلَمُ منه أحدٌ، وكل عالم مُعرَّضٌ للوهم ولو نزرًا.

وانظر: «نماذج من أوهام المشارقة في الرُّواة المغاربة» (ص25) للغماري.

فمن تلكم النُّقول النَّافعة:

1. في الإيمان:

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية: «كَذلِكَ ذَكَرَ أَبُو عمر الطَّلَمَنْكي إِجْمَاعَ أَهلِ السُّنَّة على أَنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ ونيَّةٌ وإصابةُ السُّنَّة»[41].

2. المجيء:

قال ابنُ تيمية: «قال أبو عُمر الطَّلَمَنْكي: أجمعوا ـ يعني: أهلَ السُّنَّة والجماعة ـ على أنَّ اللهَ يأتي يومَ القيامة والملائكةَ صفًّا صفًّا لحساب الأمم وعرضِها كما يشاء وكيف يشاء؛ قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: 210]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]»[42].

3. النُّزول:

قال ابن تيمية: «قال ـ أي أبو عمر ـ: وأجمعوا على أنَّ اللهَ يَنْزِلُ كلَّ ليلة إلى سماءِ الدُّنيا على ما أَتَتْ به الآثارُ كيف شاء، لا يحدُّون في ذلك شيئًا»[43].

4. الاستواء والعلوُّ:

نقل ابنُ تيمية وابنُ القيِّم قولَه في الاستواء في مواضعَ عدَّة من كتُبهما، وأشملُ نَقْلٍ ما ذكره شيخُ الإسلام في «شرح حديث النُّزول»، فقال: «قال أبو عمر الطَّلَمَنْكي: وأجمعوا ـ يعني أهلَ السُّنَّة والجماعة ـ على أنَّ لله عرشًا، وعلى أنَّه مُستوٍ على عرشِه، وعلمَه وقدرتَه وتدبيرَه بكلِّ ما خلقه...».

قال: «وقال أهلُ السُّنَّة في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه]: الاستواءُ من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز، واستدلُّوا بقول الله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: 28]، وبقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: 13]، وبقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: 44]، إلاَّ أنَّ المتكلِّمين من أهل الإثبات في هذا على أقوال: فقال مالك رحمه الله: إنَّ الاستواءَ معلومٌ، والكيفَ مجهولٌ، والإيمانَ به واجبٌ، والسُّؤالَ عنه بدعةٌ.

وقال عبدُ الله بنُ المبارك ـ ومَنْ تابَعَه من أهل العلم، وهم كثيرٌ ـ: إنَّ معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]: استقرَّ، وهو قولُ القُتَيْبي، وقال غيرُ هؤلاء: استوى أي ظَهَرَ، وقال أبو عبيدة مَعمَرُ بنُ المُثنَّى: استوى بمعنى: علا، وتقولُ العرب: استوَيْتُ على ظهر الفرس، بمعنى: علوتُ عليه، واستوَيْتُ على السَّطح بمعناه، وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، وقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، وقال: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾، وقال: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بمعنى علا على العرش قولٌ حَسَنٌ، وقولُ مالك مِنْ أنْبَلِ جواب وقعَ في هذه المسألة وأشَدِّه استيعابًا؛ لأنَّ فيه نبذَ التَّكييف وإثباتَ الاستواء المعقول، وقد ائتَمَّ أهلُ العلم بقوله واستجودُوه واستحسنوه»[44].

5. المعيَّة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قال الطَّلَمَنْكي أحدُ أئمَّة المالكيَّة ـ قبلَ ابن عبد البرِّ والباجي وطبقتهما ـ في كتاب

(41) «مجموع الفتاوى» (332/7)، «الإيمان» (ص260).

(42) «المجموع» (578/5)، «شرح حديث النُّزول» (ص458).

(43) «مجموع الفتاوى» (578/5)، «شرح حديث النُّزول» (ص188).

(44) «شرح حديث النُّزول» (ص390ـ391)، «بيان تلبيس الجهميَّة» (186/1) و(398/3)، «درء التَّعارض» (250/6)، «مجموع الفتاوى» (219/3ـ260) و(519/5)، «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» لابن القيِّم (142/2)، «الصَّواعق المرسلة» (1284/4)، «العلو للعليِّ العظيم» للذَّهبي (1315/2).

«الوصول إلى معرفة الأُصولِ»: «أجمعَ المسلمون من أهل السُّنَّة على أنَّ معنى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4] ونحوُ ذلك من القرآنِ: أنَّ ذلك علمُهُ وأنَّ اللهَ فوقَ السَّمواتِ بذاتِه مُستوٍ على العرشِ كيف شاءَ»[45].

6. معنى القرب:

قال ابن تيمية: «قال أبو عمر الطَّلَمَنْكي ومَن سأل عن قوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق]، فاعْلَمْ أنَّ ذلك كلَّه على معنى العلم والقدرة عليه، قال: والدَّليل على ذلك صدرُ الآية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق]؛ لأنَّ اللهَ لمَّا كان عالمًا بوسوسته كان أقربَ إليه مِن حبلِ الوريد، وحبلُ الوريد ما يَعْلَم ما توسوس به النَّفس، ويلزمُ المُلحِدَ على اعتقادِه أن يكونَ معبودُه مُخالطًا لدم الإنسان ولَحمه وأن لا يُجرِّد الإنسانُ تسميتَه المخلوقَ حتَّى يقولَ خالقٌ ومخلوقٌ؛ لأنَّ معبودَه بزعمه داخلُ حبلِ الوريد من الإنسان وخارجُه، فهو على قولِه مُمتزِجٌ به غيرُ مُباينٍ له.

قال: وقد أجمَعَ المسلمون من أهل السُّنَّة على أنَّ اللهَ على عرشه بائنٌ من خلقه تعالى اللهُ عن قولِ أهلِ الزَّيغِ علوًّا كبيرًا.

قال: وكذلك الجوابُ في قوله فيمن يَحضُرُه الموتُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة]، أي بالعلم به والقدرة عليه؛ إذ لا يَقدرُون له على حيلة ولا يَدفعُونَ عنه، وقد قال الله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11] انتهى كلامُه»[46].

7. القاعدة في إثبات الصِّفات:

قال الذَّهبي: «قال الحافظُ الإمَام أبو عمر أحمد بنُ محمَّد بنِ عبدِ الله الأندلسي الطَّلَمَنْكي المالكي في كتاب «الوصول إلى معرفة الأُصُول» وهو مُجلَّدان: «...فقد قال قومٌ من المعتزلة والجهميَّة: لا يجوزُ أن يُسمَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهذه الأسماءِ على الحقيقة ويُسمَّى بها المخلوقُ، فنَفَوْا عن الله الحقائقَ من أسمائه وأَثْبَتُوها لخَلقه.

فإذا سُئلوا: مَا حملهم على هذا الزَّيغ؟ قالوا: الاجتماع في التَّسمية يُوجِبُ التَّشبيه!

قلنا: هذا خروجٌ عن اللُّغة الَّتي خوطِبْنا بها؛ لأَنَّ المعقولَ في اللُّغَة أنَّ الاشتباهَ في اللُّغة لا يَحصُلُ بالتَّسمية، وإنَّما تَشتبه الأشياءُ بأَنفُسِها أو بهَيْئَات فيها؛ كالبياض بالبياض، والسَّواد بالسَّواد، والطَّويل بالطَّويل، والقصير بالقصير، ولو كانت الأسماءُ تُوجِبُ اشتباهًا لاشتبهت الأشياءُ كلُّها؛ لشمُول اسم الشَّيء لها، وعمومُ تسميةِ الأشياء به.

فنسألهم: أتقولون إنَّ اللهَ موجودٌ؟ فإن قالوا: نعم، قيل لهم: يلزَمُكم على دعواكم أن يكون مُشبَّهًا للموجودين، وإن قالوا: موجودٌ ولا يُوجِبُ وجودُه الاشتبَاهَ بينَه وبين الموجودات، قلنا: فكذلكَ هو حيٌّ عالمٌ قادرٌ مُريدٌ سَميعٌ بَصيرٌ مُتكلِّمٌ - يعني - ولا يَلْزمُ اشتباهُه بمن اتَّصفَ بهذه الصِّفَات»[47].

8. الرَّدُّ على الباطنيَّة:

وألَّف كتابًا في الرَّدِّ على الباطنيَّة.

فقال: «ومنهم قومٌ تعبَّدوا بغيرِ علم، وزعمُوا أنَّهم يرَوْن الجنَّةَ كلَّ ليلة، ويأكُلون من ثمارِها، وتنزلُ عليهم الحورُ العِينُ، وأنَّهم يلوذُون بالعرشِ، ويرَوْنَ اللهَ بغير واسطة ويجالسونَه»[48].

9. معنى إحصاء الأسماء الحسنى:

قال ابنُ حجر: «قال أبو عمر الطَّلَمَنْكي: مِنْ تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته الَّتي يَستحِقُّ بها الدَّاعي والحافظُ ما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، المعرفةُ بالأسماء والصِّفات وما تتضمَّنُ من الفوائد وتدلُّ عليه من الحقائق، ومَنْ لَمْ يَعلَمْ ذلك لمْ يَكُنْ عالمًا لمعاني الأسماء ولا مُستفيدًا بذكرِها ما تدُلُّ عليه من المعاني»[49].

وكلامُ الطَّلَمَنْكي في أصول السُّنَّة مُوافقٌ لعقيدة أهل الأثر، إلَّا أنَّ الذَّهبي نبَّه على بعض ما وقع في كتابه في أصول السُّنَّة من مآخذ.

فقال: «رأيتُ له كتابًا في السُّنَّة في مجلَّدَيْن عامَّتُه جَيِّد، وفي بعض تبويبه ما لا يوافَقُ عليه أبدًا؛ مثل: باب الجنبِ لله، وذكرَ فيه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 56] فهذه زلَّةُ عالم»[50].

قلتُ: مسألةُ الجَنبِ هل هي من آيات الصِّفات أم لا؟ مسألةٌ تناولها أهلُ السُّنَّة بالبيانِ، والصَّوابُ أنَّها ليسَتْ من آياتِ الصِّفات، والمرادُ بالجَنْبِ في الآيةِ حقُّ الله تعالى.

قال شيخُ الإسلام: «لا يُعرَفُ عالمٌ مشهورٌ عند المسلمين، ولا طائفةٌ

---

(45) انظر المصادر السَّابقة.

(46) «بيان تلبيس الجهميَّة» (6/24-26)، «شرح حديث النُّزول» (ص379).

(47) «العلوُّ للعليِّ العظيم» (2/1315).

(48) «السِّير» (17/569).

(49) «فتح الباري» (11/226).

(50) «السِّير» (17/569).

مشهورةٌ من طوائف المسلمين، أثبتوا لله جنبًا نظيرَ جَنْبِ الإنسان[51]، وهذا اللَّفظُ جاء في القرآن في قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ فليس في مُجَرَّدِ الإضافة ما يَستلزِمُ أنْ يكونَ المضافُ إلى الله صفةً له، بل قد يُضافُ إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتِّفاق الخلق؛ كقوله: بَيْت الله، وناقَة الله، وعِبَاد الله، بل وكذلك رُوح الله عند سلف المسلمين وأئمَّتهم وجمهورهم، ولكن إذا أُضيفَ إليه ما هو صفةٌ له وليس بصفة لغيرِه؛ مثل كلام الله، وعلم الله، ويد الله، ونحو ذلك؛ كان صفةً له.

وفي القرآن ما يُبيِّنُ أنَّه ليس المرادُ بالجَنْبِ ما هو نَظيرُ جنب الإنسان؛ فإنَّه قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، والتَّفريطُ ليس في شيءٍ من صفات الله ﷻ، والإنسانُ إذا قال: فلانٌ قد فرَّط في جنبِ فلانٍ أو جانبِه؛ لا يريدُ به أنَّ التَّفريطَ وقعَ في شيءٍ من نفس ذلك الشَّخص، بل يريدُ به أنَّه فرَّطَ في جهته وفي حَقِّه.

فإذا كان هذا اللَّفظُ إذا أُضيفَ إلى المخلوق لا يكون ظاهرُه أنَّ التَّفريطَ في نَفْسِ جَنْبِ الإنسانِ المُتَّصلِ بأضلاعه، بل ذلك التَّفريط لم يلاصقْه؛ فكيف يُظَنُّ أنَّ ظاهرَه في حقِّ الله أنَّ التَّفريطَ كان في ذاته؟!»[52].

ولمَّا كان الطَّلَمَنْكي ذابًّا عن السُّنَّة، مُبيِّنًا لعقيدةِ أهلِ الأثر، رادًّا على أهلِ الأهواء والبدعة شديدًا في ذلك عُودِيَ واتُّهِمَ بما هو بريءٌ منه كما هي عادةُ المخالفين في اتِّهام أهلِ الحقِّ والافتراء عليهم، فقامَ عليه جماعةٌ من أهل سَرَقُسْطَة وكتبوا رَسمًا أَوْقَعوا فيه شهاداتهم بأنَّه مخالفٌ للسُّنَّة، واتَّهموه وجماعةً معه بسفك الدِّماء وأنَّهم حَروريَّةٌ وكان هو رأسَهم، قال الذَّهبي: «وقد امتُحِنَ لفَرط إنكاره، وقام عليه طائفةٌ من أضداده، وشهدُوا عليه بأنَّهُ حروريٌّ يرى وضعَ السَّيْف في صالحي المسلمين، وكانَ الشُّهودُ عليه خمسَةَ عَشَرَ فقيهًا»[53].

ذكر جماعةٌ منهم ابنُ بشكوال وابنُ الأبَّار، منهم: رافع بن نصر بن رافع بن غربيب، وعمُّه محمَّد بنُ رافع، والحسنُ ابنُ محمَّد بن هالس وجماعة، اجتمعوا في بيت رافع وكتبوا رسمًا بذلك[54].

لكنْ نصره الله تعالى بقاضي الجماعة محمَّد بن عبد الله بن فرتون أبي عبد الله السَّرَقُسْطي.

قال ابنُ الأبَّار: «هُوَ الَّذي انتصر لأبي عُمَر الطَّلَمَنْكي من الشُّهَدَاء عليه بأنَّهُ حروريٌّ سَفَّاكٌ للدِّماء يرى وضعَ السُّيوف على صالحي المسلمين فأسقط شهاداتهم وكانوا خَمْسَةَ عَشَرَ من الفقهاءِ والنُّبَهاءِ بسَرَقُسْطة، وأسجل بذلك على نفسه في سنة خمس وعشرين وأربَعمائة»[55].

فشاور المُفتين بسَرَقُسْطة فأسقطوا شهادات المُتألِّبين، وذكر ابنُ الأبَّار عددًا ممَّن أفتى بإسقاط شهاداتهم، منهم: عبدُ الله بنُ ثابت السَّرَقُسطي حفيدُ قاسم بن ثابت صاحب «الدَّلائل»، ويونس ابن يوسف، وسعيد بنُ محمَّد، ومحمَّد ابنُ يحيى السَّرقسطيُّون وغيرُهم[56]، فكتبوا بذلك نسخةَ العقد المتَّسم ببراءة أبي عُمَر الطَّلَمَنْكي وإسقاط شهادة الَّذين نَسبُوه إلى مخالفة السُّنَّة[57]، فأسقطَ شهاداتهم القاضي وقمع تلك الجماعةَ مُمتعِضًا للطَّلَمَنْكي وداحضًا عنه ما ألصَقُوه به ونسبوه إليه[58].

وبعد هذه الحادثة قصد أبو عمر بلدَه طلَمَنْكة في آخرِ عمُرِه بعد طول التَّجوُّل والاغتراب، مُرابطًا في الثَّغر ونافعًا لأهلها، فتُوُفِّيَ بها صَدْرَ المُحرَّم سنة (429هـ) وقيل في ذي الحجَّة سنةَ ثمان وعشرين، والأمرُ قريب، وقد قارب التِّسعين سنةً وصحِبَه ذِهنُه[59]، وكان حريصًا على نفع غيرِه وتعليمِهم إلى آخر حياتِه.

قال ابنُ بشكوال: «أخبرني أبو القاسم إسماعيل بنُ عيسى بن محمَّد الحجَاري، عن أبيه قال: خرج علينا أبو عُمر الطَّلَمَنْكي يومًا ونحن نقرأ عليه، فقال: اقرؤوا وأكثِروا؛ فإنِّي لا أتجاوزُ هذا العامَ، فقلنا له: ولِمَ يرحَمُكَ اللهُ؟ فقال: رأيتُ البارحةَ في منامي مُنشِدًا يُنشِدُني:

اغتَنِموا البِرَّ بشيخٍ ثَوَى
تَرحَمُه السُّوقَةُ والصِّيدُ
قد خَتَم العمرَ بعيدٍ مَضَى
ليسَ له مِن بَعدِه عيدُ

قال: فتُوُفِّيَ في ذلك العام[60] رحمه الله رحمةً واسعةً وأسكنه جنَّاته، وأظهَرَ لنا علومَه ومُصنَّفاته.

---

(51) أي القول بتشبيه جَنْبِ الله بجَنْبِ الإنسان كما هو ظاهر كلام شيخ الإسلام، لا نفي من جعل الآية من آيات الصِّفات.

(52) «الجواب الصَّحيح» (416/4).

(53) «السِّير» (568/17)، «تاريخ الإسلام» (456/9).

(54) انظر: «الصِّلة» (260/1)، «التَّكملة لكتاب الصِّلة» (117/1، 130، 152، 207، 310).

(55) «التَّكملة» (310/1).

(56) انظر: «التَّكملة» (220/1، 311) (241/2، 244) (87/3، 113) (114/4).

(57) «التَّكملة» (220/1).

(58) «التَّكملة» (310/1).

(59) انظر: «الصِّلة» (85/1)، «ترتيب المدارك» (33/8)، «السِّير» (568/17).

(60) «الصِّلة» (86/1).





القبس المنير من أسانيد الإمام ابن باديس رَحِمَهُ اللهُ

أشرف جلال بن أودينة
مرحلة الدكتوراه ـ جامعة الجزائر

الحمدُ لله الَّذي خصَّ هذه الأمَّةَ بالرِّواية، وشرَّفَها بالإسناد، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خيرِ العباد، المبعوثِ بالهداية والرَّشاد، وعلى آله وصحبِه أهلِ الدِّراية والسَّداد، أمَّا بعدُ:

فقد كان من سُنَّة علماءِ الحديث، طلبُ الإجازة في القديم والحديث، حرصًا على بقاءِ الإسناد، ومحافظةً على الشَّريعة الغرَّاءِ إلى يومِ التَّناد، وهي الَّتي نُسيَتْ في مغربِنا بهذه الأعصر، واكتفى أهلُه عن البسط بالحصر، وأهملوا السَّنَدَ والإجازةَ، وحسبوا أنَّ العلمَ بمجَرَّدِ التَّدريسِ والحيازة[1].

فكان من العلماءِ الَّذين وفَّقَهُم اللهُ للعناية[2] بحديث رسول الله ﷺ روايةً ودرايةً الإمـامُ المصلحُ المجدِّدُ باني النَّهضَتَيْنِ العلميَّةِ والفكريَّةِ بالجزائر عبدُ الحميد ابنُ باديس القسنطيني السَّلفي رَحِمَهُ اللهُ.

هـذا؛ وقد وقفتُ خلالَ البحث والدِّراسة على إجازات الشَّيخ الحديثيَّة وأسانيده إلى أئمَّة القراءة، فأردتُ ـ بتوفيق الله ـ أن أكتُبَ عن ابنِ باديس رَحِمَهُ اللهُ باعتباره مُحدِّثًا مُسندًا، وقبلَ أن نقف على هذا القَبَس المُنيرِ من أسانيد ابنِ باديس، أزُفُّ لك ـ أيُّها القارئُ المُوَفَّقُ ـ كلمةً تُكتَبُ بماء العيون، ينبغي لدعاة السُّنَّة والخير أن يجعلوها نُصبَ أعيُنِهم، ألقاها الإمامُ على طُلاَّبِ العلم بمناسبة ختم الدُّروسِ العلميَّة[3] بمسجد سيدي قموش بقسنطينة، وكان ممَّا قال لهم رَحِمَهُ اللهُ:

«اشعروا بأنَّكم جنودُ الله في نشرِ العلم والهداية وسلاحكم الكتابُ والسُّنَّةَ وهديُ السَّلفِ الصَّالحِ، من قَبِلَ منكم فهو أخُوكُم، ومَنْ أَبَى فلا تَعُدُّوه عدوًّا بل هو أخٌ في الإسلام، لا تكونوا كذوي فكرةٍ يريدون تنفيذَها، كونوا كدعاة للخير يُحبُّون لغيرهم ما يُحبُّون لأنفسهم، لا ترَ منكُمُ الأمَّةُ إلاَّ الاستقامةَ في أقوالكم وأفعالكم، لا يَرَ منكُمْ حُكَّامُ بلداتِكم إلاَّ السِّيرَةَ النَّظيفةَ.

اقتصروا على نَشرِ العلم والهداية، لا تتداخلُوا في أمورِ الحُكم والمَخزَن، مَنْ تعرَّضَ لأشخاصكم فسامحوه، ومن تعرَّضَ لنشرِ العلمِ والهداية بالحقِّ قاوموه...»، ثمَّ تلا عليهم إجازَتَه في القراءَاتِ السَّبْعِ وسَرَدَ أسانيدَه فيها تيَمُّنًا بها.

فقد كان ابنُ باديس رَحِمَهُ اللهُ حريصًا على إسناد العلم، وقد أخذ عن أكابر مُسنِدي علماءِ عَصرِه وأعيانِهم، وأجازُوهُ في الرِّواية عنهم، وقد حصل له ذلك في رحلته للحجِّ وطلبِ العلم سنةَ 1323هـ الموافق: 1913/1914م، فأجازه بمدينة رسول الله ﷺ: شيخه الشَّيخُ مُحمَّد حمدان الونِّيسي، والشَّيخ

(1) من كلام ابن رحمون في «الدُّر والعقيان».

(2) ومن ذلك قوله رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّنا نعرفُ عَقليَّةَ الرَّجُل من معرفتنا بالكتب الَّتي يُطالعها، فمن لا نرى له عنايةً بكتب السُّنَّة فإنَّنا لا نَثِقُ بعلمه في الدِّين» «الآثار ـ قسم الرحلات» (2/297).

(3) ينظر جريدة «السُّنَّة النَّبويَّة المُحمَّديَّة» السَّنة الأولى (العدد9 ص6).

أحمد الفيض آبادي الهندي، والشَّيخ محمد العزيز الوزير التُّونسي.

وعند عودته إلى أرض الوطن مرورًا بمصرَ أجازه بالإسكندريَّة الشَّيخُ أبو الفضل الجيزاوي،كما أجازه بالقاهرة الشَّيخُ مُحمَّد بخيت المطيعي.

■■■

وفي صيف 1338هـ الموافق: 1920م، زار الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ جامعَ الزَّيتونة فأجازه الشَّيخُ محمَّد بن يوسف بتونس.

ودونك. أيُّها المُوفَّق. بعضًا من الإجازات الَّتي ظَفرَ بها في القرآن والحديث:

أوَّلاً: سند ابن باديس في القراءات.

ختم الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ على الشَّريف ابن سعيد المقراني، القرآنَ العظيمَ بقراءات الأئمَّة السَّبعَة أثناءَ دراسَته بجامع الزَّيتونة، وأجازه في قراءة القرآن روايةً؛ إفرادًا وجمعًا، بقراءات الأئمَّة السَّبع من طريق «حرْز الأماني» و«غيث النَّفع»، وقد وقَفْتُ على إجَازَتَيْن خَطِّيَّتَيْن في دفتر شهادات[4] ابنِ باديس رَحِمَهُ اللهُ، هذه إحداهما:



«الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلام على سيِّدنا مُحمَّد خاتَم النَّبيِّين، وإمام المُرسَلين، وعلى آله وأصحابه والتَّابعين، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، وبعدُ:

فإنَّ الفقيهَ النَّبيهَ، العاقلَ، المشاركَ، الفَطِنَ، ابنَنَا المذكورَ أعلاه ممَّن لازم الحضورَ مع الفقير لمولاه بدرس التَّجويد بقراءات الأئمَّة السَّبعة مُبتَدئًا ممَّا انتهى إليه بصحيفة 24، إلى أن منَّ ربُّه الرَّبُّ الكريمُ بختم القرآن العظيم كلِّه بقراءات الأئمَّة المذكورين . نفعَ اللهُ بهم أجمعين .، وخَتَمَ لنا وله بالسَّعادة والغُفرَان، بحرمة[5] نبيِّ الرَّحمة سَيِّد ولد عدنان، وذلك كلُّه مع الاعتناء والمواظبة والاجتهاد، بلَّغه الله ما أراد، وكتب في رجب عام 1331.

□□□

ثانيًا: الإجازات الحديثيَّة.

ومجموعها ستُّ إجازات خَطِّيَّة من المشايخ السَّالف ذكرُهم مُثبَتَة كذلك في دفتر شهادات الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ، نقف في هذا المقال على إجازَتَيْن،منها: إجازة الشَّيخ حمدان الونيسي، وإجازة الشَّيخ مُحمَّد بخيت المطيعي.

1. إجازة الشَّيخ محمَّد حمدان الونيسي (ت 1920):





أجازه بالمدينة شهر فيفري (1914)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدُك اللَّهُمَّ على نِعَمك ونَشكُرُك على عميم كرمك، ونُصلِّي ونُسلِّم على مَنْبَع الكمالات، سيِّدنا محمَّد المُرسَل بالآيات البَيِّنَات، وعلى آله سفائن النَّجاة المُرسَلات، وأصحابه ذوي

---

(4) للوقوف على ما يتعلَّق بمرحلة التَّحصيل والتَّكوين للشَّيخ، ينظر «وثائق جديدة عن جوانب خفيَّة في حياة ابن باديس الدِّراسيَّة»، للدُّكتور عبد العزيز فيلالي، مؤسسة الإمام الشَّيخ عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللهُ.

(5) سُئلَت اللَّجنة الدَّائمة عن: «مسلم يشهد أن لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله، ويقول في دعائه: اللَّهُمَّ أعطني كذا وكذا من خَيْرَي الدُّنيا والآخرة، بجاه النَّبيِّ ﷺ، أو ببركة الرَّسول، أو بحرمة المصطفى، أو بجاه الشَّيخ التِّيجاني، أو ببركة الشَّيخ عبد القادر، أو بحرمة الشَّيخ السَّنُوسي، فما الحكم؟

فأجابوا: «من توسَّل إلى الله في دعائه بجاه النَّبيِّ ﷺ أو حرمته أو بركته أو بجاه غيره من الصَّالحين أو حرمته أو بركته، فقال: (اللَّهُمَّ بجاه نبيِّكَ أو حرمَته أو برَكَته أعطني مالاً وولدًا أو أدخلني الجنَّةَ وقني عذابَ النَّار) مثلاً، فليس بمُشرك شركًا يُخرِجُ عن الإسلام، لكنَّه ممنوعٌ سدًّا الذريعة الشِّرك، وإبعادًا للمسلم من فعل شيء يُفضي إلى الشِّرك.

ولا شكَّ أنَّ التَّوسُّلَ بجاه الأنبياء والصَّالحين وسيلةٌ من وسائل الشِّرك الَّتي تُفضي إليه على مرِّ الأيَّام، على ما دلَّت عليه التَّجارب وشهدَ له الواقع، وقد جاءت أدلَّةٌ كثيرةٌ في الكتاب والسُّنَّة تدُلُّ دلالةً قاطعةً على أنَّ سَدَّ الذَّرائعَ إلى الشِّرك والمُحرَّمات من مقاصد الشَّريعة.... ولأنَّ التَّوسُّلَ بالجاه والحرمة ونحوهما في الدُّعاء عبادة، والعبادة توقيفيَّةٌ، ولم يَرِدْ في الكتاب ولا في سنَّة الرَّسول ﷺ ولا عن أصحابه ما يَدُلُّ على هذا التَّوسُّل، فعُلِمَ أنَّه بدعة...» [«فتاوى اللَّجنة الدَّائمة» (1/501 . 502)].

الفضائل المُسلسَلات، وبعد:

فإنَّه لمَّا كان العلمُ محطَّ الرِّحال، ومنتهى الآمال، ومَشرقَ السَّعادة، وأُفُقَ السِّيادة، وكان من جملة مَنْ قرأ علينا واستفاد، وامتاز بصفة العلم والإدراك بين الأنداد، ابنُنا الفقيهُ الأجلُّ الشَّيخُ سيِّدي عبد الحميد بن الشَّيخ ابن باديس، وكنت أجَزْتُه مشافهةً إذ كنت بالأقطار الجزائريَّة - أعادها الله دار إسلام - ولمَّا أردتُ مُبارَحتَها، أوصيْتُ أباه الأجلَّ، سيِّدي محمَّد المصطفى، بأن يُرسلَه إلى تونس، يُكملُ قراءتَه ويَشفي علَّته، ويُطفئُ حرارَتَه، فتمَّ مرادُه ولله الحمد، وحصَّل ورجع إلى بلده قسنطينة، لإفادة طُلَّاب العلم ومريدي صحيح الإدراك والفهم، ثمَّ في هذه السَّنَة جاء حاجًّا إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبره[6] - عليه الصَّلاة والسَّلام -، ومكث عندنا بالمدينة المُنوَّرَة إلى مولده ﷺ، ولمَّا عزم على السَّفر إلى مسقط الرَّأس، حيث المُستَقرُّ، طَلَبَ من الفقير أن يُسَطِّرَ له ما كان شفاهًا ليَتمَّ له المقصودُ من الإجازة، ويكمُلَ بَهَاهَا،فقلتُ بعد الاستخارة، وأنا الفقيرُ الَّذي لا حولَ لي ولا قولَ، تَطفُّلاً على موائد الكرام ذوي المفاخر العظام، عسى الله أن ينفعني بهم وإيَّاه فإنَّهم أهلُ القُرَب والجاه: قد أجزتُ ابنَنا المذكور، في كلِّ ما عندي في المعقول والمنقول، والفروع والأصول، إجازةً عامَّةً مُطلَقَةً، بشرط أن يُعطيَ من التَّأمُّل والبَحث كلَّ مسئلة حقَّهَا، ومن بيانها وتوضيحها واجبَهَا ومُستَحَقَّها، وأن يُفوِّضَ العلمَ لله في كلِّ ما لم يصلْ إليه علمُه، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

وإنِّي أروي التَّفسير والحديث والفقه والأصول وسائر العلوم الآلية عن شيخنا العلاَّمة سيدي أبي المواهب عبد القادر القسنطيني، ابن الإمام أبي محمَّد الشَّيخ سيدي عبد الله المجاوي، أطال الله حياته آمين، عن شيخه سيدي صالح الشاوي، وخاتمة المُحقِّقين سيدي محمَّد قنون الفاسيَّيْن بسندهما، وعن جميع مشيخة قسنطينة الذين أدركتهم، وعن غيرهم من جِلَّة المشايخ بالمغارب والمشارق، وأخصُّ منهم العلاَّمةَ حافظَ الحجاز الشَّيخَ سيدي فالح بن مُحمَّد الظَّاهري الحجازي رَحِمَهُ الله، فإنَّه أجازني بجميع ما في ثبته[7] المحتوي على أسانيد الكتب الست وغيرها من كتب الحديث، وعلى أسانيد الفقه إلى الأيمة الأربعة - رضي الله تعالى عنهم -، وعلى سند كتب من الأصول إلى أربابها، وكذلك الكثير من كتب العلوم الآلية، فرحم الله مؤلفه، وجزاه خيرًا، آمين.

فليصل ابننا المجاز نفسه برجال الثَّبت وليقل أنبأنا فلان، أعني الفقير المجيز عن صاحب الثبت إلى آخره، وإنيّ أوصي الفقيه المجاز بتقوى الله وطاعته، وأحذِّرُه وإيَّاي من معصيته ومخالفته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، وأن لا ينساني من دعواته في خلواته وجلواته، فإنَّ دعاءَ المؤمن لأخيه المؤمن عن ظهر الغيب مستجاب، والله المُوفِّقُ للصَّواب، وإليه المرجع والمآب،والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدنا محمَّد أفضل من خرَّ لربِّه راكعًا وأناب، وعلى آله وأصحابه، حلفاء السَّيف والبذل والصَّوم والمحراب.

تحريرًا في الثالث عشر من ربيع الأنور عام 1332 اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف من هجرة من هو على أكمل وصف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

2 - إجازة الأستاذ محمد بخيت المطيعي وعليها خط الشيخ ابن باديس:

الحمد لله الذي استجاز من استجازه إلى مجاز الحقيقة، واستخار

(6) قال الإمام مالك رَحِمَهُ الله: «أكره أن أقول زرت قبر النَّبيِّ ﷺ».
قال شيخ الإسلام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ الله: «لا يجوز السَّفرُ بقصد زيارة قبر النَّبيِّ ﷺ أو قبر غيره من النَّاس في أصحِّ قَوْلَي العلماء لقول النَّبيِّ ﷺ: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ ومَسْجِدِي هَذَا، والمَسْجِدِ الأقْصَى» مُتَّفق عليه، والمشروع لمن أراد زيارةَ قبر النَّبيِّ ﷺ وهو بعيدٌ عن المدينة أن يَقصِدَ بالسَّفَر زيارةَ المسجد النَّبوي فتدخل زيارةُ القبر الشَّريف وقبر أبي بكر وعمر والشُّهداء وأهل البقيع تبعًا لذلك» ينظر: حكم السَّفر لزيارة قبر النَّبيِّ ﷺ ضمن «مجموع فتاوى ابن باز» (337/8).

(7) «حسن الوفا لإخوان الصَّفا» أسانيد الحسيب النَّسيب العلاَّمة الكامل المُحدِّث أبي النَّجاح وأبي اليُسر محمَّد فالح بن مُحمَّد بن عبد الله ابن فالح المهنوي الظَّاهري (1258 - 1328 هـ)، طُبع في مطبعة شركة المكارم بالإسكندريَّة (سنة 1323 هـ).

من استخاره فهداه إلى أحسن طريقة، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّد المؤمنين ومُعتَمَدِهم وعُمدَتِهم، الَّذين استمَدُّوا مدَدَهم من مدده في جميع مددهم، وعلى آله وأصحابه الّذين حملوا سُنَّتَه ورعَوْها حقَّ رعايَتِها، وحفظوها عنه ورووها، فرَوَوْا منها، ثم رواها عنهم حق روايتها،صلاة وسلامًا دائمَيْن بدوام ملك الله الأبدي، وبعدُ؛

فإنِّي قد استخرتُ الله وأجزت حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ: عبد الحميد بن باديس القسطنطيني من أعمال الجزائر المغربية بكل مرويَّاتِي، من معقولٍ ومنقولٍ ومؤلَّفات، بها أجازاني كذلك شيخنا المرحوم الشيخ عبد الرحمن الشَّربيني الشَّافعي، شيخ الجامع الأزهر، عن شيخه الشيخ إبراهيم السَّقَّا الشافعي عن شيخه الشيخ محمد الأمير الصغير عن والده الشيخ محمد الأمير الكبير بسنده الشهير،وعن شيخنا الشيخ أحمد الرفاعي المالكي عن شيخه الشيخ إبراهيم السَّقَّا بسنده المذكور، وعن شيخه الشيخ أحمد (الرِّفَاعي) المالكي، عن شيخه الشيخ محمد الأمير الصغير عن والده المذكور.

وأَمَرْتُه بتقوى الله تعالى في السِّرِّ والعَلَنِ، واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن،إنَّه سبحانه وليُّ التَّوفيق، وبالإجابة جدير وحقيق.

كتبه الفقير إلى الله تعالى محمَّد بخيت المطيعي الحنفي بالأزهر غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وإخوانه وجميع المسلمين آمين.

[قال ابن باديس]:

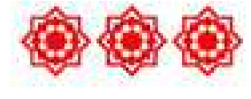
منَّ اللهُ تعالى بهذه الإجازةِ من شَيخِنَا العلاَّمةِ المذكورِ ليلةَ السَّبتِ بمنزله بحُلوان من أرض مصر لليلة خلت من شهر ربيع الآخر عام 1332، وكتب المجاز المذكور.

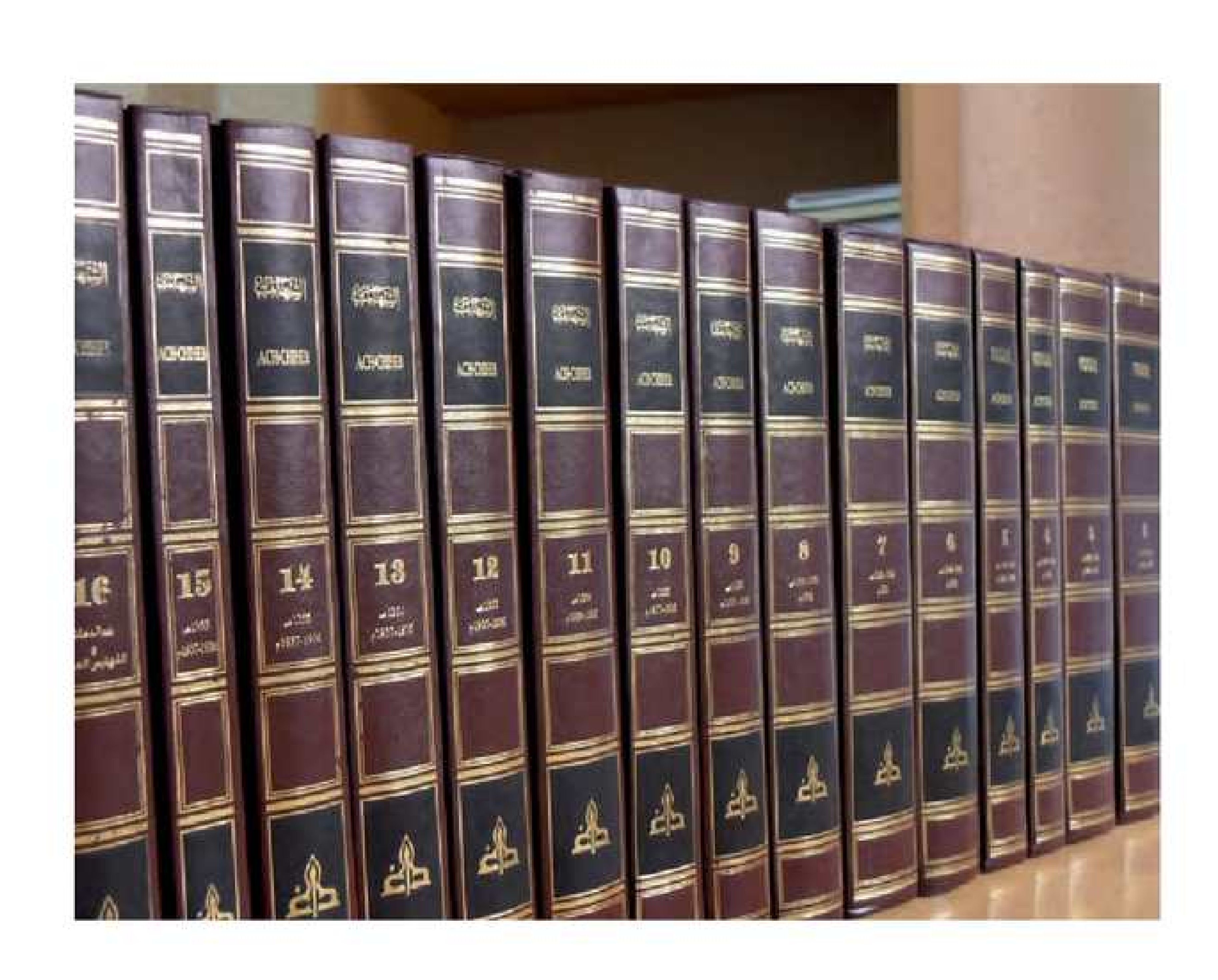
■■■

وبهذا القبس من إجازات ابن باديس رَحِمَهُ اللهُ، نقف أيها القارئ الموفق على بعض ما يتصل به الإمام من أسانيد إلى كتب الفهارس والأثبات والمعاجم والمشيخات، يسر الله إتمام تخريجها في ثبتٍ مستَقِلٍّ،واقتناص ما فيها من فوائد والتنبيه على ما قد يقع فيها من مزالق والله الموفق.

■■■

وفي ختام هذا المقام أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفقنا للعناية بكتابه وحديث رسوله ﷺ وأن يرزقنا فيهما فهما ودراية وصلى الله على محمد وآله وسلَّم.





العدوان على بنت عدنان

محمد تبركان
ليسانس في علوم الشريعة - الجزائر

إن اللغة العربية خير ما جهدت النفوس لتحصيلها، والظفر بها، بعد كتاب الله تعالى، وحديث رسوله ﷺ؛ وقد درج العلماء في القديم والحديث على الإشادة بها في الدفاتر والمحافل، وفي حلقات الدرس وعلى أعواد المنابر، وصنّفوا في ذلك ما لا يُحصى من الأسفار؛ ولا غرو في ذلك فهي لسان الوحي المقدس، اصطفاها المولى جل وعلا لأفضل رسله، وخاتمة رسالاته، قال ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [سورة يوسف]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [سورة الزخرف]، وقال: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [سورة فصلت].

ومع ذلك فها هو سيل العجمة قد فشا في الناس فُشُوَّ النَّار في الهشيم، وداءُ اللَّحْن واللُّكْنَة قد سَرَى في الأُمَّة سَرَيَان الدَّم في العروق؛ حتَّى عقد ألسن خاصَّة النَّاس بله عامَّتهم، واستوطن حواضرهم فكيف ببواديهم؛ وما ذلك إلا نتيجة الزهد في تعلم العربية، لغة وأدبا، واللهث وراء لغة الأعاجم من غير تبصُّر ولا تفكُّر، فكأني بهم قد تواصوا بمنابذة سنن العرب، ومجاراة رطانة العجم.

نعم، لقد تهاون الكثيرون في تعلّمها، بل تعلّم الحد الأدنى من رسومها وقواعدها، وآخرون لا يبالون بما يقعون فيه من أخطاء وأغلاط؛ ويستروحون إلى دعوى الاهتمام بالمعنى من حيث تبليغه، فإن وصل إلى المتلقي، كان ذلك هو الغرض الأساس؛ ومن ثمَّ استجازوا لأنفسهم وغيرهم التساهل - إلى حد التفريط - بشأن اللغة العربية من حيث التحدث بها؛ حتَّى أوصلهم ذلك إلى تبنّي اللهجة العامية، وسيلةً للتخاطب والتواصل، بين الأساتذة والطلبة على مقاعد الدراسة، وفي مدرجات الجامعة، وبلغ السيل الزبى حين استشرى هذا الداء إلى عقول بعض المثقفين فانعكس جليا في كتاباتهم على صفحات الجرائد، وقصص الأطفال والروايات وغيرها، هذه الروايات التي أثقلت بها رفوف المكتبات من غير أن تعرف طريقها إلى القراء؛ لأسباب عدة لعل من أهمها كونها كتبت بلغة فجة، لم يستسغها كل من يَمُتُّ إلى العربية بسبب.

فإذا كان المعنى المراد تبليغه قد وصل إلى المتلقي عن طريق جارحة اللسان أو ما يخطه القلم من البيان والهذيان؛ لم يعبؤوا بعده كيف كان ذلك الاتصال، أَبِلُغَةِ الوحيين تمَّ، أم بِلُغَةِ السَّفلَة والرعاع والسوقة حصل، إنهم يعتبرون العربية وسيلة كسائر وسائل نقل الخطاب! ويسوُّون بينها وبين سائر لهجات الناس التي ولدت وترعرعت في الأزقة والطرقات! وهم - لما يترتب عن هذا المذهب في درك ما يحدق بهم وبهويتهم وثقافتهم ودينهم من أخطار وويلات في الدنيا والآخرة - في غفلة ساهون.

فمن هذه الويلات وتلك الأخطار أننا جميعا نرى في هذا العصر، ونسمع بخطباء - إلاَّ القليل منهم - على أعواد المنابر نصَّبُوا أنفسهم لوعظ النَّاس وإرشادهم، درجوا على اللَّحن، حتَّى أَلِفَت الأسماعُ أغلاطَهم وزَلاَّت ألسنتهم، بل لقد تمادوا في ذلك حتَّى أضحى الغلطُ ديدنَهم، والخطأ شعارهم الَّذي يُعرَفُون به، وهم مع ذلك كله لا تكاد ترى الواحد منهم يسعى لإصلاح ما انخرق من لسانه كما يسعى لرتق لباسه وإصلاح معاشه؟!

فحريٌّ بك - أيها اللبيب - أن تعرف

للعربية خطرها[1] لتقف بعد على شرفها وعظيم قدرها؛ وهذا باعتبار تعلقها بأشرف موجود وهو القرآن كلامُ ربِّ العالمين، التي نزل بها الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ على سيد الخلق ﷺ بلسان عربي مبين؛ فالجهل بهذا اللسان ذريعة للجهل بهذه الشريعة، وفي ذلك من الفساد والخراب ما لا يخفى.

أقول: ليت الأمر انحصر في عامة الناس وأشباههم من أنصاف المثقفين، إذًا لهان الأمر؛ ولكنه استفحل شره، وتطاير شرره؛ ليصيب المثقفين، وطلبة العلم، بل وبعض الخاصة من أعلام العصر، ومن يُشار إليهم بالبنان، ولا عجب في ذلك فقد كان هذا من قديم، ولِـدَرْءِ شـرِّه صنف الحريري القاسم بن علي كتابه «درَّة الغوَّاص في أوهام الخواص».

قال ابن جنِّي في «الخصائص» (11/2): «واستمر فساد هذا الشأن مشهورا ظاهرًا؛ فينبغي أن يُستوحش من الأخذ عن كل أحد، إلا أن تقوى لغته، وتشيع فصاحته، وقد قال الفرَّاء في بعض كلامه: إلا أن تسمع شيئًا من بدوي فصيح فتقوله»، و«قال أحمد بن يحيى: كان هذا مقدار أهل العلم، وبحسبه كانت الرغبة في طلبه والحذر من الزلل، قال صاحب «الريحان والريعان»: فكيف لو أبصر بعض كتاب زماننا هذا؟

قلت: قد كان ذلك في زمانه هو، وفي الناس بعض الرمق، والعلم ظاهر، وأهله مكرمون، وإلا فلو عُمِّر إلى زماننا نحن؛ لقال: تلك أمة قد خلت»[2].

قلت: فكيف لو امتدت أنفاسه، وانفتحت أذناه وعيناه عن زماننا، إذًا لما قال: تلك أمة قد خلت.

«واعلم أنَّ اللَّحنَ قد فشا في الناس، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب عيبا، والنطق بالكلام الفصيح عيًّا»[3].

حقًّا، إنَّما آفةُ العصر فشوُّ اللَّحنِ، وتمادي الأمرِ واستفحالُه حين ظهر من المذاهب الأدبيَّة الداعية إلى التَّحرُّر من قيود اللُّغة، وترك اللِّسان ليجري على سجيته في التعبير عما يختلج في النفس، ويضمره القلب؛ فالعبرة عندهم بالغاية التي لأجلها كان الكلام والكتاب، وهي إيصال الرسالة إلى المتلقي، ولا عبرة بالوسيلة، إلا إذا كانت مؤدية إلى الغاية من الخطاب أو الكتاب.

«قلت: والذي يقتضيه حال الزمان، والجري على منهاج الناس؛ أن يحافظ على الإعراب في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وفي الشعر، والكلام المسجوع، وما يدوَّن من الكلام، ويكتب من المراسلات، ونحوها، ويُغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس، الدائر على ألسنتهم مما يتداولونه بينهم، ويتحاورون به في مخاطباتهم، وعلى ذلك جرت سنة الناس في الكلام، مذ فسدت الألسنة، وتغيرت اللغة...»[4].

❁❁❁

ولا بأس بتذكير من غفل عن معرفة ما يعتبر من لغة العرب؛ حتى نحفظ للعربية رونقها، وندفع عنها كل ما من شأنه أن يشوه جمالها، ويسلب عنها أصالتها.

فيقال:

إن اللغة العربية لا تعتبر إلا ب:

1 ـ الرواية عن فصحاء العرب في زمن الاعتبار، أعني: قبل فشو اللحن، ففي البوادي كان ذلك في آخر المئة الرابعة (نهاية القرن الرابع الهجري)، وفي الحواضر كان ذلك في آخر المئة الثانية (نهاية القرن الثاني من الهجرة).

2 ـ بالنقل عن العلماء العدول من حفظة اللغة ورواة الأشعار.

وعليه؛ فاللغة الفصيحة يعتبر فيها صحة الوضع، أو القياس على النظائر مما ثبت بالوضع عن فصحاء العرب، أو عدول اللغة.

وقد قيل قديما: إذا رويت فالصحة، وإذا نقلت فالأمانة، قال الشاعر:

ونُصَّ الحديثَ إلى أهله
إنَّ الأمَـانـةَ فـي نَـصِّـه

❁❁❁

إنني ـ وكل غيور ـ أبغي للغتنا العربية أن تستعيد مكانتها في أمتنا أوَّلاً، وبين سائر أمم الأرض ثانيا؛ لتتربع على عرش الشموخ والعزة، كما كانت في سالف الزمان، وغابر الأيام، فلا تدور دواليب العلوم إلا بمفرداتها، ولا يجري على الناس إلا ضادها.

وأبغي لها النقاء والصفاء والجلاء؛ لأنها ـ لله درها ـ مرآة الوحي المقدس؛ إذ لا سبيل إليه إلا من خلالها، فهي بوابة الشريعة، فمن رام الدخول من غيرها من لغات الأرض ضل سبيله، وأخطأ عن قصد طريقه، قال في «صبح الأعشى» (205/1): «قال صاحب «الريحان والريعان»: ولم يزل الخلفاء الراشدون بعد النبي [ﷺ] يحثون على تعلم العربية وحفظها والرعاية لمعانيها

(1) أعني: منزلتها، وذا من معاني: الخطر.
(2) «صبح الأعشى» (208/1).
(3) «صبح الأعشى» (210/1 ـ 211).
(4) «صبح الأعشى» (211/1).

إذ هي من الدين بالمكان المعلوم والمحل المخصوص».

وأبغي «أن نطهر لغتنا العربية، لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، ولسان السلف الصالح، من نجس الأخطاء، لا أقول اللغوية - فاللغة منها براء، ولا يجب أن ننسب هذه الأخطاء إليها؛ إنما يجب أن تنسب إلى هؤلاء الجاهلين، فنقول: أخطاء الجاهلين أو جاهلي اللغة...»[5].

ومن شواهد هذه الأخطاء، وأمثلة تلك الأغلاط، ما انطوت عليه صحائف أهل العلم، ودفاتر أرباب الأدب والشعر، من أخبار وقصص؛ تشهد بمجموعها على أصحابها بالجهل بأسهل قواعد هذه اللغة الشريفة؛ مما جعلهم على تعاقب الأجيال، واختلاف الحدثان، سمرَ المُجَّانِ، وضحكةَ النُّدَماء والخِلاَّن.

❁❁❁

فإليك - أيها الكريم - أسوق بعض هذه الأخبار؛ علَّك تجمُّ بها نفسك، وتتعلم منها درسك، فاللبيب من وُعِظَ بغيره.

☐ قدم أعرابي[6] في زمان عمر [ابن الخطاب رضي الله عنه] فقال: من يقرئني مما أنزل الله على محمد [ﷺ]، قال: فأقرأه رجل ﴿براءة﴾، فقال: «أن الله بريء من المشركين ورسوله» بالجر، فقال الأعرابي: أوقد برئ الله من رسوله؟! إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه.

فبلغ عمر مقالة الأعرابي؛ فدعاه فقال: يا أعرابي، أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ قال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة ﴿براءة﴾، فقال: «أن الله بريء من المشركين ورسولِه»، فقلت: أوقد برئ الله من رسوله، إن يكن الله برئ من رسوله؛ فأنا أبرأ منه.

فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي، قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾.

فأمر عمر بن الخطاب ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي فوضع النحو.

☐ وقرأ آخر[7]: «إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ»، برفع الأول، ونصب الثاني، فقيل له: يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحدا! فتَنَبَّهَ لذلك وتَفَطَّنَ له».

☐ ومن ذلك قصة أبي الأسود الدؤلي مع ابنته، قال ابن عساكر[8]: «ويقال إن ابنته قالت له يوما: يا أبت، ما أحسنُ السَّماء، [فقال لها] أَيْ بُنَيَّة نجومها، قالت: إني لم أُرِدْ أيَّ شيء منها أحسن؛ إنما تعجبَّتُ من حُسنِها، قال: إذًا تقولي: ما أحسنَ السَّماء؛ فحينئذ وضع كتابًا.

☐ ويقال[9] إن ابنته قالت له: يا أبت، ما أشدُّ الحرِّ (في يوم شديد الحر)، فقال لها: إذا كانت الصقعاء من فوقك، والرمضاء من تحتك، فقالت: إنَّما أريد أنَّ الحرَّ شديد، قال فقولي: ما أشدَّ الحرَّ.

☐ وكتب[10] الحصين بن الحرِّ كتابا إلى عمر، فلحن في حرف فيه؛ فكتب إليه عمر أن قَنِّعْ كاتبك سوطًا.

☐ ومرَّ عمر بن الخطاب[11] رضي الله عنه بقوم يرمون نبلا؛ فعاب عليهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا قوم متعلمين، فقال: لحنكم أشدُّ عليَّ من سوء رميكم، سمعت رسول الله [ﷺ] يقول: «رحم الله امرأ أصلح من لسانه»[12].

☐ وكان ابن عمر[13] يضرب بنيه على اللحن، ولا يضربهم على الخطأ.

☐ وعن نافع[14]، قال: «كان ابن عمر يضرب ولده على اللحن».

☐ ومر عمر بن الخطاب[15] [رضي الله عنه] برجلين يرميان، فقال أحدهما للآخر: أَسَبْتَ؛ فقال عمر: «سوء اللحن أشدّ من سوء الرمي».

☐ وأخرج ابن أبي شيبة (29926) بسنده إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «تعلموا اللَّحن والفرائض؛ فإنه من دينكم».

❁ **ومن قصص الخلفاء والأمراء:**

☐ قال الوليد[16] لرجل: من خَتَنَكَ؟ قال: الحجام! فضحك القوم، وخجل الوليد؛ إنما أراد أن يقول: من ختنُك.

☐ وروى العتبي[17] عن أبيه قال: استأذن رجل من جند الشام - له فيهم قدر - على عبد الملك بن مروان وهو يلعب الشطرنج، فقال: يا غلام غطِّها؛ هذا

(5) «تطهير اللغة» (ص5. المقدمة).
(6) «تاريخ دمشق» (25/191 - 192)، و«صبح الأعشى» (1/206)، وفي «الخصائص» لابن جني (2/8) عن علي رضي الله عنه.

(7) «صبح الأعشى» (1/206).
(8) «تاريخ دمشق» (25/190).
(9) «تاريخ دمشق» (25/190).
(10) «الخصائص» (2/8)، و«صبح الأعشى» (1/208)، و«البيان والتبيُّن» (1/321) واللفظ له.

(11) «اتفاق المباني وافتراق المعاني» (1/137)، وفي «محاضرات الأدباء» (1/1/67) عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه.
(12) «الضعيفة» (5/432 رقم 2414).
(13) «اتفاق المباني» (1/137).
(14) «صحيح الأدب المفرد» (680).
(15) «الأدب المفرد» (باب الضرب على اللحن: رقم 881)، وأورده الألباني في «ضعيف الأدب المفرد» (137).
(16) «محاضرات الأدباء» (1/1/66).
(17) «اتفاق المباني» (1/137).

شيخٌ له جلالةٌ، ثمَّ أَذِنَ له، فلمَّا كلمه وجدَه يَلحَنُ؛ فقال يا غلام، اكشفها؛ فليس للاَّحِنِ حُرمَةٌ.

□ ودخل[18] على عبد العزيز ابن مروان رجل يشكو صهرًا له، فقال: إن ختني فعل بي كذا وكذا، فقال له عبد العزيز: من ختَنَك؟ فقال له: ختنني الختَّان الَّذي يختن النَّاس، فقال عبد العزيز لكاتبه: ويحَكَ، بما أجابني؟ فقال له: أيُّها الأمير، إنَّك لَحَنْتَ، وهو لا يَعرفُ اللَّحنَ، كان ينبغي أن تقول له: ومَنْ خَتَنُكَ؟ فقال عبد العزيز: أراني أتكلم بكلام لا يعرفه العرب؛ لا شاهدت الناس حتى أعرف اللحن، قال: فأقام في البيت جمعة لا يظهر، ومعه من يعلمه العربية، قال: فصلى بالناس الجمعة وهو من أفصح الناس.

□ وقال بعضهم[19]: ارتفع إلى زياد [ابن أبيه] رجل وأخوه في ميراث، فقال: إن أبونا مات وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله، فقال زياد: الذي أضعت من لسانك أضرُّ مما أضاعه أخوك من مالك، وأما القاضي فقال: فلا رحم الله أباك، ولا نَيَّحَ[20] عظم أخيك، قم في لعنة الله.

أخبار متفرِّقة:

□ وحكى العسكري[21] في كتاب «التَّصحيف» أنه قيل لبعضهم: ما فعل أبوك بحماره؟ فقال: باعِه، فقيل له: لم قلت باعِه؟ قال: فلم قلت أنت: بحمارِه؟ قال: أنا جررته بالباء، فقال: فلم تجر باؤك، وبائي لا تجرُّ؟!

□ ومثله من القياس الفاسد ما حكاه أبو بكر التاريخي[22] في كتاب «أخبار النحويين» أن رجلا قال لسَمَّاكٍ بالبصرة: بكم هذه السَّمَكة؟ فقال: بدرهمان، فضحك الرُّجل، فقال السماك: أنت أحمق، سمعتُ سيبويه يقول: ثمنُها درهمان.

□ وقال ابن هشام[23]: ترد الجملة الاسمية الحالية بغير واو في فصيح الكلام، خلافا للزمخشري، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، فقال بعض من حضر: هذه الواو في أولها!

□ وقلت يومًا[24]: الفقهاء يلحنون في قولهم: «البايع» بغير همز، فقال قائل: فقد قال الله تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾.

□ وقال رجل للحسن[25]: يا أبي سعيد! فقال له: كسب الدوانيق شغلك عن أن تقول: يا أبا سعيد.

□ وسمع أعرابي[26] رجلا يقول: أشهد أن محمدا رسول الله، بفتح (رسولَ الله)؛ فتوهَّم أنه نصبه على النَّعت؛ فقال يفعل ماذا؟

□ وقال رجل لآخر[27]: ما شانَك، بالنَّصب، (وهو يريد شأنُك) فظن أنه يسأله عن شَيْنٍ به، فقال: عظم في وجهي.

□ وقال رجل لأعرابي[28]: كيف أهلِك، بكسر اللام، وهو يريد السُّؤال عن أهله، فتوهم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه؛ فقال: صلبًا.

□ وقيل لرجل[29]: من أين أقبلتَ؟ فقال: من عند أهلونا، فحسده آخر حين سمعه، وظن ذلك فصاحة، فقال: أنا أعلم من أين أخذها؛ من قوله [تعالى:] ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ فأضحك كل منهما من نفسه.

□ وقال رجل[30] لأبي العيناء: أتأمر بشيأ؟ فقال: نعم، بتقوى الله، وحذف الألف من «شيأ».

□ وقال رجل لآخر[31]: ما اشتريت؟ قال: عسل، فقال: هلا زدت في عسلك ألف؟ فقال: وأنت هلا زدت في ألفك ألفا.

□ ودخل الخليل[32] [ابن أحمد] على مريض نحوي وعنده أخٌ له، فقال [الأخ] للمريض: افتح عيناك وحرك شفتاك؛ إن أبو محمد جالسا، فقال الخليل: أرى أن أكثر علة أخيك من كلامك!

□ وسمع الأعمش[33] إنسانا يلحن فقال: من هذا الذي يتكلم

(18) «تاريخ دمشق» (354/36).
(19) «البيان والتبين» (324/1) و«صبح الأعشى» (206/1 ـ 207)، و«محاضرات الأدباء» (67/1/1).
(20) أي: جبر.
(21) «مغني اللبيب» (669/2).
(22) «مغني اللبيب» (669/2).
(23) «مغني اللبيب» (669/2).
(24) «مغني اللبيب» (669/2).
(25) «البيان والتبيُّن» (323/1).
(26) «صبح الأعشى» (206/1).
(27) «صبح الأعشى» (206/1).
(28) «صبح الأعشى» (206/1).
(29) «صبح الأعشى» (207/1).
(30) «محاضرات الأدباء» (66/1/1).
(31) «محاضرات الأدباء» (67/1/1).
(32) «محاضرات الأدباء» (67/1/1).
(33) «محاضرات الأدباء» (67/1/1).

وقلبي منه يتألم.

□□□

ولنتبع هذه الأخبار الظراف، بشذرات من كلام سلف هذه الأمة المباركة المرحومة، من شأنها أن تبصر كل من عشا عن لغته ليرفع لها رأسا، فعلها تذكي نار الشوق والمحبة في نفسه وقلبه؛ فيقطع في سبيل تحصيلها الصعب والحَزْن، فـ «من يعرف المطلوب يحقر ما بذل» و«من خطب الحسناء لم يغله المهر»:

□ قال[34] عبد الملك بن مروان: «اللحن هُجنة على الشريف، والعجب آفة الرأي».

وقيل[35] لعبد الملك بن مروان: «عَجِلَ عليك الشيب يا أمير المؤمنين، فقال: «كيف لا يعجل عليَّ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين»، أو قال: «شيبني صعود المنابر، والخوف من اللحن».

□ وكان يقال[36]: «اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه».

□ وقال حماد بن سلمة[37]: «مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو، مثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها».

□ وكان أيوب السَّختياني يقول[38]: «تعلموا النحو؛ فإنه جمال للوضيع، وتركه هجنة للشريف».

(34) «البيان والتبين» (324/1).
(35) «تاريخ دمشق (138/37)، و«جمهرة خطب العرب» (360/3).
(36) «البيان والتبين» (321/1).
(37) «اتفاق المباني» (137/1).
(38) «البيان والتبين» (323/1).

□ وقيل: «اللغة العربية هي رأس مال الكاتب وأس وكنز إنفاقه...»[39].

□ قال عثمان المهري[40]: أتانا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،ونحن بأذربيجان يأمُرُنا بأشياء،ويذكر فيها: «تعلموا العربية؛ فإنها تثبت العقل، وتزيد في المروءة».

□ وقال الرشيد يوما لبنيه[41]: «ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه؛ أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته؟!

□ ومن كلام مالك بن أنس[42]: «الإعراب حُليُّ اللسان؛ فلا تمنعوا ألسنتكم حُليَّها».

□ وقال أبو سعيد البصري[43]:

النَّحوُ يَبسُطُ من لسان الألْكَنِ
والمرءُ تُكرِمُه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طلبتَ من العلوم أجلَّها
فأجلُّها عندي مقيمُ الألْسُنِ

□ ومما يُروى لأبي الأسود الدؤلي[44] قوله:

ولا أقول لقدر القوم قد غَلِيَت
ولا أقول لباب الدار مغلوق
لكن أقول لبابي مُغْلَقٌ وغَلَت
قِدري وقابلها دَنٌّ وإبْريق

أي: إنَّني فصيح لا ألحن.

(39) «صبح الأعشى» (204/1).
(40) «صبح الأعشى» (205/1).
(41) «صبح الأعشى» (205/1).
(42) «صبح الأعشى» (205/1).
(43) «صبح الأعشى» (205/1-206).
(44) «اللسان» (291/10 و134/15)، و«الصحاح» (1266/4)، و«تاج العروس» (6529/22)، و«المزهر» (252/1).

□ قال صاحب «الريعان والريحان»[45]: «واللحن قبيح في كبراء الناس، وسراتهم، كما أن الإعراب جمال لهم، وهو يرفع الساقط من السفلة، ويرتقي به إلى مرتبة تلحقه بمن كان فوق نمطه وصنفه».

□ وقال كذلك[46]: «وكان من يؤثر عقله من الخلطاء يعاقب على اللحن، وينفِّر من خطأ القول، ولا يجيز أن يخاطب به في الرسائل البلدانية ولا أن يُوقَفَ به على رؤوسهم في الخطب المقامية».

□□□

وها هم الخلف من أعلام العصر، يقتفون أثر السلف، ويسيرون على خطتهم في رصد الأغلاط والتحذير من الأخطاء؛ وما ذلك إلا ذودا عن حياض العربية، لتبقى صافية المشرب، ورَدًّا لعوادي التغريب من تهجين لغة العرب، والزج بها في زوايا الإهمال؛ لأنها - زعموا - لا تفي بحاجات العصر، ولا تستجيب لمطالب الإنسان؛ إنها مقالة كل مهزوم، خسيس الهمة، خامل الإرادة، ممن رضع ثقافة الغرب بقضها وقضيضها، وعجرها وبجرها؛ حتى أضحى لا يفكر إلا بعقولهم، ولا ينظر إلا بأعينهم، فالحسن عنده ما استحسنوه، والقبيح ما استقبحوه، فهو عندهم رأس وعندنا ذنب، بعدما ارتدَّ على أمَّته ومقدَّساتها؛ ينخر في أسسها، وهو يدَّعي أنه يقيم بنيانها.

ولله درُّ حافظ إبرهيم شاعر النيل، فلقد فاه بدرر من محاسن الشعر، وبليغ

(45) «صبح الأعشى» (206/1).
(46) «صبح الأعشى» (207/1).

القريض، حلّى به جبين العربية، وقد سارت بعده مضرب الأمثال، قال[47] رحمه الله على لسان اللغة العربية يصف حالها بين أهلها:

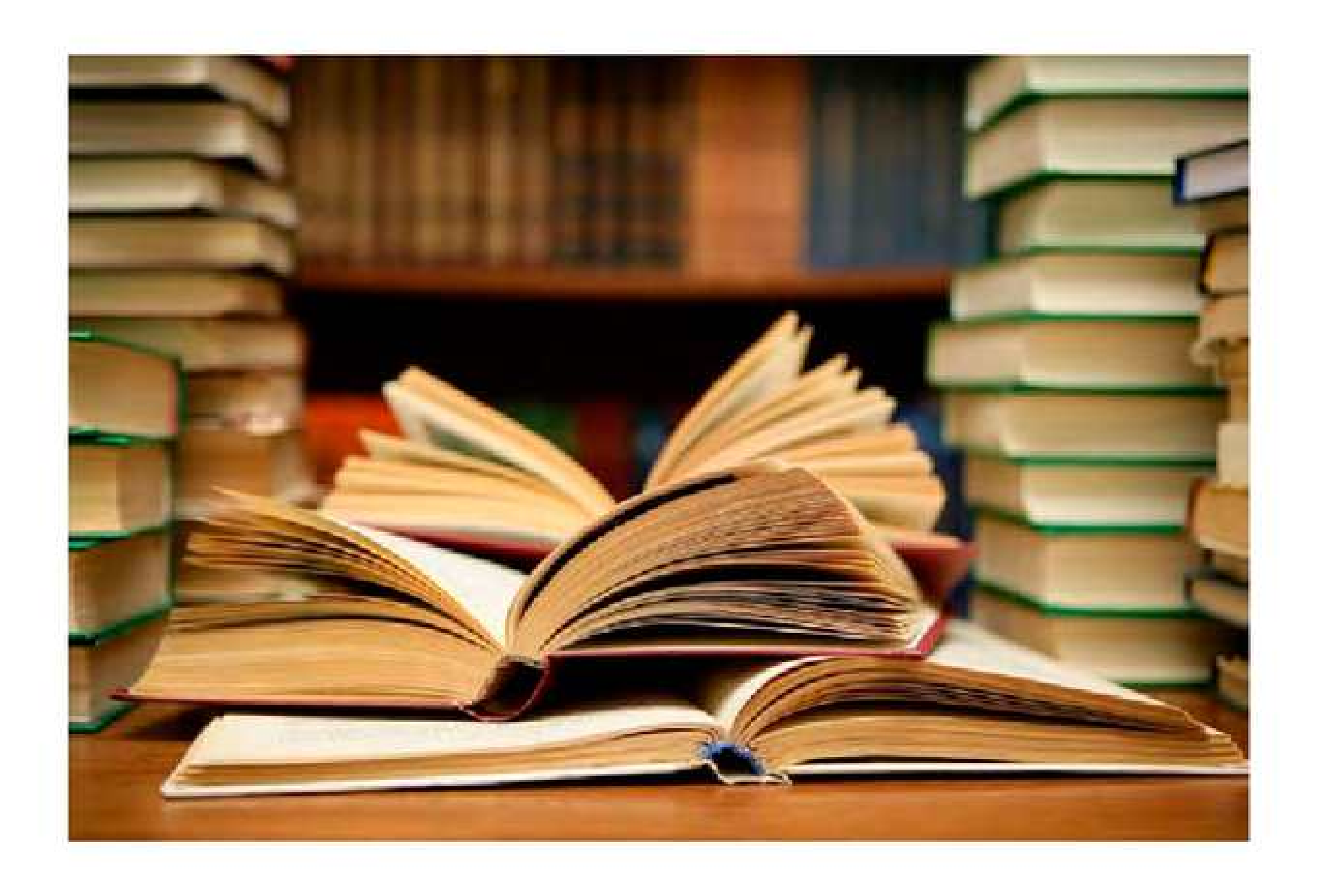
رجعتُ لنفسي فاتّهمتُ حَصاتي
وناديت قومي فاحتسبتُ حياتي
رَمَوْني بعُقم في الشباب وليتني
عَقِمْتُ فلم أجزعْ لقولِ عِداتي
وَلَدْتُ ولمَّا لم أجِدْ لعرائسي
رجالاً وأَكْفَاءً وأَدتُّ بَنَاتي
وَسِعْتُ كتابَ الله لفظًا وغايةً
وما ضِقْتُ عن آيٍ به وَعِظَاتِ
فكيف أضيقُ اليوم عن وصفِ آلةٍ
وتنسيقِ أسماءٍ لمخترَعَاتِ
أنا البحرُ في أحشائه الدّرُّ كامنٌ
فهل سألوا[48] الغوّاصَ عن صدفاتي
فيا ويحكم أَبلَى وتَبْلَى محاسني
ومنكم وإنْ عزَّ الدَّواء أساتي
فلا تَكِلُوني للزمان فإنني
أخافُ عليكم أن تَحينَ وفاتي
أرى لرجالِ الغربِ عزًّا ومَنْعَةً
وكم عزَّ أقوامٌ بعزِّ لُغَاتِ
أَتَوْا أهلَهم بالمعجزات تفنّنًا
فيا ليْتَكم تأتون بالكلمات
أيُطْرِبُكم من جانب الغرب ناعبٌ
يُنادي بَوَأْدي في ربيع حياتي
سقى اللهُ في بطن الجزيرة أعظمًا
يعزُّ عليها أن تلينَ قَنَاتي
حَفِظْنَ ودادي في البِلى وحفِظْته
لهنَّ بقلبٍ دائمِ الحسَرَاتِ
وفاخرتُ أهلَ الغرب والشَّرقُ مطرقٌ
حياءً بتلك الأعظُمِ النَّخِراتِ
أرى كلَّ يومٍ بالجرائد مَزْلَقًا
من القبرِ يُدنيني بغيرِ أناةِ
وأسمعُ للكُتَّاب بمصر ضجَّةً
فأعلمُ أن الصائحين نُعَاتي
أيهجُرني قومي . عفا الله عنهم .
إلى لغةٍ لم تتَّصِل برُواتي
سرتْ لوثةُ الإفرنج فيها كما سرى
لعابُ الأفاعي في مسيلِ فُراتِ
فجاءت كثوبٍ ضمَّ سبعين رقعةً
مُشَكَّلَةَ الألوانِ مُختلفاتِ
إلى معشرِ الكُتَّابِ والجمعُ حافلٌ
بسطتُ رجائي بعد بَسْطِ شَكَاتي
فإمَّا حياةٌ تبعثُ المَيْتَ في البِلَى
وتُنبتُ في تلك الرّموس رفاتي
وإمَّا مماتٌ لا قيامةَ بعده
مماتٌ لعمري لم يُقَسْ بمَماتِ

وبعد، فإني أستقل جهدي في هذا الموضوع بالغ الأهمية، وأراني قد خضت غمار درب قل سالكوه، وعز ناصحوه، هذا جراب علمي لا يفي بالمطلوب، ولا يُسعف الغريب لبلوغ المأمول، ولولا أن هذا الطريق قد راضه قبلي من أعلام اللغة من سلف هذه الأمة، ما جرؤت على ارتياده؛ فرحمة الله تترى تلك الأرواح الطيبة، والأنفس الزكية، ذوات الهمم العلية، من كل إمام فذ، قاض عدل، من عجم وعرب.

أولئك أشياخي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا أخي المجامع

وليس لي من أرب، سوى أداء بعض ما هو منوط بعنقي من واجب الذود عن هذه اللغة التي شرف الله بها أهلها، حين جعلها ترجمان وحيه المقدس، ولسان رسوله ﷺ الذي أتي جوامع الكلم.





(47) «جواهر الأدب» (ص353 . 354).
(48) ويُروى: «ساءلوا».



الكلمة النابية

وأثرها على تربية الطفل

إنَّ تأديبَ الصِّبيان والقيامَ على تربيَتِهم، من أعظم أسبابِ صلاحِ الذُّرِّيَّة وتَنشِئَتِها النَّشأةَ الطَّيِّبَةَ المباركةَ الَّتي تكون سببًا لقُرَّةِ عينِ الأبوَيْن

عز الدين رمضاني
رئيس التحرير

وغاية التَّربية ومقصد التَّأديب توجيهُ النَّشْءِ في أفكاره ومشاربه، وضبطُ نوازعه المضطربة، وتصحيحُ نظْرَته إلى الحياة، لينشأَ جيلاً متلائمَ الأذواقِ، مُتَّحِدَ المشاربِ، مضبوطَ النَّزعات.

قال ابن أبي زيد القيرواني رَحِمَهُ اللهُ:

«واعلمْ أنَّ خيرَ القلوبِ أوعاها إلى الخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يَسبق الشَّرُّ إليه، وأَوْلَى ما عُنِيَ به النَّاصحون ورَغبَ في أجره الرَّاغبون، إيصالُ الخير إلى قلوب أولادِ المُؤمنين ليَرسَخَ فيها، وتنبيهُهم على معالم الدِّيانة وحدود الشَّريعة ليُرَاضُوا عليها، وما عليهم أن تَعتَقِدَه من الدِّين قلوبُهم، وتعملَ به جوارِحُهم»[1]، ومن مقول السَّلَفِ السَّائر: «الصَّلاحُ من الله والأدبُ من الآباء».

❁❁❁

والتَّربيةُ وحسنُ التَّأديب لا يَنفَعانِ إلاَّ بتحقُّقِ القدوةِ الصَّالحة من المُربِّي، فإذا فُقِدَت أو شابَها التَّذَبْذُبُ أو حلَّ مكانَها النَّموذَجُ السَّيِّئُ، عاد ذلك بالضَّرر والفساد على من يقع عليه التَّأديبُ، ففسادُ الأبناء غالبًا ما يكون سببُه إهمالَ الآباءِ وتفريطَهم في عمليَّة التَّأديبِ والتَّعليم؛ قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

«فما أَفْسَدَ الأبناءَ مثلُ تَغفُّلِ الآباءِ وإهمالِهم واستسهالِهم شررَ النَّار بين الثِّياب! فأكثرُ الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظمَ ما يَعتَمِدُ العدوُّ الشَّديدُ العداوةِ مع عدُوِّه وهم لا يشعرون»[2]، وقال في موضع آخر: «وإذا اعتبَرْتَ الفسادَ في الأولادِ رَأَيْتَ عامَّتَه من قِبَلِ الآباء»[3].

وإذا أدركْنا أنَّ عامَّةَ الأطفال مَفطُورون على غرائزَ ناقصة؛ فإنَّ الإهمالَ وفقدانَ التَّربيةِ الصَّالحةِ يزيدُها نقصًا وشناعةً، وتُعالجُها التَّربيةُ الحكيمةُ كما تُعالَجُ الأمراضُ والعللُ، فإذا لم تُعالَجْ في الصِّغَر اندَمَلَتْ نفوسُهم عليها كما يَندَمِل الجرحُ على فساد، وجفَّت كما يَجفُّ العودُ على عوَج، والتَّصرُّف السَّليمُ هو أن نَضَعَ أيدِيَنا على تلك النَّقائص، وأن نَتعهَّدَها بالإصلاح والتَّقويم، والتَّصحيح والتَّعديل، فلا يَرَوْنَ منَّا إلاَّ الصَّالحَ من الأعمالِ والأحوال، ولا يَسمَعُونَ منَّا إلاَّ الصَّادقَ من الأقوال، والجميلَ من المنطق.

❁❁❁

وإنَّ ممَّا أَفْسَدَ على النَّاشئة تربيتَهم ممارسةَ المُربِّين ـ وعلى رأسهم الآباء ثمَّ الأُمَّهات ـ العنفَ ضدَّهم، وأخذَهم بالقَسوَةِ والقَهْرِ في التَّعامل معهم، وكلُّ ذلك معدودٌ من جنايات المُربِّين الجاهلين بأصولِ التَّربية، ومُوَرِّثٌ لآثارٍ سلبيَّةٍ وسيِّئة، تعود على الولد بالخيبةِ والخسرانِ وفسادِ الطِّباع.

(1) «الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني» (ص8).

(2) «تحفة المودود» (ص352).

(3) نفس المرجع (ص351).

ومن أَبْرَزِ مظاهرِ العُنفِ المُوجَّهِ ضدَّ الأطفالِ، ما يَصدُرُ من الآباءِ والأمَّهاتِ وحتَّى المُعلِّمينَ من الكلماتِ النَّابيةِ والألفاظِ الجارحةِ، وعباراتِ التَّوبيخِ واستعمالِ اللُّغةِ المُبتَذلَةِ في صَرْفِ الطِّفلِ عن ما لا يليقُ، أو حملِه على فعلِ ما ينبغي، أو معاقبَتِه عند خَطئِه وعَمْدِه، أو مُؤاخذَتِه على سَرَفِه وجَهلِه، وقد تصلُ الخطورةُ أحيانًا إلى جعلِ أسلوبِ التَّخاطُبِ ولغةِ المحادثةِ لا تَخرُجُ عن الفحشِ والبذاءِ، وقبيحِ الكلامِ وسيِّئِ الدُّعاءِ، يُمَجُّ بها سمعُ الطِّفلِ ويَنفَطرُ لها قلبُه، وتُهزُّ بها نفسيَّتُه، ويَتبلَّدُ منها شعورُه وإحساسُه، حتَّى إنَّه يَعِزُّ على الطِّفلِ - والحالُ هذه - أن يَسمَعَ الطَّيِّبَ من القولِ المصحوبِ بالابتسامةِ الحانيةِ، أو اللَّفظةَ الزَّاجِرَةَ البَريئةَ من السُّوءِ الَّتي تَنهَاهُ وتُصوِّبُ فعلَه، فضلاً على أن يَطرُقَ سَمعَه ويُثلِجَ صدرَه كلماتُ المدحِ والتَّشجيعِ، وعباراتُ الشُّكرِ والتَّقديرِ، وصالحُ الدُّعاءِ والثَّناءِ.

إنَّ المُربِّي - أبًا أو أمًّا أو مُعلِّمًا - المحبَّ، الحازمَ الحاسمَ، المتسامحَ من دون مبالغة هو الَّذي يَعرفُ أنَّ إحساسَه يتَّجهُ إلى إنضاجِ ابنِه بالتَّفاعُلِ لا بالقهرِ، وبالتَّفاهُمِ لا بالقَسْرِ، وبالحَنانِ لا بالغلظَةِ، ليكونَ في مأمنٍ من النَّوازعِ الخاطئةِ والتَّصرُّفاتِ السَّلبيَّةِ، يبتدئُ بالكفِّ عن الدُّعاءِ عليه؛ إذ إنَّ أسوأَ ما يُفسدُ تربيةَ الطِّفلِ، ويُعرِّضُ نشأتَه للخطرِ والاستئصالِ، وأشدَّ عباراتِ التَّوبيخِ وقعًا وتأثيرًا على نَفسيَّتِه دعاءُ والدَيْه عليه، ولذلك جاء النَّهي في الشَّرعِ عن الدُّعاءِ على الأولادِ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ]، قال الحسنُ البصري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآيةِ: «يغضبُ أحَدُهم فيدعُو عليه، فيَسُبُّ نفسَه ويَسُبُّ زوجتَه ومالَه وولَدَه، فإنْ أعطاه ذلكَ شقَّ عليه، فيَمنَعُه ذلك ثمَّ يدعُو بالخَيْرِ فيُعْطِيه»(4).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ، ولاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لاَ تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءً، فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ»(5).

ونقل ابنُ الجوزي في «البرِّ والصِّلة» (124) عن الحسن قوله: «دُعاءُ الوالدَيْن يَستأْصِلُ المالَ والولدَ».

فعلى من ابتُلِيَ من الآباءِ والأمَّهاتِ بإطلاقِ لسانِه في دعاءِ الشَّرِّ كُلَّمَا حَمَلَه الغيظُ على إنفاذِ أَمْرِه أو ساءَه تصرُّفُ وَلدِه، أن يُوطِّنَ نفسَه على التُّؤَدَةِ، والنَّظرِ في العواقبِ، ومراقبةِ ما يَصدُرُ منه من ألفاظِ الشَّتمِ واللَّعنِ، ويَستَبدِلَ الَّذي هو أدنى بالَّذي هو خير، ويعوِّدَ لسانَه قولَ الحقِّ وحسنَ اللَّفظِ وصالحَ الدُّعاءِ؛ فإنَّ ذلك يَعودُ عليه بالغُنْمِ لا بالغُرمِ، وبالأجرِ لا بالوزرِ، وله في رسولِ اللهِ ﷺ أسوةٌ حسنةٌ، فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان النَّبيُّ ﷺ يُؤتَى بالصِّبيانِ فيدعُو لهم»(6)، فتارةً يدعو لهم بالبركةِ، وتارةً بالرَّحمةِ، ومرَّةً يدعو للصَّبيِّ أَنْ يُحبَّهُ اللهُ، وأخرى يدعو له بالتَّفقُّهِ في الدِّينِ، وأحيانًا يدعو له بكَثْرَةِ المالِ والولدِ، وربَّمَا دعَا لهم بالهدايةِ واستغفرَ لهم(7).

ومن طريفِ ما يُروَى عن السَّلَفِ، ما نقلَه أحمدُ بنُ حنبلٍ عن ابنِ عَوْنٍ أنَّهُ كان إذا غَضِبَ على أحدٍ من أهلِه، قال: باركَ اللهُ فيك، فقال لابنٍ له يومًا: باركَ اللهُ فيك! فقال: أَبَارَكَ اللهُ فيَّ؟ قال: نعم، فقال بعضُ مَنْ حَضَر: ما قالَ لك إلاَّ خيرًا! قال: ما قال لي هذا حتَّى أَجْهَدَ يعني اشتدَّ غضبُه»(8).

وجاء رجلٌ إلى عبدِ اللهِ بنِ المباركِ يشكو له عقوقَ وَلدِه، فقال هل دَعَوْتَ عليه؟ فقال: بلى! فقال عبد الله: أَنْتَ أَفْسَدتَّه(9).

وعلى المُربِّي أن يُراقِبَ ألفاظَه عندما يَلجأُ إلى زجْرِ ولَدِه وإنزالِ العقابِ عليه، فلا يَستعمل معه إلاَّ اللفظَ المُناسبَ، والتَّقريعَ الخالي من الإساءةِ، الَّذي يَفهَمُ منه الطِّفلُ عدمَ رضا مُؤدِّبه عنه، وليكُفَّ ما أمكَنَ عن السِّبابِ والشَّتمِ وقبيحِ الكلامِ حتَّى لو كان الطِّفلُ في مراحلِ نُموِّهِ الأولى، بحجَّةِ أنَّه لا يُدرِكُ معاني الألفاظِ ولا يَقدرُ على النُّطقِ(10).



وهذا ما حرصَ على التَّوصيةِ به أهلُ التَّربيةِ والسُّلوكِ من علماءِ المسلمين، جاء في «الرِّسالةِ المُفصَّلةِ لأحوالِ وأحكامِ المُعلِّمين والمُتعلِّمين» (ص362)

(4) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدُّر المنثور» (266/9).
(5) مسلم (3009)، وأبو داود (1532).
(6) البخاري (6355).

(7) وفي كل ذلك وردت أحاديث عن النَّبيِّ ﷺ فلتُنْظَر في مظانِّها.
(8) «تاريخ ابن عساكر» (352/31).
(9) ذكره أبو حامد الغزالي في «الإحياء» (217/2).
(10) أفادت بعض الدِّراسات الحديثة أنَّ الطِّفلَ ابتداءً من الشَّهر (16) يبدأ بفهم حوالي 200 كلمة ويستعمل تقريبًا 110 كلمة، وأنَّ تطوُّر اللُّغة واكتساب كلمات جديدة يكون سريعًا جدًّا، وبين الشَّهر (20 و24) يستعمل ما بين 250 على 300 كلمة، ويُركِّب جُملاً تتألَّفُ من 3 كلمات. انظر كتاب «كيف نجعل أطفالنا أشدَّ انتباهًا وتركيزًا» لفرنسوا شارمان (ص34).

للقابسي (ت 403هـ) - أنَّ الصَّبيَّ إذا أكثَرَ التَّغافُلَ وصدَّه عن الإقبالِ على العلم التَّثاقُلُ، قولُه: «ولم يُغنِ فيه العذْلُ والتَّقريعُ بالكلامِ الَّذي فيه التَّواعُدُ من غيرِ شَتْمٍ ولا سبٍّ لعِرْضٍ؛ كقولِ من لا يَعرِفُ لأطفالِ المؤمنين حقًّا، فيقول: يا مسْخ، يا قِرْد، فلا يفعل هذا وما كان مثلَه في القبح، فإن قلتَ له واحدةً فلْتَستَغفِرِ اللهَ منها ولْتَنْتَه عن معاوَدَتِها، وإنَّما يُجري الألفاظَ القبيحةَ من لسان التَّقيِّ تمكُّنُ الغضبِ من نفسه، وليس هذا مكانَ الغضب».

وجاء في كتاب «المدخل» لابن الحاج (325/2) في بيان ما يَأمُرُ به المؤدِّبُ الصَّبيَّ من الآداب: «ويتعيَّن عليه أنْ لا يَشتُمَ من استحَقَّ الأدبَ من الصِّبيان، وكثيرًا ما يَفعَلُ بعضُ المؤدِّبينَ هذا وهو حرامٌ، وذلك أنَّه إذا حصل للمُؤدِّب غيظٌ ما على الصَّبيِّ شَتمَه وتعدَّى بذلكَ إلى وَالِدَيْه...» إلى أن قال: «فيتعيَّنُ عليه إذا أدركَه شيءٌ ممَّا ذُكِرَ أن لا يُؤَدِّبَ الصَّبيَّ في وقته ذلك، بل يَترُكُه حتَّى يَسكُنَ غَيظُه ويَذهَبَ عنه ما يَجِدُه من الحَنَقِ عليه، وحينئذٍ يُؤدِّبُه الأدبَ الشَّرعي...».

❁❁❁

ومنْ نَظَرَ في وصايا السَّلف من الأمراءِ والعلماءِ للمُؤدِّبين والمُعلِّمين أدْرَكَ ما للكلمة الطَّيِّبَة من أثرٍ وتأثيرٍ، وما للكلمة النَّابيَة من هدمٍ وتدميرٍ في حياة الأطفال، حتَّى ما فَتِئوا يجعلون ذلك في مطلع وصاياهم ومُستهَلِّ نصائحهم، أوصى مَسلَمَةُ بنُ عبد الملك (ت 121هـ) مُؤدِّبَ ولَده فقال له: «إنِّي قد وصَلْتُ جناحَك بعَضُدي، ورَضيتُ بك قرينًا لولدي، فأحسِنْ سياسَتَهم تدُمْ لك استقامَتُهم، وأسْهِلْ بهم في التَّأديب عن مذاهب العُنْف، وعَلِّمْهُم معروفَ الكلام، وجنِّبْهم مُثاقبَةَ اللِّئام، وانْهَهُمْ أن يُعرَفُوا بما لم يَعرفوا، وكن لَهم سائسًا شفيقًا، ومُؤدِّبًا رَفيقًا تُكسِبْكَ الثِّقةُ منهم المحبَّةَ والرِّفقَ وحسنَ القَبولِ ومَحمودَ المغبَّة»[11]، وأوصى عُيَيْنَة بنُ أبي سفيان عبدَ الصَّمَد مُؤدِّبَ وَلَده فقال له: «لِيَكُنْ أوَّلُ إصلاحك بَنِيَّ إصلاحَ نَفسكَ؛ فإنَّ عيوبَهم معقودةٌ بعيْبِكَ، فالحَسَنُ عنده ما فَعَلْتَ، والقبيحُ ما تَركْتَ»[12]، وممَّا حَذَّرَ منه هشامُ بنُ عبدِ الملك مُؤدِّبَ ولده سليمانَ الكلبي أن يتساهل معه في سماع الكلام القبيح، قال له: «ولا تُدخِلْ عليه الفُسَّاقَ ولا شَرَبَةَ السُّكر؛ فإنَّكَ منهم بيْنَ خَصلتَيْن: إمَّا أن يَسمَعَ منهم كلامًا قبيحًا فيأخُذَ به وتريدَ تحويلَه عنه فلا تقدر عليه...»[13].

❁❁❁

وعلى المُربِّي إذا استَهْدَفَ تغييرَ سلوكِ منْ يُربِّيه أن يكونَ دومًا إيجابيًّا في توجيه اللَّوم والعتاب، خفيفًا في إنزالِ العقوبةِ والتَّعزيرِ وإن كان الطِّفلُ يَستَحِقُّ ذلك؛ لأنَّه من أهلِ التَّأديب، لا من أهلِ العقوبةِ والجنايةِ، قال الكاساني في «بدائع الصَّنائع» (7/ 64) مُشيرًا إلى نوعِ التَّعزيرِ الَّذي يُوجَّهُ للطِّفلِ ويُؤاخَذُ عليه أنَّه «يُعزَّرُ تأديبًا لا عقوبةً؛ لأنَّه منْ أهلِ التَّأديب، ألا ترى إلى ما رُوِيَ عنه - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - أنَّه قال:

(11) «العيال» لابن أبي الدُّنيا، انظر «موسوعة ابن أبي الدُّنيا» (324/4).

(12) «العيال» لابن أبي الدُّنيا، انظر «موسوعة ابن أبي الدُّنيا» (324/4).

(13) «العيال» لابن أبي الدُّنيا، انظر «موسوعة ابن أبي الدُّنيا» (326/4).

«مُرُوا صبيَانَكُمْ بالصَّلاَة إِذَا بَلَغُوا سَبْعًا، واضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا إِذَا بَلَغُوا عَشْرًا»، وذلك بطريق التَّأديب والتَّهذيب لا بطريق العقوبة؛ لأنَّها تَستدْعي الجناية، وفعلُ الصَّبيِّ لا يُوصَفُ بكونه جنايةً، بخلاف المجنون والصَّبيِّ الَّذي لا يَعقل؛ لأنَّهما ليسَا من أهل العُقوبَة ولا من أهل التَّأديب».

فكم من صبيٍّ تلقَّى من وَالدَيْه وابلاً من الشَّتائم، وقَرَعَ سمعَه قاموسٌ من الألفاظ النَّابِيَة، وهو لا يدري سببَ هذا التَّهجُّم، ولا فيما استحقَّ كلَّ هذه الإهانة والتَّحقير، مع أنَّ المُسلَّمَ به في قواعد التَّربية والتَّأديب أنَّ الصَّبيَّ لا يُعاقَبُ على كلِّ ذنب أو خطإ صدرَ منه، وإذا عوقب فيعاقَبُ على قدر ذَنبه وحَجْم خَطَئه حتَّى لا يَعتادَ العقوبةَ فيَقلَّ تأثيرُها فيه، وأن يتجَنَّبَ المُربِّي التَّأنيبَ والتَّوبيخَ في حالة الغضب والانفعال؛ لأن ذلك مُفض به إلى مهالك القول وعورات الكلام، وهو في هذه الحال عند إرادة تغيير سلوك ابنه كمَنْ جاء ليَبْنِيَ قَصْرًا فهَدَمَ مِصْرًا، فعلى المُربِّي أنْ يَتعلَّمَ كيفَ يُديرُ غَضَبَه ويَضبطُ انفعَالاَته، وكيفَ يَسْعَى إلى حلِّ المُشكلَة دون أن يزيد في تعقيدها أو يفرز توترا هو أكبر من حجم تلك المشكلة، والانفعالاتُ وإن كان لا يسلَمُ منها بشرٌ فإنَّ الانقيادَ لها مرفوض، والمُربِّي النَّاجحُ مَنْ يَملكُ نفسَه عند الغضب وحالة الانفعال ويتمكَّنُ من السَّيطرَة على الذَّات، فلا يَقُولُ إلاَّ خيرًا، ويكون استياؤُه من تَصرُّف الطِّفل وسلوكه صحيحًا ومناسبًا وهادئًا، مُتجنِّبًا السُّخريَةَ والتَّهكُّمَ والاستهزاءَ والتَّحقيرَ وكلَّ أنواع الإهانة وأشكال العُنف والتَّهديد.

والمُربِّي المثالي ليس ذلك الذي يتغاضى عن الزَّلاَّت ويُهملُ التَّأديبَ في وَقته، أو يَضربُ صفحًا عن إيقاع العقاب والتَّوبيخ بالطِّفل حين يُسيءُ، وإنَّما المُربِّي النَّاجحُ هو الَّذي يُظهرُ استيَاءَه ويُوجِّهُ تَوبيخَه إلى السُّلوك السَّيِّء الَّذي وَقَع فيه الطِّفلُ وليس إلى شخصه حتَّى لا يَهزمَ نفسيَّتَه فيُصَابَ بالإحباط، بل عليه أن يتحَوَّلَ من الكلمة النَّابية إلى الكلمة البانية، ومن المقولة السَّائبة إلى المقولة الجالبة، ومن اللَّفظَة القاسية إلى اللَّفظَة الحانية، فبدَلَ أن يَقُولَ له: «أنْتَ أنانيٌّ وحقير؛ لأنَّكَ أكلتَ حلوى أخيك»، يقول له: «إنَّ ما قُمتَ به عملٌ سيِّئٌ غيرُ مَقبُول منك؛ لأنَّه حقُّ أخيك».

ولْنتأمَّلْ هذا الحديثَ لندركَ قدرَ التَّوجيه البَنَّاء وطريقة الزَّجر الَّتي يُؤخَذُ بها الطِّفل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذَ الحَسَنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما تَمْرَةً من تَمْر الصَّدَقَة فجعلَها في فيه، فقالَ له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «كخْ، كخْ» ليطْرَحَها، ثمَّ قال: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»[14].

قال النَّووي: «وهي كلمةٌ يُزجَرُ بها الصِّبيانُ عن المُستقْذَرات، فيقالُ له كخْ، أي اتْرُكْهُ وارْمِ به»[15].

والحديثُ من النَّاحية التَّربويَّة يُقدِّمُ أسلوبًا مثاليًّا في طريقة الزَّجر، ليكُفَّ الحسن رضي الله عنه عن الفعل، ثمَّ ما لَبثَ أن وضَّحَ له تعليلَه لسبَب عدم الأكل لتكون له سلوكًا دائمًا ويكونَ وقْعُ ذلك على نفسه أقوى تأثيرًا.

ثمَّ لْنَقفْ على هذا المثال الواقعي الَّذي يُوضِّحُ لنا كيفَ يَضُرُّ الانتقادُ السَّلبي المصحوبُ بالكلمة النَّابية بنفسيَّة الطِّفل، ثمَّ نُتبعُه بمثال آخَرَ للانتقاد الإيجابي المُرفَق بالكلمة البانية مع بيان نتائجه الطَّيِّبَة.

«زياد طفل في العاشرة من عُمُره سَكَبَ كُوبًا من الحليب دون قصد منه، وهو جالسٌ مع وَالدَيْه على مائدة الإفطار، صَرَخَتْ أُمُّه في وَجهه قائلةً: أعتقد أنَّكَ في سنٍّ تَجعَلُك تعرفُ كيف تُمسكُ الكأسَ، كم مرَّة قلتُ لك أن تأخُذَ حذْرَكَ، لكن كالعادة لا تَسمَعُ الكلام.

وعلَّق الأبُ غاضبًا: لنْ يفعَلَ أبدًا لأنَّه غبيٌّ، وسيبقى غبيًّا.

التَّعليق: لقد سَكَبَ زيادٌ قليلاً من الحليب، لكن هجومُ والدَيْه القاسي على شخصيَّته سبَّبَ له ألَمًا نفسيًّا ربَّمَا يطولُ أَثرُه رَدْحًا من الزَّمن، كما أنَّه لا يَجعَلُه راغبًا في تَحسين سُلوكه.

وأمَّا أيْمَن البالغُ من العمر ثماني سنوات فقد وقَع له مثلُ ما وقع لزياد، لكنَّ الَّذي اختلف هو حسنُ تعامل والدَته معه، وتعليقُها على ما صدَرَ من ابنها بألْطَف عبارَة وأرْقَى أُسلُوب وَرَّثَ إعجابًا وحُبًّا من وَلدها حين قالت له: لقد سكَبْتَ الحليبَ وعليكَ أن تُنظِّفَ المائدةَ، وأعطَتْه إسفَنْجَة مُبلَّلة ليَمْسَحَ الحليبَ الَّذي سَكَبَه؛ ففعَل وتأسَّفَ عن ما صدر منه، ولم تقُلْ له أمُّه: كن أكثَرَ حذَرًا في المرَّة القادمة؛ لأنَّها لم ترغَبْ في إفساد إحساسه بالامتنان الَّذي ارتسم واضحًا في ملامحه»[16].

حقًّا؛ قليلٌ أولئكَ الآباء أو الأمَّهات الَّذينَ باستطاعتهم أن يَستَعملُوا الثَّناءَ في الأوقات الصَّعبة عندما يقوم الأولادُ بأمور غير مُناسبة وغير لائقة بهم،

(14) البخاري (1419)، مسلم (1069).

(15) «شرح النَّووي على مسلم» (175/7).

(16) مأخوذ من كتاب «كيف تُغيِّر سلوك طفلك» لمحمد ديماس (ص51) بتصرُّف.

وبدلاً من التَّأنيب يوحون إليهم بالسُّلوك الحَسَن ويُذكِّرُونَهم بتَصرُّفات قاموا بها في السَّابق واستحقَّت المدح.

وهاك مثالاً يُقرِّبُ لك مدى تأثير الكلمة في سامعها وأهمِّيَّة صياغتها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

«محمَّد» ولد مُجتَهدٌ في دراسته، عنده طُموحٌ وجُنوحٌ إلى التَّفوُّق، لا يجرُؤ أن يَتَفَوَّه به لأبيه تجنُّبًا لكلمة إحباطٍ تَهُزُّ مشاعِرَه، وتُصَيِّرُ حُلمَه سَرابًا.

جاءت الامتحانات فلم تكنْ نتائجُه قدرَ طموحه، فاتَه النَّجاحُ، وكان نصيبُه الرُّسوبَ، فحَرَّكَ ذلك في آماله آلامًا، لكن ثَمَّتَ ما هو أَصعَبُ من ذلك كلِّه؛ وهو اطِّلاعُ والده على هذه النَّتائج.

قال الأبُ للابن: لا يأتي منك خير! لقد فشلت كعادتك، أنت بليد، انظر إلى زميلك (فلان) لقد نجح ولم يُخَيِّبْ آمالَ أبيه، سيكون أَسْعَدَ الآباء أمامَ النَّاس.

لقد ساق هذا الوالدُ الجَهولُ مكاييلَ من الكلام اللاَّذع والتَّوبيخ الجارح كانت أشدَّ وَقْعًا على نَفس وَلده من الفأس على الرَّأس، ما جعله يَصرفُ ذهنَه عن فكرَة النَّجاحِ والتَّفوُّقِ وينصَرفُ إلى أشياءَ أخرى تتماشى والبلادةَ الَّتي رماه بها والدُه.

ثمَّ إنْ لم يَفقدْ مُحمَّدٌ ثقتَه في نفسه؛ فإنَّه سَيفقدُها على الأقلِّ في وَالده الَّذي ليس له همٌّ ولا أَرَبٌ إلاَّ أن يتفاخَرَ أمامَ النَّاس بنجاح ابنه، ولا يَهمُّه أن يُدخلَ السُّرورَ على قَلبِ وَلده، أو يَـزْرَعَ فيه مشاعرَ الحبِّ والوُدِّ، وأن يُعيدَ إليه ثقتَه بنفسه أَحْوَجَ ما يكونُ إليها.

وصورةٌ أخرى لزميل مُحمَّد مع أبٍ آخر، لا مشؤوم ولا لئيم في الموقف نفسه.

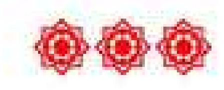
الأب للابن: أراكَ مُغتَمًّا وحزينًا، لا بدَّ أنَّ ذلك بسبَبِ نتائجِ الامتحانات، وأنَّ مثلَ هذا - يُضيفُ الوَالدُ - لا يَستدعي انهزامًا، لقد تفوَّقْتَ في امتحانات كثيرة قبل هذا، ثمَّ إنَّ الامتحانَ هو امتحانُ الحياة وتَغلُّبُكَ على المصاعب الَّتي تُواجِهُكَ بنفسٍ قَويَّةٍ راضية بقَدَرِ الله.

جميلٌ أن تجتازَ عقبةَ الامتحان، لكنَّ الأهمَّ هو أنَّك بَذَلْتَ جُهدًا يَستحقُّ الثَّناءَ، وأنَّك مُستَعدٌّ لبَذلِ المَزيد، فالهزيمةُ كثيرًا ما تكون مِفتاحَ نَجاحٍ، والمرءُ يَتعلَّمُ من أخطائه.

وهنا تضاءلت فكرةُ الرُّسوب في ذهن زميلِ مُحمَّد، وبعدما كانت تَهُدُّ من شَخصه وإرادته صارتْ مَصدَرَ قُوَّة واعتبارٍ بإيحاء من الوالد، فذكره به في وقت حاجته إليه.

وهكذا يُقدِّمُ الثَّناءُ ومراعاةُ الشُّعور ثروةً أخرى هي الشَّجاعةُ والثَّباتُ وإيقادُ العزائم لمواجَهَة صعاب المُستقبَل.

فعلى المُربِّين أن يُضيفُوا إلى رصيد التَّأديب والتَّربية هذه الجوانبَ المُشرقَةَ الهادئةَ في الفعل، الهادفةَ في القول، المراعية للإحساس، الرَّامية إلى كسب انتباه الطِّفل لإصلاح أخطائه وتقويم سُلوكاته؛ لأنَّه من الخطإ الفادح اعتقادُ أنَّ التَّأديبَ يعني اللُّجوءَ إلى العقاب لأوَّل وهلَة، وجعلَ الزَّجر والتَّهديد لغةَ التَّخاطب والحوارِ لتعديل السُّلوك لدى الطِّفل أو إخضاعه لتنفيذ الأوامر؛ فإنَّ التَّأديبَ أَوسَعُ من ذلك بكثير، فهو تعليمٌ وتهذيبٌ، وترغيبٌ وترهيبٌ، وتشجيعٌ وتحفيزٌ وتفسيرٌ وتسويغٌ، بل هو عمليَّةٌ مقصودةٌ لإدماج الطِّفلِ في مُواصَفَات شخصيَّةٍ تتَّسمُ بالاتِّزانِ والهدوء.







النِّبراس في تصحيح كلام الناس

عمر الحاج مسعود

أَذكُرُ في هذا المَبحَث عبارتَيْن مُشتهَرتَيْن بين عوامِّ النَّاسِ، مع التَّفصيل والتَّوجيه والنَّقد والتَّصحيح.

«نَخْسَرْ وَنْفَارَقْ» أو «اخْسَرْ أُوفَارَقْ»

معناها أخسر جزءًا من حقِّي ومالي وأفارقُ شريكي وأُوقِفُ مُعامَلتي وأُنهي عَقْدِي معه.

هذه كلمةٌ مشتهَرةٌ بين التُّجَّار والشُّركاء، معلومةٌ عند القُرنَاء والخُلَطَاء، تُقال عند حدوث الخلاف الَّذي لا يَهتَدُون معه إلى حُكم سَوِيٍّ وحلٍّ مَرْضِيٍّ، فيَفصِلون بهذه العبارة النِّزاعَ ويُوقِفون الخصامَ، ويفسَخون الشَّركة ويُنهُون العقدَ والمعاملةَ، وهي عندهم دليلٌ على الرُّجولة وبرهانٌ على الشَّجاعة، ومنهم من يقول: «النِّيفْ والخْسارة».

والعبارةُ تكون صحيحةً إذا كان المقصودُ منها إيقافَ العقد وعدمَ الرُّجوع إليه، والرِّضَا بالصُّلح بحيث يَتركُ كلٌّ من المتعاقدَيْن شيئًا من حقِّه ويتنازلُ عنه إنهاءً للخصومة وإبقاءً للأُخُوَّة، وتحرُّزًا من أسباب العداوة المتفَشِّية بين الخُلَطَاء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾ [النساء: 128]، فالمرأةُ إذا خافت نشوزَ زوجها وترفُّعَه عنها وإعراضَه، فالأفضلُ أن يُصلِحَا بينَهُمَا صُلحًا، وذلك بأن تتنازلَ عن بعض حقوقها المُتعلِّقة بالنَّفقَة والكسوة والمسكن والقَسْم، فإذا تصالحا على ذلك واتَّفقا عليه فلا جُناحَ عليهما في مواصلة الحياة الزَّوجيَّة، وهذا خيرٌ من الفُرقة وأحسنُ وأَدْوَمُ للعشرة، لذا قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾، «ويُؤخَذُ من عموم هذا اللَّفظ والمعنى أنَّ الصُّلحَ بَيْنَ مَنْ بينَهما حقٌّ أو منازعةٌ في جميع الأشياء أنَّه خيرٌ من استقصاء كلٍّ منهما على كلِّ حقِّه، لِمَا فيها من الإصلاح وبقاء الأُلفَة والاتِّصاف بصفة السَّماح، وهو جائزٌ في جميع الأشياء إلاَّ إذا أحلَّ حرامًا أو حرَّمَ حلالاً؛ فإنَّه لا يكون صُلحًا وإنَّما يكون جورًا»[1].

وقال رَسُولُ الله ﷺ: «الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ المُسْلمين»، رواه أحمد (8784)، وأبو داود (3594)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (5/142)، فإذا لم يهتد الحاكمُ إلى معرفة الحقِّ أو لم يَصِل المُتخاصمان إلى نتيجة مَرضيَّة؛ فإنَّه يُلجأُ إلى الصُّلح، ويَتسامحُ كلٌّ منهما في بعض حقِّه إنهاءً للخصومة وقطعًا للنِّزاع، وفاعل هذا مفلحٌ مأجور، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر].

ومَنْ تنازَلَ عن شيء من ماله صُلحًا ومسامحةً ورجولةً فإنَّه يربَحُه ولا يخسَرُه؛ إذ الخسارةُ والهلاكُ في الشُّحِّ والبُخلِ والأَثَرَة وإمساك المال وصرفه في المعاصي، قال ﷻ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة]، وقال النَّووي رحمه الله في «الأذكار» (2/ 784): «ينبغي أن يُقالَ في المالِ المُخرَج في طاعة الله تعالى: أَنْفَقْتُ، وشِبهُه، (أنفقتُ في حجَّتي ألفًا) و(أنفقتُ في غزوي ألفيْن) و(كذا أنفقتُ في ضيافة ضيفاني)، و(في ختان أولادي)، و(في نكاحي)... وشبه ذلك، ولا يقولُ ما يَقولُه كثيرون من العوامِّ:

(1) قاله السَّعدي في «تفسيره» (ص206).

(غرمت في ضيافتي)، و(خسرت في حجَّتي)، و(ضيَّعت في سفري)، وحاصلُه أنَّ «أنفقتُ» وشبهه يكون في الطَّاعات، و(خسرتُ) و(غرمت) و(ضيَّعت) ونحوها يكون في المعاصي والمكروهات ولا تستعمل في الطَّاعات».

وإذا كان المقصودُ من العبارة مقاطعةَ الشَّريك شريكَه وهجرَه ومعاداتَه فهذا خطأٌ ومخالفةٌ للشَّرع، ولا ينبغي أن تكونَ الأمورُ الدُّنيويَّةُ والحظوظُ النَّفسيَّةُ والمظالمُ الشَّخصيَّةُ مُسبِّبةً للهجر والقطيعة، وباعثةً على الحقد والضَّغينة؛ لأنَّ هذا ينافي ما يَجبُ أن يعاملَ به المسلمُ أخاه، روى البخاري (6065) ومسلم (2558) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لاَ تَبَاغَضُوا ولاَ تَحَاسَدُوا ولاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عبادَ الله إِخْوَانًا، ولاَ يَحلُّ لِمُسْلِم أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَة أَيَّام»، والمطلوبُ في مثل هذه الحالة السَّعيُ في إصلاح ذات البَيْن والتَّحاكمُ إلى الشَّرع الحنيف، والتَّجرُّدُ عن الهوى وحظِّ النَّفس والحذرُ من الشُّحِّ والجشَع، والرُّجوعُ إلى أهل العلم والخبرة والعقل مع الرِّضا بحُكمهم والامتثال لنُصحهم، قال الله عز وجل: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات]، وروى أحمد (27508) وأبو داود (4919) والتِّرمذي (2509) بإسناد صحيح عن أبي الدَّرْدَاء رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَة الصَّلاَة والصِّيام والصَّدَقَة؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «إِصْلاَحُ ذَات البَيْن، وَفَسَادُ ذَات البَيْن هيَ الحَالقَةُ».

كما ينبغي الحذرُ من الحرص على المال والشُّحِّ به وعدم المسامحة فيه؛ لأنَّ هذا أصلُ الفُرقَة والشِّقاق وسببُ العداوة وسوء الأخلاق، قال رَسُولُ الله ﷺ: «فَوَالله لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» رواه البخاري (3158) ومسلم (2961)، وقال: «وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» رواه مسلم (2578)، وقال: «مَا ذئْبَان جَائعَان أُرْسلاَ في غَنَم بأَفْسَدَ لَهَا منْ حرْص المَرْء عَلَى المَال وَالشَّرَف لدينه»، رواه أحمد (15784) والتِّرمذي (2376) وقال: «هَذَا حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

«المُومَن يَبْدَا برُوحُو أو بنَفْسُو»

المقصودُ أنَّ المؤمنَ يَبدأُ بنفسه ويُقدِّمُها على غيره عند الاجتماع وتَزاحُم الحظوظ.

تُقال هذه العبارةُ عند الأكل أو الشُّرب خاصَّةً، فإذا كان النَّاسُ في وليمة ـ مثلاً ـ ووُضعَ الطَّعامُ أو الشَّرابُ تناولَه أحدُهم، وقال: «المُومَن يَبْدَا برُوحُو أو بنَفْسُو»، ثم أعطى الآخرين، وهذا خطأٌ في هذا الموضع وخلافُ ما ورد في السُّنَّة الشَّريفة؛ لأنَّ مَن انبَرَى لخدمَة إخوانه وسَقيهم وإطعامهم، يَنبَغي أن يبدأ بهم أوَّلاً ويكونَ آخرَهم.

فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: «... ثُمَّ صَبَّ رسولُ الله ﷺ، فقال لي: «اشْرَبْ»، فقلتُ: لا أشرَبُ حتَّى تشرَبَ يا رسُولَ الله قَالَ: «إِنَّ سَاقيَ القَوْم آخرُهُمْ شُرْبًا»، قال: فَشَربْتُ، وَشَربَ رَسُولُ الله ﷺ» رواه مسلم (681).

هذا الحديثُ خبرٌ بمعنى الأمر والإرشاد، وهو صريحٌ في أنَّ مَنْ سَقَى إخوانَه ينبغي أن يكون آخرَهم، والمقصود بالسَّاقي مَن يناولُ الشَّرابَ للشَّاربين لا مالكُه.

وفي معنى الشُّرب ما يُفرَّقُ على الجماعة من المأكول ونحوه[2]، ففي قصَّة إطعام أبي طلحة وأمِّ سُليم رضي الله عنهما النَّبيَّ ﷺ وأصحابَه، قال أبو طلحة: «فَوَضَعَ النَّبيُّ ﷺ يَدَهُ وَسَمَّى عَلَيْه، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لعَشَرَة»، فأذنَ لهمْ فَدَخَلُوا، فقال: «كُلُوا وَسَمُّوا اللهَ»، فَأَكَلُوا حَتَّى فَعَلَ ذَلكَ بثَمَانينَ رَجُلاً، ثُمَّ أَكَلَ النَّبيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلكَ وَأَهْلُ البَيْت، وَتَرَكُوا سُؤْرًا» رواه البخاري (3578) ومسلم (2040).

فكان النَّبيُّ ﷺ آخرَهم أكلاً؛ سخاءً وكرمًا وإيثارًا لهم على نفسه، قال ابنُ عبد البرِّ رحمه الله في «التَّمهيد» (292/1): «وقد رُوِيَ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان آخرَهم أكلاً، وذلك من مكارم الأخلاق، وقد رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «سَاقي القَوْم آخرُهُمْ شُرْبًا»».

وقال أبو العبَّاس القرطبي رحمه الله في «المُفهم» (312/5): «وكونه ﷺ

(2) انظر «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (292/1)، «المُفهم» لأبي العبَّاس القرطبي (312/5)، «شرح مسلم» للنَّووي (189/5)، «فيض القدير» للمناوي (452/2) (83/4)، «نيل الأوطار» للشَّوكاني (229/8)، «شرح رياض الصَّالحين» لابن عثيمين (257/4).

أَكَلَ بعدَهم، إنَّما كان ذلك لأنَّه هو أَطْعَمهم ببركة دعائه، فكان آخرَهم أكلاً، كما قال في الشَّراب: «سَاقِي القَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْبًا»، وأيضًا فليَحْصُلَ على درجة الإيثار، فإنَّه ﷺ كان أشدَّهم جوعًا؛ لأنَّه كان قد شدَّ على بطنه بحَجَرَيْن، ومع ذلك فقدَّمهم عليه وآثرهم بالأكل قبلَه».

وفي «فيض القدير» (83/4) قال ابنُ العربي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا أمرٌ ثابتٌ عادةً وشرعًا، وحكمته ندبُ الإيثار، فلمَّا صار في يده ندب له أن يُقدِّمَ غيرَه لما فيه من كريم الأخلاق وشرف السَّليقة وعِزَّة القناعة».

إنَّ هذا العمل برهانُ الإيثار وقناعة النَّفس وغِنَى القلب، ودليلُ التَّنزُّه عن الشَّرَه والجشَع والأَثَرة، والحرصُ يدنِّس النَّقاءَ ويكدِّر الصَّفاءَ ويورِّثُ سوءَ الثَّناء.

هذا، وإذا كان الأمرُ يتعلَّقُ بالنَّفقة، فالأصل أنَّ المُنفِقَ يبدأ بنفسه ثمَّ بأهلِ بَيته ثمَّ بذي قرابَته، قال رسول الله ﷺ: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا»، يقول فبينَ يديْكَ وعن يَمينِكَ وعن شِمَالِكَ» مسلم (997).

«ابدأ بنفسك» يعني بحقوقها وواجباتها من نَفَقَات وديون، قال النَّووي رَحِمَهُ اللهُ في «شرح مسلم» (83/7): «في هذا الحديث فوائد: منها الابتداء في النَّفقة بالمذكور على هذا التَّرتيب، ومنها أنَّ الحقوقَ والفضائلَ إذا تَزَاحَمَتْ قُدِّم الأوكدُ فالأوكدُ».

وعن جابر بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه سَمِع رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِذَا أَعْطَى اللهُ أَحَدَكُمْ خَيْرًا فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ» مسلم (1822)، فيه الابتداءُ بالأَوْلى فالأَوْلى، وتقديمُ الأقربِ فالأقرب.

لكن يجوز للمرءِ أن يُؤْثِرَ بالحظوظِ الدُّنيويَّة الضَّيفَ ونحوَه على نفسه وعياله ويبدأ به في بعض الأحايين، ودليلُه ما رواه البخاري (3798) ومسلم (2054) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إلى رسُول الله ﷺ، فقال: إنِّي مجهُودٌ، فأرسلَ إلى بعض نسائه، فقالتْ: والَّذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، ما عندي إلاَّ ماءٌ، ثمَّ أرسل إلى أُخرى، فقالت مثلَ ذلك، حَتَّى قلنَ كلُّهُنَّ مثلَ ذلكَ: لا، والَّذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما عندي إلاَّ مَاءٌ، فقالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟»، فقام رجلٌ من الأنصار، فقال: أنا، يا رسولَ الله، فانطلقَ به إلى رحْله، فقال لامرأته: هل عندك شيءٌ؟ قالت: لا إلاَّ قُوتُ صبياني، قال: فعَلِّليهم بشيء، فإذا دَخَلَ ضَيْفُنَا فأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وأريه أنَّا نأكلُ، فإذا أهوى ليَأْكُلَ، فقومي إلى السِّرَاج حتَّى تطفئيه، قال: فقعدُوا وأكلَ الضَّيْفُ، فلمَّا أصبح غدا على النَّبيِّ ﷺ، فقال: «قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ» قال: فنزلَتْ هذه الآيَةُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9].

الخصاصةُ: الفقرُ والحَاجَة، قال الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللهُ في «تفسيره» (70/8 ـ 71): «أي: يُقَدِّمُونَ المحاويجَ على حاجة أَنْفُسهم، ويبدَؤُون بالنَّاس قبلَهم في حالِ احتياجهم إلى ذلك... وهذَا المَقَامُ أعلى من حال الَّذين وصفَ الله بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: 8]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177]؛ فإنَّ هؤلاءِ يتصدَّقونَ وهم يحبُّون ما تصدَّقوا به، وقد لا يكون لهم حاجةٌ إليه ولا ضرُورَة به، وهؤلاء آثَروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه، ومن هذا المقام تصدَّقَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بجميع ماله، فقال له رسولُ الله ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟» فقال: أَبْقَيْتُ لهم اللهَ ورسولَه»، وهكذا المَاءُ الَّذي عُرِضَ على عكرمةَ وأصحابه يومَ اليَرْمُوك، فكُلٌّ منهم يأمرُ بدفعه إلى صاحبه، وهو جريحٌ مُثْقَلٌ أحوجُ ما يكون إلى الماء، فردَّه الآخَرُ إلى الثَّالث، فما وصلَ إلى الثَّالث حتَّى ماتوا عن آخرهم ولم يشرَبْه أحدٌ منهم، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُم».

وقال ابنُ عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح رياض الصَّالحين» (421/3): «يجوزُ للإنسانِ أن يُؤْثِرَ الضَّيفَ ونحوَه على عائلته، وهذا في الأحوال النَّادرة العارضة، وإلاَّ فقد قال النَّبيُّ ﷺ: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا؛ فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلأَهْلِكَ»، ولكن إذا عَرَضت مثلُ هذه الأحوال فلا حرج على الإنسان أن يقدِّمَ الضَّيفَ أو نحوَه ممَّن يَجِبُ عليه إكرامُه».

وعلى هذا يكون حديث «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ» عامًّا، والأحاديث الأخرى خاصَّةً، والخاصُّ يُقدَّمُ على العَامِّ ويخصِّصُه.

وكذلك في الدُّعاء، إذا أراد المرءُ أن يدعوَ لنفسه ولغيره، فإنَّه يبدأُ بنفسه ثمَّ يدعو لغيره؛ قال تعالى مُخاطبًا نبيَّه مُحمَّدًا ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: 19]، ومن دعاء نبيِّ الله نوح

عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: 28]، ومن دعاء نبيِّ الله وخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [سورة إبراهيم]، ففي هذه الآيات الابتداءُ بالدُّعاء للنَّفس ثمَّ للغير، وعن أُبيٍّ ابن كعب رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا فَدَعَا لَهُ بَدَأَ بِنَفْسِه» رواه مسلم (2380) والتِّرمذي (3385) واللَّفظُ له.

لكن إذا أراد أن يُخصِّصَ غيرَه بدعاء فلا بأس أن لا أن يَدعوَ لنفسه، كدعائه ﷺ لأنس بن مالك رضي الله عنه: «اللَّهمَّ أكْثِر مالَه وولدَه، وبارِكْ له فيما أعطَيْته» رواه البخاري (6334) ومسلم (2480)، ودعائه لجرير بن عبد الله رضي الله عنه لما بعثه لكسْر ذي الخَلَصة[3]: «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا» رواه البخاري (3020) ومسلم (2476).

وهل يجوز الإيثار بالقرب؟ يعني هل يجوز أن يقدِّمَ المسلمُ أخاه في أمر من الأمور الدينية التي تقرِّب إلى الله تعالى؟

قال غيرُ واحد من العلماء إنَّه لا إيثار في القُرَب وإنَّما الإيثار المحمود ما كان في الحظوظ الدُّنيويَّة دون الطَّاعات، فقالوا يُكره أن يُؤْثِر غيرَه بموضعه من الصَّفِّ الأوَّل مثلاً[4]، بدليل قوله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا» رواه البخاري (615) ومسلم (437).

وذهب بعضُ أهل العلم إلى جواز ذلك، ونصره ابنُ القيم رحمه الله، فلمَّا ذكَرَ مناشدةَ أبي بكر الصِّديق المغيرةَ ابنَ شعبة رضي الله عنهما أن يدعَه هو يُبشِّرُ النَّبيَّ ﷺ بقدوم وفد الطَّائف، قال: «وهذا يدلُّ على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثِرَهُ بقُرْبَة من القُرَب، وأنه يجوز للرجل أن يُؤثِر بها أخاه، وقولُ مَن قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثارُ بالقُرَب، لا يصح، وقد آثرتْ عائشةُ عمرَ ابن الخطاب بدفنه في بيتها جوارَ النبي ﷺ، وسألها عمرُ ذلك، فلم تكره له السؤالَ، ولا لها البذلَ، وعلى هذا، فإذا سأل الرجلُ غيرَه أن يُؤْثِره بمقامه في الصف الأول، لم يُكره له السؤالُ ولا لذلك البذلُ، ونظائره.

ومَن تأمل سيرةَ الصحابة، وجدهم غيرَ كارهين لذلك ولا ممتنعين منه، وهل هذا إلا كرمٌ وسخاء، وإيثارٌ على النفس بما هو أعظمُ محبوباتها تفريحاً لأخيه المسلم وتعظيماً لقَدْره، وإجابةً له إلى ما سأله، وترغيباً له في الخير، وقد يكون ثوابُ كلِّ واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القُرْبة، فيكون المُؤْثِرُ بها ممَّن تاجر، فبذل قُرْبةً وأخذ أضعافَها، وعلى هذا فلا يمتنع أن يُؤْثِر صاحب الماءِ بمائه أن يتوضأ به ويتيمم هو إذا كان لا بُد مِن تيمم أحدهما، فآثر أخاه، وحاز فضيلة الإيثار، وفضيلة الطُّهر بالتراب، ولا يمنع هذا كتابٌ ولا سُنَّةٌ، ولا مكارمُ أخلاق» «زاد المعاد» (442/3).

ويرى بعضُ أهل العلم أنَّ الإيثارَ بالقُرَب الواجبة لا يجوز، فإذا كان الماء لا يكفي إلا لرجل واحد فلا يجوز أن يُؤْثر به صاحبَه لأنه يكون قد ترك واجباً عليه وهو الطهارة بالماء، أما القرَبُ المستحبة فيجوز الإيثار بها إذا اقتضت المصلحة ذلك، مثل أن يكون المصلي في الصف الأول وأبوه في الصف الثاني، ويعرف أنَّ أباه من الرجال الذين يكون في نفوسهم شيء إذا لم يُقدِّمهم الولدُ، فهنا نقول: الأفضل أن يُقدِّم، أما إذا كان من الآباء الذين لا تهمهم مثلُ هذه الأمور، فالأفضل أن يبقى في مكانه ولو كان والده في الصف الثاني، وكذلك بالنسبة للعالم[5].

وإذا كان المقصود بالعبارة أنَّ المؤمن يبدأ بنفسه فيعملُ بما يقول ويعلِّم، ويسارع إلى ذلك حتى يكون قدوةً حسنةً لغيره، فهذا صحيح وواجب، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة البقرة]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة الصف].

لَا تَنْـهَ عَـنْ خُـلُقٍ وَتَـأْتِيَ مِـثْلَهُ
عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَـعَلْـتَ عَظِيـمُ
ابْدَأْ بِنَـفْسِكَ فَانْهَـهَا عَنْ غَيِّهَا
فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ تُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى
بِالقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْـفَعُ التَّعْـلِيـمُ

❁❁❁

(3) هو بيت في خَثْعَمَ كانوا يعبدونه يُسمَّى الكعبةَ اليمانيَّة.

(4) انظر «شرح مسلم» للنَّووي (202/13)، «المنثور في القواعد» للزَّركشي (215/1)، «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي (ص116).

(5) انظر «لقاء الباب المفتوح» لابن عثيمين (28/35).



واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

هدي القرآن

(من دقائق الاستنباط)

ذكر اللهُ قصَّةَ أيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في مَوضعَيْن من القرآن وختَمهما في سورة الأنبياء بقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾، وفي (ص) بقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾، قال الشَّنقيطي: «فيه الدَّلالة الواضحةُ على أنَّ أصحابَ العقول السَّليمة من شوائب الاختلال همُ الَّذين يَعبُدُون اللهَ وحدَه ويُطيعُونَه، وهذا يؤيِّدُ قولَ من قال من أهل العلم: إنَّ مَنْ أوصى بشيء من ماله لأعقَلِ النَّاس، أنَّ تلك الوصيَّةَ تُصرَف لأتقى النَّاسِ وأشَدِّهم طاعةً لله تعالى؛ لأنَّهم هم أُولُوا الألبابِ، أي العقول الصَّحيحة السَّالمة من الاختلال»

«الأضواء» (238/4)

من فتاوى أهل العلم

قال أبو حامد المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ينبغي على الخضري (بائع الخضر) أن لا يتغالى في مدح سلعته، ويسمِّي الأشياءَ بغير مُسمَّيَاتها كذبًا، كأنْ يقولَ في القثَّاء: يا لوبيا ـ يا فستق، وفي الجمِّيز (نوع من شجر التِّين) يا كنافة، ويا عسل نحل، ويا أحلى من التِّين!

قال: ومن حقِّ دلَّال الكتب ألاَّ يبيعَ كتب الدين لمن يعلم أنه يضيعها أو ينظرها لانتقادها والطعن عليها، وألا يبيع شيئًا من كتُب أهل البدَع والأهواءِ وكتُبِ المُنجِّمين، والكتُبِ المكذوبة، ولا يَحلُّ له أن يبيعَ كافرًا المصحف، ولا شيئًا من الحديث والفقه».

«بذل النَّصائح الشَّرعيَّة
فيما على السُّلطان وولاة الأمر وسائر الرَّعيَّة»
(317/1)

من أخطائنا الشَّائعة

عبارة تتردَّد على الألسُنِ تقال عند رؤيَة شبيهَيْن في الوجه والملامِحِ والصِّفات والطِّباع، بحيث تصل درجةُ التَّشابه إلى التَّطابق، فعندها يقال بحماسة زائدة «سبحان الخالق النَّاطق».

وكون اللهِ سبحانه خالقًا فهذا صحيحٌ ومسلَّمٌ به، لكن كلمة النَّاطق جانية على سلامة المعتقد ودخيلة على الأسماء والصِّفات.

كلمة رائقة

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقذتني كلمةٌ سمعتُها من الحجَّاج، سمعتُه يقول على هذه الأعواد: إنَّ امْرَأً ذهبت ساعةٌ من عمره في غير ما خُلِقَ له لحَرِيٌّ أن تطولَ عليها حسرَتُه إلى يوم القيامة».

«البداية والنِّهاية» (522/12)

من جميل الشِّعر

للحافظ ابن حزم شعر في غاية الإبداع والجودة، قال عنه الذهبي: «وشعره فحل كما ترى، وكان ينظم على البديهة.

قال في الاعتزاز بالإمامين البخاري ومسلم:

أنائم أنت عن كتب الحديث وما ۞ أتى عن المصطفى فيها من الدين
كمسلم والبخاري اللذين هما ۞ شدا عرى الدين في نقل وتبيين
أولى بأجر وتعظيم ومحمدة ۞ من كل قول أتى من رأي سحنون
يا من هدى بهما اجعلني كمثلهما ۞ في نصر دينك محضا غير مفتون»

«السِّير» (209/18)

لغتنا العربيَّة

«واو الأصداغ»

الشَّعر المفتول في الصّدغ يزين الوجه جمالاً، ومنه تسمية العرب للواو بـ «واو الأصداغ» لأنَّها تُجَمِّلُ الكلامَ، ولولاها لفسد.

ومن جميل ما قيل في ذلك: أنَّ المأمون سأل يحيى اليزيدي عن شيء، فقال: لا، وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين!

فقال: لله درُّكَ! ما وُضِعَت الواوُ قطُّ في موضع أحسن من موضعها في لفظك هذا، ووصله وحَمَلَه».

«وفيات الأعيان» (185/6)

هل تعلم؟

«العربُ تسمِّي كلَّ مائة عام «حمارًا»، مأخوذٌ من موتِ حمارِ المارِّ على القرية كما في آية سورة البقرة، ثمَّ أحياه الله هو وصاحبه بعد «مائة عام»، ثمَّ بعثهما الله، ولهذا قيل لمروان بن محمَّد بن عبد الملك: «مروان الحمار»؛ لمَّا قارب ملك آل أميَّة مائة سنة».

«معجم المناهي اللفظية» (716)

من كلام الحكماء

(الاعتناء بالسَّرائر)

۞ يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ:

«والله لقد رأيت من يكثر الصَّلاة والصَّوم والصَّمت، ويتخشَّع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو عنه، وقدره في النُّفوس ليس بذاك.

ورأيت من يلبس فاخر الثِّياب، وليس له كبير نفل ولا تخشُّع، والقلوب تتهافت على محبَّته.

فتدبَّرت السَّبب، فوجدته السَّريرة!

فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، فالله الله في السَّرائر؛ فإنَّه ما ينفع مع فسادها صلاح الظَّاهر».

«صيد الخاطر» (ص782)

من طرائف المراسلات

قال العماد الأصبهاني للقاضي الفاضل:

ممَّا يُقرَأُ منكوسًا: سِرْ فَلاَ كَبَا بِكَ الفَرسُ.

فأجابه بمثله فقال الفاضل:

دَامَ عُلاَ العِمَادِ.

«سير أعلام النُّبلاء» (347/21)



بريد القراء

❁ نشكر الأخ الكريم مصطفى شلابي من ولاية المدية على تواصله معنا وثنائه على المجلَّة، وتقديره لما يَبذُله القائمون عليها؛ من نشر للعلم والسُّنَّة، وتحذير من الشِّرك والبدع والمخالفات.

وما أشار إليه من أهمِّيَّةِ موضوعات الأسرة والمدرسة والتَّعليم فهو جديرٌ بالاهتمام.

ونخبِرُه أنَّ موضوعَ الشِّيعة والتَّشيُّع قد كُتبَ فيه عددٌ خاصٌّ، وهو العدد السَّادس والعشرون، فينبغي الرُّجوع إليه ونشره.

وجزاه الله خيرًا على غيرته على السُّنَّة ودفاعه عن أهلها.

❁ كتب الأخُ المِفضَال عبدُ الحفيظ أبو أروى المقيمُ بكَنَدَا رسالةً خاصَّةً بالجالية المسلمة في بلاد الكفرِ عامَّةً وفي كندا خاصَّةً، جمع فيها أقوالَ أهل العلم الموثوقين.

فنسأل الله تعالى أن تكون نافعةً لإخوانه، كما نسأله أن يزيدَنا وإيَّاهُ علمًا وتوفيقًا وسدادًا.

❁ ويُسعِدُنا جدًّا تنبيهُ المُوفَّقِ فؤاد عبد الرَّحمن الجزائري على بعض البدع المُتعلِّقَة بالجنائز عند العائلات الجزائريَّة.

ونرجو له مزيدًا من التَّحرير والتَّحقيق.

❁ أمَّا الأخ الوفيُّ للمجلَّة فتحي عكوش من مدينة بلعبَّاس؛ فجزاه الله خيرًا على موضوعه المُرسَل والمُتعلِّق بالأُخُوَّة الإسلاميَّة والرَّابطة الإيمانيَّة، هذا الموضوعُ الَّذي أصبح نَسْيًا مَنسِيًّا، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات: 10].

فنسألُ الله تعالى أن يُؤَلِّفَ بين قلوبِنا على الحقِّ المبين.

❁ ونقول للطَّالب النَّجيبِ أحمد العربي: يمكنُكَ إرسالُ محاولاتكَ الشِّعريَّةَ على عنوان المجلَّة أو بريدِها الإلكتروني؛ للنَّظَرِ فيها ودراستِها ثمَّ نشرِها بعد ذلك.

ونحن في انتظار ما تجود به قريحتُك، والله المُوَفِّق والمُعين.

❁ أرسلَ المُحبُّ أبو إسلام رسالةَ شُكرٍ وعرفانٍ للشَّيخ الدُّكتور رضا بوشامة على ما يَبذُله من مجهوداتٍ لنشرِ العلم النَّافعِ في مَوقعِ راية الإصلاح؛ فجزاه الله خيرًا.

❁ والشُّكرُ موصولٌ للأَخَوَيْن الكريمَيْن خالد عدلي من ولاية برج بوعريريج، ويحيى أبي محمَّد من ولاية بلعبَّاس على مُحاولتِهما الشِّعريَّة، ونسأل الله تعالى لهما مزيدًا من التَّوفيقِ والسَّداد.

❁ ولا ننسى المفضالَ أبا العبَّاس الدَّرقاني على كتابته في مسألة لزوم غَرْزِ العلماء السَّلفيِّين، وتنبيهِه على لزوم ذكر أسماء العلماء الَّذين يُرجَع إليهم، واجتنابِ التَّعميم، فالله يُوَفِّقُنا لالتزام ذلك.

❁ أمَّا الأستاذُ حفيظ اسليماني الباحث في جامعة سيدي محمَّد بن عبد الله - المغرب -؛ فجزاه الله خيرًا على تواصله معنا وحسنِ ظَنِّه بإخوانه القائمين على المجلَّة، ونقول له: نُرحِّبُ بكلِّ مقالٍ علميٍّ مُفيد.

❁ وممَّن رَاسلَنا الأخ العزيز أبو عبد الله سعيد سايح السُّوفي، فنشكرُه على حسن ظَنِّه بإخوانه وإعجابِه بالمجلَّة وموضوعاتِها، وندعو الله العليَّ العظيمَ ربَّ العرشِ العظيم أن يَجعلَنَا مُتحَابِّين، وأن يَجمَعَنا في الفردَوْسِ الأعلى.

❁ اقترَحَ علينا أخونا المبارك أبو عبد الرَّحمن رضا طَبْعَ مجلَّةِ الإصلاح ورسائلِ المشايخ الفضلاء بطريقة (البرَايْل) ليستفيد منها إخوانُنا المكفوفون، وهذا اقتراحٌ وجيهٌ وتنبيهٌ مفيدٌ، نسأل الله أن يُحقِّقَ لنا ذلك.

❁ وللأخ الودود أبي حذيفة النَّعاس جزيل الشُّكر والتَّقدير على موضوعه المُتعلِّق باتِّباع الدَّليل والعمل بالنُّصوص الشَّرعيَّة.

لكن لا يمكنُ فهم ذلك إلاَّ بالرُّجوع لأقوال أهل العلم الرَّاسِخين وفُهومهم، فهم ورثةُ الأنبياء - عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ -.

ولْيُحْذَرْ من المسارعة إلى تَخطِئَتِهم والرَّدِّ عليهم، ومن رام فهمَ الأدلَّة دون أن يكون من أهل الاجتهاد ضلَّ فهمُه وزَلَّتْ قدمُه وخابَ سَعيُه، واللهُ المستعانُ وعليه التُّكلان.